

جَيْتُهُ

الأنساب المختارة

ترجمة
الدكتور عبد الرحمن بدوي

دار الأنجلو

حيثما

الأنساب المختارة

ترجمة
الدكتور عبد الرحمن بدوي

دار الأنجلو
للطباعة والنشر والتوزيع

العنوان الأصلي : Die Wahlverwandtschaften

ظهر لأول مرة : حرر جيته القسم الأول من القصة إبان صيف سنة ١٨٠٨

والقسم الثاني خلال شهر أغسطس سنة ١٨٠٩

ونشرت القصة كلها في أكتوبر سنة ١٨٠٩

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٩٨٠م

تصدير عام

« الناس سيبصرون في هذه القصة آثارُ جرح عميق يخاف أن يندمل ، وسيستشفون منها إلى قلب يهاب الشفاء » .

هذا الجرح الدامى الذى أصاب قلب جيته الجزوعَ فى سن الكهولة كان من أثر سهم أصابه به كيويذُ من قوس مِنّا هِرْ تسليب ، هذه الفتاة المتوتبة الحاملة فى مُؤْتَف الشبية التى عرفها عند آل فروثمان الذين تكفلوا بتلك اليتيمة العزيزة ذات العينين النجلاوين السوداوين النافذتين ، والوجه الرقيق المستدير ، والقسمات اللطيفة الدقيقة ، والشعر الكَسْنَنَانِى الجفال ، والهود البيضاء الناعمة .

لقد أحباها الشيخ الذى ذرّف على الحسين وهى لا تزال طفلة فى العاشرة ، ونما هذا الحب حتى بلغ أوجه حينما أشرفت على الثامنة عشرة . أما هو فقد كان فى الثامنة والحسين ، بيد أن هذا القلب العظيم « الذى يهاب الشفاء » على الرغم مما قام به من تجارب غرام لم تتوفر مثلها لغيره من العباقرة ، لا يزال يسمي إلى أن يصاب بسهم حب جديد ، لأنه قلب حىٌ أبداً ، شابٌ أبداً ؛ ومثل هذه القلوب لا تخشى الشيخوخة ولا ترجو للسّن المتقدمة وقاراً . وهكذا فلتكن القلوب النبيلة العظيمة حقاً .

وكان الناشئ فروثمان — شأنه شأن كبار الناشئين فى أوروبا وفى العالم العربى فى عصره الزاهر — رجلاً واسع الاطلاع متعدد النواحي الفكرية ؛ وكان بيته ندياً أدبياً من الطراز الأول فى مدينة بينا — تلك المدينة ذات الشهرة الثقافية الكبرى بفضل جامعتها الزاهرة التى قام بالتدريس فيها أمثال

هيجل وشلنج وهيكِل حتى كانت معبد الفلسفة المثالية والفلسفة الحيوية طَوال القرن التاسع عشر - ؛ وكان جيته يتردد على هذا الندى باستمرار ومثارة غربية إبان إقامته في هذه المدينة ، ويلوح أن إعجابه بالندى قد كان يحمله على الإطالة في الإقامة الأشهرَ فضلاً عن الأسابيع . ولم يكن هذا الإعجاب مصدره ذلك الجوَّ الروحي الذي كان يسود الندى بقدر ما كان ذلك الجمال الحالم الذي يشع من تلك الفتاة الرقيقة المَدَلَّة .

ولم يكن في الفتاة ما يدعو إلى الإعجاب الفكري حتى تُنعت عاطفة جيته بنعت آخر غير الحب المشبوب . فقد كانت كما وصفها أخوها في الوصاية : « على الرغم من أنها كانت منذ شبابها سليمة موفورة الصحة ، فإن نموّها الروحي كان بطيئاً ، حتى إنه لم يكن في الوسع أن يطلب إليها أن تقوم بأداء أى عمل عقلى يحتاج إلى شيء من الجهد والبذل . ولقد ظلت طوال حياتها على حال من الحلم الساجى ، مع أنه لم يكن يعوزها الذوق السليم والإحساس الطبيعي ؛ كما بقيت دائماً ذات نفس مُحسنة متواضعة رقيقة حريصة على الاحتفال برغبات الآخرين ، بل وبأمانهم الخفية المستورة » . ولعل هذا عيّنهُ هو الذى جذب جيته فيها : فالعابرة ورجال الفكر يبعضون دائماً المتحذلقات والمتظاهرات من النساء ، وبخاصة ذوات الثقافة الزائفة البراقة منهن ؛ بينما يميلون إلى الطبائع الحاملة الساجية والنفوس البسيطة الساذجة التى تتمثل فيها البراءة الأولى والطهارة والفطرة إلى أبعد حد مستطاع . ولقد أصاب رينان حينما قال : « كلما كان الرجل أنمى بفكره كان أكثر حُلماً بالقطب المضاد ، أعنى باللامعقول ، وبالمرأة التى ليست إلا امرأة ، وبالسكائن الغريزي الفطرى الذى لا يسلك في الحياة إلا وفق ما يمايه عليه دافع الشعور الغامض » .

وَمِنَّا كَانَتْ مِنْ ذَلِكَ النُّوعِ ، فَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ تَسْتَثِيرَ حُبَّ جِيتِهِ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ صَغِيرَةً ، وَكَانَ هُوَ فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ هَدَفَ نَظَرَاتِ النِّسَاءِ الْفَاتِنَاتِ الْمُعْجَبَاتِ بِهِ ، حَتَّى كَانَ يَضْطَرُّ - وَهُوَ زِيرُ النِّسَاءِ - أَنْ يَفِرَّ مِنْهُنَّ . وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الصِّفَاتُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي جَذَبَتْهُ فِيهَا ، بَلْ كَانَتْ فِي مَسْلَكِهَا الْعَامِ فِي الْحَيَاةِ تَلَاثُ أَتْجَاهٍ جِيتِهِ فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ . فَقَدْ كَانَتْ مُسْتَسْلِمَةً تَمِيلُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الزَّهْدِ وَالْعَزُوفِ عَنِ الْحَيَاةِ ، وَتِلْكَ كَانَتْ الْعَاطِفَةُ الَّتِي تَسْوَدُ فِكْرَ جِيتِهِ وَنَفْسِهِ فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ ، حَتَّى كَانَتْ فِكْرَةَ الزَّهْدِ وَالْعَزُوفِ هِيَ الْمَحْوَرِ الَّذِي يَدُورُ مِنْ حَوْلِهِ لِإِنتَاجِهِ الْفَنَى فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ .

وَاقْدَ بَدَأَتْ الصَّلَاةَ بَيْنَهُمَا تَأْخُذُ وَجْهَهَا الْجِدِّيَّ فِي نَوَفَرِ سَنَةِ ١٨٠٧ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مِنْ قَبْلِ نَوْعًا مِنَ الْحُبِّ الْأَبْوَى الرَّفِيقِ مِنْ جَانِبِ شَيْخٍ نَحْوِ طِفْلَةٍ لَمْ تَكُنْ تَشَارِفُ النَّهْدَ ؛ وَإِذَا كَانَ مَعَ هَذَا قَدْ أَحْسَنَ بِمَا تَنْتَهَى إِلَيْهِ هَذِهِ الْعَاطِفَةُ ، فَقَدْ حَاوَلَ عِلَاجُهَا مِنْذُ الْبَدَايَةِ عَنْ طَرِيقِ دَوَائِهِ الْمَهْوُودِ ، وَهُوَ الْإِبْتِمَادُ وَالْفَرَارُ . فَقَلَّلَ مِنْ زِيَارَاتِهِ لِمَدِينَةِ بَيْنَا حَتَّى يَسْتَمِعَ إِلَى صَوْتِ الْحِكْمَةِ وَهُوَ يَدْعُوهُ إِلَى تَرْكِهَا وَالْعَزُوفِ عَنْ حُبِّهَا . بَيِّدَ أَنَّهُ اضْطَرَّ فِي ذَلِكَ الشَّهْرِ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى بَيْنَا لِلْقِيَامِ بِدَرَأَاتِهِ الْخَاصَّةِ بِنَظَرِيَةِ الْأَلْوَانِ الَّتِي كَانَ فِي شُغْلِهَا إِبَانُ ذَلِكَ الْحَيْنِ ، كَمَا كَانَ يَرِيدُ أَنْ يَفْرُغَ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْهَادِئَةِ لِكِتَابَةِ مَسْرُوحِيَّتِهِ « بَنْدُورَا » الَّتِي كَانَ يَرِيدُ فِيهَا أَنْ يَمَرَّ عَنْ مَوْقِفِهِ مِنَ الْأَحْدَاثِ الضَّخَامِ الَّتِي كَانَتْ تَرْهَقُ كَاهِلَ أَوْرُبَا نَاطِلِيُونِ فِي تِلْكَ السَّنَيْنِ ، وَعَنْ رَغْبَتِهِ الْحَارَةِ فِي أَنْ يَرَى الْإِنْسَانِيَّةَ تَسْلُكَ بِهَذِهِ الْأَعْمَالِ الْجَبَّارَةِ الَّتِي تَقُومُ بِهَا « نَحْوُ الْخَيْرِ الْأَبَدِيِّ وَالْجَمَالِ الْخَالِدِ » . فَكَانَ لَا مَنَاصَ لَهُ مِنَ التَّرَدُّدِ عَلَى نَدَى آلِ فَرْوَمَانَ . وَهَنَا أَحْسَنَ بِالْخَطَرِ الَّذِي يَسْتَهْدِفُ لَهُ مِنْ جَدِيدٍ ، وَبِصُورَةِ أَغْنَفٍ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ خُصُوصًا الْآنَ وَقَدْ أَصْبَحَتْ الْفَتَاةُ فِي أَوْجِ فَتْنَتِهَا ، وَصَارَتْ تَقْنُ

الفناء بحساسية مرهفة والرسم والتصوير بالألوان المائية . ومع هذا فقد آثر العزوف مرة أخرى لولا أن جاءه مُنافس قد أثارَ فِيرته وكانت بينهما معارك شعرية خاضها كلاهما من أجل الفتاة . فلقد وفد على يينا في ذلك الحين شاعر شاب كان يُعدُّ أروع شاعر بين « أبناء الوادي » ؛ ونمى به زخرياس ثورر ، فتعرف إلى جيته ، وحاول جيته أن يدرس فيه شعر الحيل الجديد . وبما عُهِدَ في الشباب من حماسة واندفاع اشتعل قلب زخرياس غراماً بالفتاة وراح يقول السوناتات الشعرية الواحدة تلو الأخرى في تدفق غريب ، فكان بينه وبين جيته تنافس مزدوج : فنى وعاطفى معاً . وإذا بجيته هو الآخر يتدفق بالسوناتات على الرغم من أنه كان يكره من قبل هذا النوع من النظم ، حتى كان على حد تعبيره في « حمى سوناتات » متخذاً ها هنا مثله الأعلى عند زعيم السوناتات وهو پترركه ، فراح يصف تجربته الجديدة فيقول : « تدثرت برداء طويل غطاني حتى وجهى ، وهبطت إلى السهول التي أشاع فيها الشتاء ظلمة وكآبة متخذاً شعباً صخرياً ، رمادى اللون وعمراً ، وفي نفسى اضطراب وبى نزوع إلى الفرار . وفجأة بدا لي أن فجراً جديداً قد لاح في الأفق أضواؤه ، لاح في رؤية فتاة ناهد ، أجل ! لقد تبدى أمامى في كمالٍ يعدل كمال العاشقات الرقيقات اللاتى تغتنى بهن الشعراء . هنالك تطامنت رغبتى الشبوبة . ثم انصرفت عنها وتجنبتها وتركتها تمر ، وشددت معطى أكثر وأكثر وغصت في أعماق ثناياه ، وكأني - متحدياً - أردت اللواذ بحجارة نفسى . ومع هذا فقد تابعتها ، تابعت هذه الفتاة التي توقفت أمامى . آه ! لقد قضى الأمر ! لم يَعدْ فى وسى بعدُ أن أظل منطوياً في داخل معطى ، فألقيت به بعيداً عني ، وارتمت الفتاة بين ذراعى » . وهكذا قدر للشيخ أن يخلع معطف وقاره وأن يشتعل فؤاده غراماً بهذه

(ز)

الفتاة الرائعة ، واندفعت العاطفة تحلى عليه سبع عشرة سنة من خير قصائده الفنائية ، ومضى يخترع الأفاقيص والهاويل معبراً فيها عن آلام غرامه وأحزان وجدانه وشكاة مأساته ، وإن لم يكن هنا في سخاء العاطفة وبساطة الإحساس واندفاع الوجدان العَرم بقدر ما كان إبان دور قرّر ومغامرة زيرنهم . ثم تبلورت هذه الأحساس كلها التي ولّدتها تلك التجربة الغرامية في « بَندورا » ثم على وجه التخصيص في « الأنساب المختارة » .

« فالأنساب المختارة » قريبة « آلام الفتى فرّر » في أن كليهما قصد به التعبير الفنى عن تجربة غرامية عنيفة لم تستطع أن تجد منفذاً للإرضاء والإشباع إلا في الخيال الأدبي ، فجاءت كلٌّ منهما تنفيساً شعرياً لقلب مُنْحَن بجراح الحب . بيد أن ثمت بينهما من الفارق الضروري ما كان لا بد أن يقع بين جيته الشاب المتوثب العَرم الوجدان المنطلق في حركة « العاصفة والاندفاع » ، وبين جيته الكهل الذى خبر الدنيا وعرف أحوالها فامتلاّت نفسه من حكمة الحياة وطامن من حرارة روحه ومال إلى شيء من الزهد والعزوف ، وصار يُقدّر العواطف بقدرها المترن ؛ جيته الذى صار يعنى بالمسائل العلمية قدر عنايته بالاتجاهات الفنية فلم يَعمد شاعراً خالصاً كما كان في عهد فرّر ، بل صار إلى جانب هذا عالماً يبحث في النبات والمعادن ونظرية الألوان ، فكان لا بد له أن يتأثر كذلك بهذه الناحية العلمية في إنتاجه الفنّي ؛ ولذا جاءت قصة تجربة غرامه الجديدة جامعة بين هذا كله : بين الوجدان المتوثب المشبوب ، والحكمة الناصعة المترنة والزرعة العلمية الإنسانية معاً .

أجل ، لقد أراد جيته في هذه القصة أن يطبّق صيغة كيميائية مشهورة

(ح)

على الأحوال الإنسانية . فقد عرف من دراساته الكيميائية ، كما قال في حديثه لكاتبه ريمر ، عن طريق مؤلف لـ كيميائي سويدي هو توربرن برجن Torbern Bergman بعنوان « الأنساب المختارة » *De attractionibus electivis* ترجم إلى الألمانية سنة ١٨٨٥ بنفس العنوان *Die Wahlverwandschaften* ، وفيه عرض نظرية التجاذب بين العناصر الكيميائية وما يؤدي إليه هذا من تركيبات جديدة وفقاً للعوامل التي تدخلت في هذا التجاذب . بيد أن المؤلف السويدي لم يستخدم في شرحه لتلك المسألة الحروف ، إنما الذي استعان بها هو الفزيائي الألماني . س جيلر Gehler في « معجمه الفزيائي » الذي ظهر بين سنة ١٧٨٧ — ١٧٩١ . وخلاصة هذه النظرية الكيميائية أن بين المواد الكيميائية أنواعاً من النسب أو التجاذب الطبيعي أولاً فيما بين نفسها ، كما يشاهد في قطرات الماء التي تميل إلى الاتحاد بعضها ببعض لتكوين السيول والأنهار ؛ وثانياً فيما بين أنواعها المختلفة بعضها وبعض ، وهذا إما أن يتم بسهولة كما في اتحاد الملح مع الماء ، أو بمساعدة قلوبى كما في حالة امتزاج الزيت والماء ؛ وقد يكون من شأن هذا الامتزاج ، إن كان قوياً بدرجة كافية ، أن يولد مادة جديدة كل الجدة ، كما يحدث حينما يصب حمض الكبريت فوق الجير مُنتِجاً مادتين جديدتين هما حمض الكربون والجبس . كما أن ثمت نوعاً ثالثاً من النسب يمكن أن يسمى المتقاطع أو المزدوج : فقد يكون لدينا زوجان من العناصر ، ا ب و ح و د ، وكل عضو في كلا الزوجين مرتبط أوثق ارتباطاً بأخيه ؛ لكن إذا وجدت الأعضاء الأربعة في حضرة واحدة ، فقد يحدث أن يفضل ا الانفصال عن ب والاتحاد مع د بينما يميل ب إلى الانفصال عن رفيقه مفضلاً الاتحاد مع ح ؛ وعلى هذا النحو يحدث تقاطع في النسب .

عرف جيته هذه الظاهرة التي تجرى بين العناصر في عالم المادة من دراساته الكيميائية التي تعود إلى سنة ١٧٩٨ تقريباً ، فأراد أن يجد نظيراً لها في عالم الأحياء ؛ فاستبدل بالعناصر المادية أشخاصاً من الإنسانية وعرضهم أمامنا وهم : إدورد وشرلوت والكابتن وأوتيلي ؛ وقصّ علينا بلسان الكابتن ، وقد سأله شرلوت عن تلك الظاهرة ، نبأ هذه التجربة الكيميائية وما عسى أن تنطبق عليه في عالم الإنسان . وهكذا وضعنا المؤلف بإزاء موضوع القصة منذ الفصل الرابع : فسيحدث للكائنات الإنسانية ما يحدث تماماً لتلك العناصر الكيميائية ؛ إذ على الرغم من القانون الذي يربط بين هذه الشخصيات فإن الاتحاد ستنفصم عروته وفقاً لما تقتضيه الأنساب الطبيعية المختارة مخلياً السبيل لارتباطات جديدة . فالقانون الوضعي قد ربط بين إدورد ، هذا البارون الثرى المجتمع الأُسْدُ ، وبين شرلوت الأرملة العاقلة ، بعد أن فصل بينهما زواج غير موفق من كلا الجانبين على الرغم مما كان بينهما من غرام متبادل قبل هذا الزواج ؛ بيد أنه لم يكمل بالزواج إذ آثر إدورد أن يرضخ لمشيئة أهله الذين رغبوا له في الاقتران بفتاة موسرة ، وشرلوت من جانبها تزوجت وأنسلت فتاة ذكية لعوباً كلها فُراغات شيطانية تدعى لوسيانة . ثم بعد حين يصبح كلاهما حرّاً فيعودان إلى عاطفتهم القديمة ، وينتهي الأمر بهما إلى الزواج . وهما يسلكان سبيل الحياة الهادئة في ضيعتهما حيث يفكران في إقامة منسّئات جديدة وغرس مآثر في البستان . وكان لإدورد صديق منذ الطفولة يذكر دائماً بوصفه العسكري وهو الكابتن ، وقد كان في ذلك الحين متعطلاً من كل عمل ؛ فرأى إدورد أن واجب الصداقة يدعوه إلى إيجاد عمل لتلك المواهب الوافرة المتعطلة ، ورأى من ناحية أخرى أنه في حاجة إلى معونته

فما استقر عليه من الإشراف على استقلال ضيعته على خير وجه . فافترح على زوجه أن يدعو الكابتن معهما ، كيما يعاونهما ويجد مجالاً لنشاط ملسكاته . بيد أن شرلوت توجست خيفة من دخول شخص ثالث بين كليهما وأبدت هذه المخاوف لقرينها . وأخيراً تفاقاً على أن يتخذا حلاً في تنفيذهما رضا الجميع ، وذلك بأن يدعى كل من الكابتن وأوتيل ، تلك الفتاة اليتيمة التي كفلتها شرلوت بعد أن ماتت أختها وخلفت أوتيل . ومنذ هذه اللحظة يبدأ التفاعل الروحي الذى يكون نسج هذه القصة .

والبطلة الحقيقية لهذه الرواية هي أوتيل . كانت فتاة ساذجة متخلفة في المدرسة الداخلية التي أرسلت إليها مبكراً مع ابنة خالتها لوسيانة ؛ وكانت خجولاً لا تحب الظهور ولا تشارك في الحفلات ولا المجتمعات العامة ولا تضطرب فيما يضطرب فيه لِداتها من الفتيات مما كان يشيع لديهن الرغبة في التظاهر والإقبال على الحياة العالية في المجتمع الراقى . وكانت حاملة ساهمة ساجية نملو نفسها كآبة رقيقة ويشيع في قلبها استسلام راضٍ وإذعان رزين ، مما كان يُضفى على مظهرها شيئاً من الحكمة والتعقل سنرى أثره واضحاً في « يومياتها » التي تفيض بحكمة الحياة . ولهذا كله كانت أوتيل المثل الأعلى للسكان الفريزي الفطرى ؛ للأنونة الخالدة البريئة الساذجة كما كان يتصوره جيته ، وكما رسم صورته من قبل في أشخاص جرتشن ومنيون وشرلوت . لكنها تفضل هؤلاء البطلات بمراحل عدة ، على الأقل من بعض النواحي : فهي تفرغ جرتشن بما فيها من حكمة ورزاة على الرغم مما يبدو عليها من بساطة وسذاجة تكاد تصل حد الغفلة والبله والحق ، وهي تبسّر منيون بالبراءة الطفولية ، وإن كانت منيون تفوقها من ناحية سعة خيالها والتهاب وجدانها وانطلاق عاطفتها الفئائية ؛ وهي تفضل

(يا)

شرلوت « قرّر » بمق عواطفها ونفوذ إحساسها - وإذا كان النقاد يأخذون على أوتيلي أنها « عاقلة أكثر مما يجب » ، ويمزقون هذا إلى سن جيته المتقدمة في ذلك الحين ، وكانت تميل إلى الحكمة والتأمل أكثر من البساطة والوجدان الساذج ، فإن رأيهم هذا إنما بنوه على أساس « يوميات أوتيلي » ، وهي فعلا محشوة بالحكمة الرزينة التي لا يُتصور صدورها عن فتاة ساذجة ، بيد أن الصورة الحقيقية لهذه الفتاة لا يجب أن تؤخذ من « اليوميات » ، بل من مجرى القصة نفسها ومن مسلك أوتيلي ووصفها خلالها . إذ من الواضح أن جيته إنما أراد أن يضع خلاصة تجاربه وعصارة حكمته في الحياة في داخل هذه « اليوميات » ، لأنه لم يجد مجالاً آخر غيرها ؛ ثم أحس بما في هذا من تحميل لأوتيلي ما هو فوق طاقتها فاعتذر عن هذا النوع من عدم التناسب بأن عزنا كثيراً من الأقوال الحكيمة المسجلة في « اليوميات » إلى قراءات الفتاة ، وكل ما فعلته أن نقلت هذه الأقوال التي قرأتها وسجلتها في « اليوميات » ؛ ومعنى هذا بصريح العبارة أن جيته لم يطلب إلى الناس أن يتخذوا صورة أوتيلي الحقيقية من هذه « اليوميات » ، وإنما من مجرى القصة كلها . إذاً نظن أن أولئك النقاد الذين لاموا جيته من هذه الناحية قد غالوا في الحكم واشتطوا في التقدير .

إنما تُستمد صورة أوتيلي الصافية من مسلكها البسيط الرائع إبان القصة كلها . هنالك سنراها فتاة مرهقة الحساسة ، في غير تظاهر ولا انفجار سطحي ؛ مستسلمة للمصير في حب يدعو إلى الرثاء والحنان عليها ؛ صادقة الحكم بوجدانها الفطري وعيائها الغريزي وتوسمها الرقيق النفاذ ، دون ما تعقل وتفكير متحذلق ، تنزع نزعاً صوفية تجعلها على اتصال مستمر بالطبيعة وما تنطوى عليه من أسرار تستشعرها هي في أعماق

(يب)

وجدانها ودخيلة لا شعورها ، فتصدر عن قاع هذا الباطن الخفى الرهيب دون أن يستطيع العقل النظرى والفكر المنطقى تبرير أحكامها ونظراتها وهواجسها ، مما يضيق على روحها نصاعة الفطرة وسذاجة الغريزة وصدق الطبيعة الصافية . لهذا كله لا يستطيع المرء بإزائها إلا أن يقف طويلاً مُفَكِّراً متأملاً فى صمت رهيب وخشوع ذاهل ، وكأنه أمام قوة خفية مستبصرة تنطق عن وحى علوى مجهول المصدر . والحق أن فى طبيعتها من طبائع القديسات - خصوصاً فى الدور الأخير من حياتها ، إبان عزوفها وزهدها المطلق - ما يحملنا على أن نسلُكها فى عداد المتألهات القديسات . وإن هذه الصورة لتكمل فى المنظر الأخير حينما يحدث لخادمتها نانت من التصورات والإيهامات والتهاويل ما يلقى بنا فى عالم القداسة والخوارق والكرامات . ولم يكن عبثاً أن أضاف جيته هذا الجانب الذى لم يقصد به إلى تصوير نانت بقدر ما قصد به إلى تصوير أوتيلي وقد ارتفعت فى موتها بين هالة من القداسة الزاهية إلى عالم نورانى من الخيال الصوفى والوجد النشوان ، حتى بدت لنا فى كل جلالتها كأنها العذراء وقد تجلّت فى عليين بين ملائكة النور فى عرشها البلورى ؛ ولقد كان تابوت أوتيلي بواجهته الزجاجية البراقة هو ذلك العرش البلورى الذى حملت عليه فى سماوات النعيم وطوبى القديسين .

لكن هذه القداسة الظاهرة قد أرغمها مصيرها القاسى على الدخول فى محنة بالغة حينما وجدت فى حضرة إدورد ، زوج خالتها التى أحسنت إليها وشملتها بكل حنانها وجميلها ، فاضطرتها الأنساب الطبيعية بمالها من قانون صارم على الخروج عن سبيلها المقدس بأن أمالت قلبها إلى إدورد وأمالت قلب هذا إليها ، مما ولد تنازعا رهيباً احتملت الفتاة مجراه فى

(يـ)

استسلام كظيم . لقد كانت من البساطة بحيث اندفعت وراء غريزتها وميولها الفطرية فأحبّت الرجل الذى يحرم عليها القانون الأخلاقى أن تحمل له عاطفة من مثل هذا النوع . أما القانون الطبيعى فقد كان يدعوها إلى هذا الحب : لأن الزواج بين إدورد وبين شرلوت لم يقم هذه المرة على الحب ، بل كان من قبيل المصادفة ، وكان نتيجة وهم من كلا الجانبين ما عبّدا أن اكتشافهما حينما أظهرها عليه القانون الطبيعى ، قانون الأنساب المختارة . ومن هنا وقعت أوتيل فى مأزق بين ما يقضى به الواجب الأخلاقى والعرف الجارى وبين ما يدعو إليه الميل الطبيعى والنسب المختار . ولم يكن كفاحها متكافئاً فى أول الأمر مع الطرفين المتنافرين : الواجب والمأطفة ، لأنها كانت تفكر بغريزتها وقلبها ، إذ كان الظفر للمأطفة فى أول الأمر . غير أن القدر الصارم قد شاء أن ينيهما — فى اللحظة التى انحرفت فيها عن الواجب وأسلمت نفسها للمأطفة — إلى ضلالها وانحرافها ، بأن جعلها السبب فى موت ابن شرلوت وإدورد ، بينما كانت تتريّض به فى الزورق : إذ سقط من بين يديها فى الماء فاقد الحياة .

ولقد كان لموت هذا الطفل معنيان متضاربان : فيمكن أن يفسّر على أنه كان من أجل إخلاء السبيل أمام القانون الطبيعى للأنساب المختارة ، إذ كان الطفل هو العقبة القائمة فى سبيل الانفصال بين شرلوت وإدورد ، فكان فى زوالها ما يسمح بالطلاق ، وبالتالي بالاتحاد فيما بين إدورد وأوتيل . كما يمكن أن يفسّر كذلك على النحو الآخر الذى أتينا على ذكره وهو أنه كان تحذيراً من القدر كما يتم نفاذ القانون الطبيعى ويحترم القانون الأخلاقى الوضى . وفى هذا الاشتراك فى المعنى لدلول ذلك الحادث قام التعارض الشائق الذى كوّن عقدة القصة ، تلك العقدة التى حلت فى النهاية لصالح التفسير الثانى فذهبت أوتيل ضحية للمصير الذى لا يرحم .

(يد)

وهنا تبرز المشكلة الحقيقية فى القصة : أهى تنحو منجى أخلاقياً وتريد أن تؤكد ظفر القانون الأخلاقى على القانون الطبيعى ، أم هى بعزل عن كل هذه الاعتبارات الأخلاقية ؟

لقد حار النقاد والقراء منذ ظهور هذه القصة حتى اليوم فى حل هذه المشكلة . فبعضهم نظر إليها بالنظرة الأولى وجعل منها تمجيداً للرباط المقدس ، رباط الزوجية ؛ متخذاً هذا التفسير من مخرج القصة ومسرد أحداثها وخاتمها ، دون أن يحفل بالآراء التى بثها جيته عن الزواج على لسان الكونت الذى كان يرى فى الزواج أنه عقد كعقد الإيجار مدته خمس سنوات قابلة للتجديد إن رضى الطرفان ولإعادة التعاقد مدة أخرى بعد انقضاء فترة كافيته إن لذ للطرفين العود إلى ذلك التعاقد مرة أخرى !

وفريق آخر آثر أن يعزو إلى جيته آراء الكونت هذه ، ونعت القصة بأنها مفسدة للأخلاق مخالفة لما يقضى به الواجب فى المجتمع المستنير . ولعل هذا كان رأى الغالبية من معاصرى جيته الذين حملوا على الكتاب حملة شعواء من هذه الناحية .

أما نحن فلن نأخذ هذا الجانب ولا ذاك من حل تلك المشكلة . وجوابنا عنها أن القصة ، وإن تناثرت فيها الحكم الأخلاقية واتسمت بزرعة تعليمية فى بعض مواضعها ، فإنها يجب أن تعد بمنزل عن كل اعتبار أخلاقى . وإنما الصياغة الفنية والاعتبارات الأدبية هى وحدها التى أملت على جيته طريقته فى تصوير الأشخاص وسرد الأحداث والإفضاء بها إلى خاتمها النهائية . فالفن القصصى قد قضى عليه أن يعرض الاعتبارات والأفكار من كلا الجانبين المتعارضين : جانب الأخلاق والقانون الوضعى الذى يمثلونه وتنفو إليه شلوت ، وجانب العاطفة والزعات الطبيعية الذى يحمل لواءه الكونت ويهفو إليه إدورد ؛ فعمل

(٥)

جيتته هذا دون أن يرجح طرفاً على طرفٍ شأنه شأن كل فنان خالص ممتاز : يظل دائماً غنائى ومعزل عن كل تقويم أخلاقى ، لأن الفن يقوم بطبعه بمعزل عن الأخلاق وعن كل تقويم أخلاقى . إنما الذى أؤمم النقاد السطحيين فى هذا الباب وحملهم على إدخال ، بل لإقحام الاعتبارات الأخلاقية على قصة جيتته هو الظروف التى أحاطت بمؤلفها أثناء كتابة القصة أولاً ، وثانياً مارأوه فيها من سيادة الروح الفكرية وتناثر الحكمة فى كل أجزائها وما لها من تركيب عقلى بنائى محكم الفكرة . أما الظروف فعلى أن نسمى الطلاق كانت قد انتشرت فى ألمانيا فى الوسط المحيط بجيتته فى ذلك الحين إلى درجة مريبة : فطلقت الكونتيسة إجلوفشتين وفراو يوجيش وفراو ليوغنسوف وكارولين فولتسوجن وكارولين اشليجل وغيرهن كثيرات من عليية القوم فى ثيار ؛ ولم يكن جيتته ، حين يسأل عن رأيه فى الطلاق ، ينصح بالعدول ، بل كان على العكس من هذا يحبذ به ويوافق عليه . وهذا هو السر فى سيادة التفسير الثانى للقصة عند معاصريه : فقد حكموا عليها وفق ما عرفوه من رأى جيتته الحقيقى عن الزواج . والاعتبار الآخر هو الإحكام العقلى فى صياغة القصة ودورانها على فكرة علمية مما حمل النقاد على افتراض ضرورة قيامها على أطروحة أو قضية يريد جيتته تأييدها أو تفنيدها ؛ ومن هنا عدوا القصة من ذلك النوع من القصص الذى يسميه الفرنسيون القصة ذات الأطروحة أو القضية roman à thèse . والحق أن نسج القصة لم يكن ليسمح للنقاد المتفطّن بهذا التفسير ؛ وإنما هى عناية جيتته بالمسائل العلمية فى تلك الفترة هى التى جعلته يتخذ فكرة الأنساب المختارة فى الكيمياء لتطبيقها على الأمور الإنسانية ، دون أن يقصد من وراء هذا إلى الدعوة إلى قضية وأطروحة معينة .

والرأى عندنا إذاً أن الاعتبارات الفنية هى وحدها التى تدخلت فى

تركيب القصة والسير بجراها والانهاء إلى نهايتها . وآية ذلك أن الحرمان الذي قضى به على أوتيل لم يقصد به إلى تعذيبها ككفارة عن خطيئة حبها ، إنما كان تكملة لصورتها الحقيقية التي عرفنا قسماها وملاحمها منذ اللحظة الأولى ، صورة القديسة الشهيدة التي قنعت بالتسليم للقدر وجعلت من حب المصير مبدأها في السلوك والتفكير . ولهذا فإن القوة المحركة في القصة كلها هي قوة المصير بالمعنى اليوناني لهذا اللفظ (εἰμωμένῃ) . والواقع أن القصة قد صيغت على نموذج يوناني خالص مع ما تقتضيه روح العصر الحديث ؛ ولا عجب فقد كان جيته مشغولاً في ذلك الحين بالروح اليونانية التي أجاد التعبير عنها في توأم قصتنا هذه ، ونعني بها مسرحية « بَندورا » التي كتبت معها في وقت واحد .

وإن هذا المصير الرهيب لذو نيات عجيبة ؛ وعبثاً يحاول العقل والفضيلة والواجب وكل ما هو مقدس أن يعترض سبيله ؛ فإن إرادته لا بد نافذة وقضاه لا مُعَقَّب له ولا رادّ ، ولا مناص من أن يحدث شيء لعله أن يبدو لنا ضاراً لكنه في نظر القدر أو المصير عادل ، شيء يستولى علينا ويمسكُ مُخَفَّفًا مهبما حاولنا التخلص منه ، كما قالت شارلوت . بيد أن في حُبِّ هذا المصير نعمة المرء وواجبه الأسمى . فعلينا إذاً أن نعزف عن أغلى أمانينا ونزهد في أنبل عواطفنا ، ما دام المصير قد قَدَّرَ هذا علينا ؛ ولنسكن له ولأحكامه إذاً شهداء مخلصين ، ففي هذا ما يهب القداسة للنفوس البريئة التي استشهدت في سبيل حُبِّ المصير .

ولا نغير علينا من اتخاذ هذا الدرس في الحياة : فإن المصير يضعنا أحياناً في مأزق وجودية لا سبيل إلى الخلاص منها إلا بالزهد والعزوف والاستشهاد

جَيْتُهُ

الْأَنْسَابُ الْمُخْتَارَةُ

القِسمُ الأوَّلُ

جَيْتُمْ

الْأَنْسَابُ الْمُخْتَارَةُ

الْقِسْمُ الْأَوَّلُ

الفصل الأول

أمضى إدوَرْد - وهو بارون ثرى فى مُحميّا الرجولة - أجمل ساعات الأصيل فى يوم من أيام أبريل ، وهو يأبُر جذوعاً غضة بما بَر تلقاها منذ حين . وها هو ذا قد فرغ من عمله بالمغرس ، فوضع أدواته فى كِنْفِها ، وتأمل ما فعل فى شىء من الرضا ؛ وإذا بالبستانيّ يقدّم إليه ، فيُسرّ برؤية سيده وهو يشارك فى هذه الأعمال بحماسة وإقبال .

« ألم تر زوجتى ؟ » هكذا سأله إدوَرْد ، بينما هو يتأهب للرحيل . — بلى ، رأيتهما فى الناحية الأخرى وسط المنشئات الجديدة ، بهذا أجب البستاني . إن الكوخ الطحلبى الذى أمرت بإنشائه على جدار الصخرة فى مواجهة القصر سينتهى اليوم ، وكل شىء قد صار جميلاً حتى إنه ليسر سعادتك . فالنظر رائع : هناك القرية ؛ وعن يمين تقوم الكنيسة ، ومن أعلى برجها يمتد النظر إلى أبعد الآفاق ؛ وفى المواجهة يتبدى القصر والحدائق . فأردف إدوَرْد قائلاً : « بخ بخ ! لقد كان فى وسعى أن أرى العمال ، على قيد خطوات من هنا ، وهم على عملهم عاكفون ! » .

وتابع البستاني حديثه : « وعن يمين ينفرج الوادى ، ويتبدى من فوق الخمائل الفنية منظر ساجٍ طروب ؛ والشَّعب الصاعد إلى الصخر قد شُقَّ فى روعة وجمال . حقاً إن عصمة البارونة على حظ من الفهم فى هذه المسائل حتى ليلد للمرء أن يعمل تحت إمرتها » .

— إذ ذهب والتمس منها أن تنتظرنى ، وأخبرها أنى أود أن أرى هذه المنشأة الجديدة وأن أعجب بها أنا الآخر .

فضى البستاني مسرعا ؛ وبعد قليل لحق به إدورد .

هبط إدورد الدَّرَجَ وتفقد في طريقه مرابى النبات ومراقده ، إلى أن بلغ الجدول ، ثم مضى في طريقه إلى حيث يفترق الطريق المُفضى إلى المنشئات الجديدة إلى شعبتين . يَبْدُ أنه ترك الشعبة التى تؤدى إلى الصخور مباشرة مارّة بالمقبرة ، واتخذ تلك الأخرى التى تدور عن شمال صاعدة إلى بعيد شيئا ، فى انحدار رقيق خلال خيمة موقفة . وعند ملتقى الشعبتين جلس برهة على مقعد وثير ، ثم بدأ صموهه الجِدَى ؛ وبعد سلسلة من السلام والمدارج رأى نفسه بإزاء طريق لِرُب ، وعُمر حيناً ، أقل وعورة حيناً آخر ؛ وأخيراً بلغ الكوخ الطحلبى .

وهنا عند الباب استقبلت شرلوت زوجها ، وجعلته يجلس على نحو يهيئ له أن يرى بنظرة واحدة ، من خلال الباب والنافورة ، تلك المناظر العديدة التى تبدت كأنها صور ذوات أُطُر . فتأمل فيها بقلب طروب ، آملاً أن يأتى الربيع عما قليل فيشيع فيها كلها حياة جديدة . وقال : « ليست لدى غير ملاحظة واحدة ، ألا وهى أن الكوخ يبدو لى ضيقاً شيئاً » . فأجابت شرلوت : « وهو مع ذلك أوسع مما يحتاج إليه نحن الاثنين » . فقال إدورد : « أجل ! بل فيه مُتسع لثالث » .

— ولمَ لا ؟ بل ولرابع أيضاً . فإن زاد عددنا استطعنا أن نهيمُ
أما كن أخرى .

فأردف إدورد : « ما دمنا الآن وحدنا هادئين ، يملونا طائف الهدوء والسَّجْو ، فإنى أعترف لكِ بأنى أحمل فى قلبى منذ زمن شيئاً أود أن أفضى إليك به ، بل أراه واجباً علىّ ، دون أن يكون فى وسعى أن أجد الظرف اللائم » .

فقلت شرلوت : « وأنا قد لاحظت عليك شيئا من هذا القبيل » .
 — ولولا أن بريد صباح الغد يدفعني إلى هذا دفعا ، ولولا أن الضرورة
 تحملنا على البت في هذا الأمر اليوم ، فإنني أصرح لك بأنني كنت سأعتصم
 بالصمت إلى حين أطول .

— ما الأمر إذن ؟ هكذا تساءلت شرلوت ببشاشة رقيقة .
 — الأمر أمر صديقنا القائد . فأنت تعلمين إلى أي حد بلغت به سوء
 الحال ، هو وكثيرون غيره ، دون ذنب أناه . وكم يحز في نفس رجل مثله ،
 عنده ما عنده من معارف ومواهب وتجربة ، أن يرى نفسه متعطلا . ولست
 أريد أن أكتمك بعدُ ما أنا راغب في عمله بالنسبة إليه : فإنني أود أن
 أضمه إلينا مدى حين .

فأجابت شرلوت : « هذه مسألة تستحق التفكير ، ويجب أن نتأملها
 من أكثر من ناحية » .

فرد عليها إدورد قائلا : « إنني على استعداد للاقتضاء إليك بما أراه .
 ففي رسالته الأخيرة تشيع روح يأس عميق ؛ وليس هذا لأنه غير قادر
 على القيام بحاجاته لأنه ممن يرضون بميسور العيش ، وأنا بدوري قد كفيته
 الضروري من حاجته . وهو أيضا لا يجد كبير غضاضة في أن يتلقى
 معونتي : لأننا تبادلنا في حياتنا من الخدمات ما لا نقدر على عده
 وتقديره . إنما عذابه الحقيقي هو أنه فارغ من الأعمال . وإن غاية آماله
 وأحروجدانه هو أن يستغل مواهبه العديدة التي نتماها في نفسه من أجل
 الآخرين . أما الآن وقد أقوت ترائبه من مواهبه ، أو صار يعنى بدراسات
 جديدة وتقوية ملكات عدة ، دون أن يكون في وسعه الانتفاع بما لديه
 بالفعل منها — فهذا كله ، يا طفلي العزيزة ، موقف أليم غليظ ، تزيد
 الوُحدة في ترويعه » .

فقلت شرلوت : « لقد قام في نفسي أنه عرضت عليه عروض من مختلف الجهات . وأنا نفسي قد كتبت رسائل توصية به إلى نفر من أصدقائي وصديقاتي ممن تُرجى عندهم الشفاعة ؛ وإذا لم تكذبني الظنون ، فإنه يحيل إلى أن هذه المسعاة لم تذهب سدى .

— حقاً ! لكن هذه المساعي والعروض نفسها تزيد في شقائه وتعذيبه . فليس فيما عرض عليه ما يتلاءم ونفسه . فالتناس لا يطلبون إليه أن يعمل ، بل أن يضحي بنفسه : بعواطفه وآرائه وأوقاته وطبيعته وجوده . وهذا أمر يستحيل عليه . وكلما أعمقت النظر في هذا كله ، ازدادت تأثراً بحاله ، ورغبة في رؤيته إلى جوارنا .

فأجبت شرلوت : « جميل منك أن تحتفل بمرکز صديقك كل هذا الاحتفال ؛ لكن اسمح أيضاً أن أحملك على التفكير في حالك وحالنا جميعاً » .
— لقد أفكرت فيه . وما لنا أن ننتظر من حضوره بيننا غير اللذة والفائدة . وأنا لا أعني النفقات ، التي لن تكون بالنسبة إلى إلا تافهة ، خصوصاً إذا قدرت أن حضوره لن يحدث لنا أية متاعب . فمن الممكن أن يسكن الجناح الأيمن من القصر ، وما عدا هذا فمن اليسير تنظيمه . وإياها من خدمة جليلة تلك التي نسديها إليه عن هذا الطريق ! وكم من لذائذ وفوائد سنظفر بها من وجوده بين ظهرائنا ! ذلك أني أريد منذ زمن طويل أن أرفع مستوى ضيعتي وما حوالها ؛ وسأكل إليه أمر هذا العمل وتنظيمه . وفي عزى أن أستثمر ارضي بنفسى ، حالما تنتهى عقود المستأجرين . وهذا أمر ما أشد عُسرهُ ! وكَم من اتجاهات سيعطيها إيانا ! إني لأشعر شعوراً قوياً مُلِحّاً بحاجتي إلى رجل على شاكلته . أجل إن الريفين لهم أفكار صائبة ، ولكنهم يفضون بها مضطربة ، غامضة وبنية غير سليمة

ولا خالصة . والزراعيون من أبناء المدن والأكاديميات يتصفون بالوضوح والتنظيم في الأفكار ، لكن تعوزهم الخبرة . وأنا أأمل أن أجد في صديق هذين الجانبين النافعين ، مما سيتولد عنه الكثير من النتائج التي يلذ لي تخيلها ؛ بل والتي تعنيك أنت أيضاً ؛ وأتوقع من ورائها الخير العميم . وإنني لأشكر لك حسن استماعك إليّ الآن . لكن تسلمي بدورك ، بكل حرية وتفصيل ؛ وأنبئني بكل ما لديك أن تقوليهِ ؛ فلست أريد أن أقطع عليك حديثك .

— فقالت شرلوت : سأبدأ حديثي بملاحظة عامة هي أن الرجال يشغلون خصوصاً بالحالة الجزئية المفردة ، بالحاضر ، ولهم الحق ، لأنهم مطالبون بالعمل والفعل ؛ أما النساء فإنهن على العكس من هذا ، يفكرن أكثر وأكثر في تسلسل الحياة واستمرارها ، وهذا صواب أيضاً ، لأن مصيرهن ، ومصير أسرهن ، معقود بهذا التسلسل ، ولأنهن مطالبات بهذا الاستمرار . ألا فلنُلْقِ نظرة إلى حياتنا الحاضرة ، وإلى حياتنا الماضية ؛ هنالك ستعترف بأننا إن دعونا إلينا القائد ، فإن هذا لن يتفق ومشروعاتنا وما قدرناه من أوضاع وترتيبات .

« وإنه ليحلو لي أن أذكر الآن علاقاتنا الأولى . لقد ربط الحب الرقيق بين قلوبنا في غضارة الشباب . ثم فُصِّل ما بيننا ، وفُتِّق بين كليتنا : أما أنت ، فلأن أباك قد أولع بالثراء فقد شاء أن يَرْفُك إلى امرأة غنية ، وإن كانت متقدمة في السن ؛ أما أنا ، فلأني — لغير سبب خاص — قد أرغمت على أن أهب يدي لرجل مُوسر كريم ، وإن كنت لأحبه . ثم أصبحنا حُرَيْن بعد حين : أنت أولاً ، وقد خلفت لك أمثك ثروة ظاهرة ونعمة وافرة ؛ ثم أنا من بعد ، في نفس الحين الذي عدت

فيه من أسفارك . وتلاقينا وتبادلنا أطيب الذكريات ؛ وما كان أشهى تلك
الذكرى ! وكان في وسعنا أن نعيش سوياً دون عائق . وألححت أنت في
أن ترتبط : غير أنى لم أرافيتك على هذا أول الأمر ، لتقارب أعمارنا ، وأنا
كامرأة قد صرت اليوم أكبر منك سنّاً . وأخيراً لم أشأ أن أرفض لك
ما أُخيل إليك أنه سعادتك الوحيدة . أجل ، لقد رغبتَ في أن تسكن
إلىّ وتتقيأ ظلال الراحة إلى جوارى ، الراحة من عناء ما عانينا في البلاط
وفي الخدمة وإبان أسفارك ؛ ووَدِدْتُ أن تستنشى نسيم الراحة ، وأن تنعم
بالحياة ، لكن معى وحدى . فأرسلت بابنتى الوحيدة إلى مدرسة داخلية ،
حيث تنمو الآن وتترعرع على نحوٍ فيه من التنوع ما لم يكن متيسراً في
مقام ريفي . بل لم تكن هى وحدها ، إنما أوتيلي كذلك ، ابنة أختي العزيزة ،
بعثت بها إلى المدرسة عينها ، وهى التى ربما كان من الأفضل تربيتها تحت
إشرافى من أجل معاونتى فى الشئون المنزلية . وكل هذا قد فعلته ، بموافقتك ،
لا لسبب إلا أن يكون فى وسعنا أن نعيش لأنفسنا ، وأن ننعم رافهين ،
دون ما شىء يعكر صفونا ، بهذه السعادة التى طالما تحرقنا شوقاً إليها منذ
نومة أظفارنا ، ولم نظفر بها إلا متأخراً . وعلى هذا النحو دخلنا مقامنا
الريفى . فنهضت أنا بأعباء المنزل ، ووفيت أنت بشئون الخارج وبالمسائل
العامة . وأعددت عدتى كيما أحقق كل رغباتك ولا أعيش إلا من أجلك :
فلنجرب ، ولو لمدة قليلة ، كيف وإلى أى حد يستطيع كلانا أن يكنى
أخاه حاجته .

فأجاب إدورد : « أجل ! إن التسلسل هو ، كما قلت ، جوهر المرأة
الحقيقى ؛ لهذا ليس لنا أن ندعك تعرضين أفكارك تبعاً ، أو أن نقنع
بالموافقة على ما تقولين . وفى الحق لقد كنت إلى اليوم على صواب . إن

ما هيأناه من أمور حتى الآن من أجل حياتنا مفهوم معقول ؛ لكن ، أفلا يخلق بنا أن نقيم شيئاً فوق هذه الأساس ، وأن ننميها في اتجاه آخر ؟ هل ما قت به من أعمال في الحديقة ، وما فعلتبه أنت في التفره ، قد كان من أجل ناسكين ؟»

— حسنًا ! هكذا قالت شرلوت ، حسنًا جدًا ! لكن حذار أن ندخل فيه ما هو ثقيل أو غريب ! قدّر أن مشروعاتنا ، حتى ما يتصل منها بالتسلية ، قد افترضت أننا لن نكون غير اثنين . لقد شئت أول الأمر أن تروى لى أنباء أسفارك متصلة متتابعة ؛ وأن تنظم في هذه المناسبة مختلف الأوراق التي تتصل بهذا الأمر ، ثم تنشئ بمعونتي واشتراكي من هذه الأوراق — الثمينة ، ولكنها مختلطة — كتاباً يسرنا ويسر الآخرين . ولقد وعدتكم بمساعدتكم في النسخ ؛ وبدلنا من الميسور العذب الجميل أن نتجول في الذكرى في هذا العالم الذي لم نستطع أن نراه سوياً . بل نحن قد بدأنا هذا فعلاً . ثم أتى المساء فالتقطت نايلك ، وسائر بياني ؛ ولم تكن تموزنا الجيران ، ممن نزورهم ويوزروننا . أما عن نفسي ، فقد أمّلت من هذا كله أول صيف عذب حقاً أمضيته في حياتي .

— فأردف إدورد قائلاً وهو يحك جبينه : على الرغم من كل ما تستطيعين أن تقولي به بلباقة وحسن تعليل ، فإن فكرى يرى دائماً أن حضور القائد لا يفسد شيئاً ؛ بل بالعكس ، سيسهل كل شيء أكثر وأكثر ، وستتخذ حياتنا منه وجهاً جديداً . إنه قد أمضى شطراً من الأسفار معي ؛ وحصل كثيراً من الملاحظات بروح مختلفة عن روحى : ففى وسعنا إذن أن نمزج هذا كله وأن نجعل منه مؤلفاً بديعاً .

فأجابت شرلوت : « دعنى أقول لك بصراحة يدافعها القلق وعدم

الصبر ، إني أشعر بنفور نحو هذا المشروع ، وإن استشعاراً مُستَسِرّاً
ليُحَيَّلَ إلى أنه لن يفضى إلى خير .

— وهكذا يلج عليك العنادُ معشر النساء فلا يكون في الوسع
مقاومتكن : في البدء تلجأن إلى العقل والتدليل ، إلى حد ألا يكون
في المقدور مناقضتكن ؛ ثم تكنّ فائنات ، فيذعن المرء لَكُنّ
في يسر وعن طيب خاطر ؛ ثم تصرنَ مرهفات الحس شديديات التأثير ،
فلا يود الإنسان أن يحزنكن ؛ أو تلجأن إلى الطَّيِّرة والتفاؤل ، فنتشعر
بمحن الخوف بدورنا .

— لست ممن يؤمنون بالتطائر والتفاؤل ، ولا أعطى أدنى أهمية لهذه
الدوافع العمياء ، وإن كانت على هذا النحو ؛ لكنها في الغالب ذكريات
غامضة ، ونتائج ، سعيدة أو ضارة ، رأيناها تنشأ عن أعمالنا ، أو أعمال
الآخرين . ولا شيء أعظم خطراً ، في أى موقف من المواقف ، من تدخل
ثالث فيه . فلقد رأيت أصدقاء وإخوة وعشاقاً وأزواجاً قد تغيرت علاقاتهم
كل التغير واضطربت أحوالهم أشنع اضطراب ، بسبب حضور شخص
ثالث ، إن بالصدفة أو بالاختيار .

— قد يحدث هذا عند من يعيشون عُمياناً ، دون تبصر ؛ لا عند من
تبصرهم التجربة ، ويحسنون الشعور بأنفسهم .

— ليس الشعور سلاحاً كافياً ، يا صديقي ؛ بل هو أحياناً خطر على
من يستخدمه ؛ ونتيجة هذا كله أنه ليس يخلق بنا على الأقل أن نندفع
ونتعجل . فهبني بعض أيام آخر ، قبل أن تصمم على شيء !

— فقال إدورد : لما كان الأمر على ما هو عليه ، فإن العمل بعد أيام
يعد إنديفاعاً أيضاً . لقد عرض كل منا الحجج المؤيدة وتلك المعارضة ؛

وعليها الآن أن نستقر عند رأى ، والأفضل أن نكل الفصل في هذا الأمر إلى المقارنة .

— فأجابت شرلوت : إننى أعلم أنك ، فى الأحوال المشكوك فيها ، تحب رهانا أو ضربة بالنرد ؛ ولكنى أرى أن مثل هذا ، فى مسألة خطيرة كهذه ، يعد تهوراً وغرراً .
— إذن ماذا يجب على أن أكتبه إلى القائد ؟ إذ يجب أن أكتب إليه حالا .

— اكتب إليه رسالة هادئة عاقلة مواسية .
— هذا وعدم الكتابة إليه سيان !
— ومع هذا فإن من الضرورى ، فى بعض الأحوال ، بل ومن الصداقة أن يكتب الإنسان شيئاً نافهاً ، أفضل من أن لا يكتب شيئاً إطلاقاً .

الفصل الثانى

ظل إدورد وحيداً فى غرفته بعد أن أثارت شرلوت فى قلبه المشبوب عواطف رقيقة بما روته من مختلف أحداث حياتهما وما عرضته من موقف كليهما بإزاء الآخر وما حلما به من أمان ومشروعات . حتى شعر بلذة فى حضرتها جعلته يتهيأ لكتابة رسالة إلى القائد فيها عطف وحنان ، لكنها هادئة ليس بها أدنى إشارة إلى مشروعه . غير أنه ما كاد يجلس إلى مكتبه ويتناول رسالة صديقه كما يحيل نظره فيها مرة أخرى حتى غزت عليه هذه الحال الأسيفة التى يحيا عليها هذا الرجل الممتاز . فأحس بما شعر به نحوه من قبل ، واستيقظت من جديد كل العواطف التى عذبتة منذ أيام ، وبدا له من المستحيل أن يذر صديقه على هذا الوضع الحزين .

لم يتمود إدورد أن يرفض أمراً . فقد كان الابن الوحيد المدلل لأبوين
 ثرين استطاعا أن يقنعا بالزواج من امرأة تكبره سنًا بكثير ، حتى جاء
 زواجا غريباً وإن كان نافعاً كل النفع . وهذه المرأة قد زادت في تدليله
 بشتى الوسائل ، ساعية إلى مكافأته عن طيب مسلكه وإياها بأن تبذل له
 عن سعة عظمى . ثم ما لبثت هذه المرأة أن توفيت ، فصار أرمل حراً ،
 وجال في مختلف البقاع ، يحيا حياته الخاصة المستقلة ، يكتيفها كيفما شاء ،
 متنقلا من شيء إلى آخر ، غير مبالغ فيما يطمح إليه ، وإن كانت نفسه طامحة
 إلى الظفر بكثير من الأشياء المتنوعة . وعلى كل حال فقد كان ذا إخلاص
 وزاهة طُعمَة ، يسدى المعروف ويتجلى بالشجاعة ، بل وبالإقدام والروءة
 الواسعة حينما يقتضى الأمر . وأى شيء في الدنيا يقوى على مقاومة رغبته !
 كل شيء سار حتى ذلك الحين وفقاً لما يهوى : فقد استطاع أن يظفر
 بشرلوت بعد أن ظل لها مخلصاً إخلاصاً راسخاً أقرب ما يكون إلى تصوير
 الخيال . لكن هاهو ذا الآن وللمرة الأولى يجد مقاومة لآرائه ومعارضة
 لمشروعاته ، ومتى ؟ في اللحظة التي أراد فيها أن يدعو صديقه في الطفولة ؛
 في تلك اللحظة التي شاء فيها أن يهيء حياته كلها من جديد . فانتابه
 الخوف وشُخص به وتنازعت البلال ، واستولى عليه من القلق ما جعله
 يمسك مراراً بالقلم ثم يرده إلى مكانه ، لأنه لم يستطع الاستقرار عند رأى
 يضح به ماذا عليه أن يكتب . فهو لم يشأ أن يعرض عن طاعة رغبات
 زوجه ، كما لم يستطع أن ينزل على أمرها . فظل قلقا مضطرباً ، وقد كان
 عليه أن يكتب رسالة هادئة ، حتى بدا له هذا مستحيلاً . ولعل أيسر حلّ
 حينذاك هو التأخير في البت . فكتب إلى صديقه بضع كلمات يستميحه
 فيها عذراً عن تأخره في الكتابة إليه ، وعن إيجازه فيما كتب ، ووعد

بإرسال كتاب آخر عاجل أكثر تفصيلاً وأدعى إلى طمأنته .
وفي الغد كان وزوجه يتريضان في نفس المكان ، فاهتبلت شرلوتُ
الفرصة لاستئناف المناقشة ، مقتنعة ، فيما يظهر ، بأن خير وسيلة للقضاء على
أى مشروع هى أن يُتحدّث عنه كثيراً .

سرّ إدورد أن يعود إلى هذا الموضوع ؛ فتحدّث ، كما هو ديدنه ،
على نحو فيه رقة ولطف . فإنه على الرغم من كونه متفتح النفس للتأثرات
حتى كان يتحمس بسهولة ، كما كان في إلحاحه الحادّ شيء من الإرهاق ،
وحتى كان عناده يدعو إلى القلق وعدم الصبر — فإن تعبيراته كانت مع
ذلك رقيقة تسودها المجاملات الحارة ، إلى حدّ أنه كان يبدو لطيفاً حتى
في أحوال إثقالة .

وعلى هذا النحو بدأ بأن أشاع الجدل والتبسط في نفس شرلوت ؛
ثم استطاع من بعد ، بفضل حسن توجيهه الحديث ، أن يقتادها إلى درجة
صاحت فيها :

« إنك تريد من غير شك أن أسمح للحبيب بما لم أسمح به للزوج !
جدير بك أن تدرك أيها الصديق أن رغباتك وحرارة المسلك الذى اتخذته
في التعبير عنها ، لا تدرنى غير متأثرة ولا مكترثة . فهذا يحملنى على أن
أفضى إليك باعتراف : ذلك أنى أجد نفسى في موقف شبيه بعوقبك هذا ؛
ثم أذعنت لنفس القسر والحرمان اللذين أنصح لك بإخضاع نفسك لهما .
— يلز لى أن أعرف هذا . ولا أرى ضيراً فى أن يقع تنازع أحياناً فى
داخل الأسرة ! لأن هذه هى الوسيلة لمعرفة الواحد ببعض أحوال الآخر .
— إذن أقول لك إن الحال بينى وبين أوتيلى هى كالحال بينك وبين
القائد . ويؤلىنى أشد الإيلاء أن أرى هذه الفتاة العزيزة فى مدرسة داخلية

تجد نفسها فيها في مركز شديد الإحراج . فبينما ابنتي ، التي خلقت للمشاركة في الدنيا ، تُنَسَّأُ لَشَتُونِ الدنيا وتتنقن اللغات والتاريخ وبقية العلوم التي تلقتها ، كما تتقن الموسيقى والألحان ؛ ولها من التوثب الطبيعي والذاكرة القوية ما يجعلها تنسى كل شيء وتذكر كل شيء معاً ؛ وتتميز من بين لِدَاتِهَا بما لها من سراوة في الأخلاق ورشاقة في الرقص ، وأناقة يسيرة في الحديث ، حتى إنها ، وهي المولعة بالسيطرة ، قد صارت ملكة في هذا العالم الصغير الذي تحيا به ؛ وبينما ناظرة المعهد تنظر إليها كاللهة صغيرة تنمو بين يديها وستكون مصدر فخار لديها ، موحية بكل ثقتها بها ، وجاذبة إليها نفراً كبيراً من الفتيات ؛ وبينما الصفحات الأولى من رسائلها وتقريراتها الشهريّة عنها ليست إلا تمجيدات لمواهبها وفضائلها وإشادة بمناقب هذه الطفلة الممتازة ، أستطيع أنا أن أفهمها وأقدرها حقاً — بينما ابنتي على هذا النحو ، أرى على العكس من ذلك تقرير الناظرة عن أوتيلي في ختام رسائلها ينحل دائماً إلى اعتذارات وتأسفات لكون هذه الفتاة ، الجميلة مع هذا ، لا تريد أن تنمو ولا أن تبدى بعضاً من الاستعداد أو شيئاً من الموهبة . والقليل الذي تضيفه ليس لغزاً بالنسبة إليّ ، لأنني أنوّم في هذه الطفلة الرقيقة كل أخلاق أمها وطبعها ، أمها الصديقة والأخت العزيزة التي نشأت معي ، والتي ستصير ابنتها — لا يخالجنى في هذا شك ، — امرأة كاملة ، لو صار في وسعي أن احتفظ بها تحت رقابتي وإرشادي . ولكن لما كان هذا غير داخل في نطاق مشروعنا ، ولما لم يكن في وسع المرء أن يقلب حياته ويغير مجراها إلى حد كبير بأن يضيف إليها كل يوم جديداً ، فقد فضلت الامتثال لهذه التوضيحية ؛ بل إنني لأقاوم الألم الذي أشعر به حينما أرى ابنتي ، التي تعلم حق العلم أن أوتيلي المسكينة تعتمد علينا

كل الاعتماد ، تتبذخ عليها بمناقبها ، وبهذا تفسد نعمتنا عليها على نحو من الأنحاء . لكن ، مَنْ مِنَ الناس قد بلغ من الحكمة حدا ينأى به عن أن يتبجح أحيانا بقسوة بامتيازهِ على الآخرين ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يرتفع إلى مستوى يتحلل فيه من كل تأثر بمثل هذا التبجح بالتفوق والسيادة ؟ إن فضل أوتيلى ليزكو ويزداد من هذا الامتحان . ومع هذا فنذا أن اتضح لى حالها البائسة هذه ، سميت لنقلها إلى مكان آخر ؛ وهأنذا فى انتظار إجابة هذا السعى ، وحينئذ لن أتردد . تلك هى المسألة ، يا صديقى العزيز . وها أنت ذا ترى أن كلينا يحمل نفس الهموم فى قلبينا المحسنين المحلصين : ألا فلنحملها شركة ، ما دامت لا تستطيع أن يخفف بعضها بعضا . فقال إدوارد مبتسما : نحن مخلوقان غريبان . إننا نُخَيِّل إلى أنفسنا أننا إذا استطعنا أن نبعد من حضرتنا كل ما يقلقنا ، فإننا نكون قد أدبنا كل شيء . وعلى العموم فنحن قادرون على القيام بتضحيات كبرى ؛ أما أن نقوم بتضحيات جزئية فهذا غالبا ما يكون فوق طاقتنا . وهكذا أيضا كانت أمى . فطالما كنت أحيأ إلى جوارها : طفلا ، ثم شابا ، كانت هموم الساعة تشغلها على الدوام . فإذا عدت من رياضة على صهوة جواد متأخرا بعض الوقت ، كانت تتوهم أنه لا بد أن يكون قد وقع لى حادث ؛ وإذا بللنى المطر كانت توقن بأنى سأصاب بالحمى . حتى إذا ما ارتحلت وصرت عنها نائيا بدوت كأنى لا أكاد أُمْتُ إليها بصلة . وتابع البارون حديثه قائلا : إن أمعنا النظر تبين لنا أننا نسلك مسلكا غير عادل ولا حكيم حينما ندع هكذا شخصين ذوى خلق نبيل ولهما فى قلوبنا إعزاز ومحبة ، ندعهما فريسة للأحزان والآلام ، لا لشيء إلا لئلا نكون نحن بآمن من كل خطر . فإن لم يكن هذا هو الأثره ، فأى شيء آخر يمكن

أن يسمى بهذا الاسم ؟ خذى أوتيلى ، ودعى لى الكابتن ، والفيسر
على بركة الله .

— كان فى وسعنا أن نجازف بهذا ، بهذا أجابت شرلوت فى شىء
من الجد ، لو كان الخطر يتعلق بنا وحدنا . لكن ، أفتظن أن من السداد
أن نجتمع فى منزلنا بين أوتيلى والكابتن : بين رجل يناهزك فى السن ، فى
هذه السن (ولأصرح فى وجهك بهذا المديح !) التى يصير فيها الإنسان
محبوباً حقاً خليقاً بالحب ، وبين فتاة لها هذه الفتنة ؟

فأجاب إدورد : أعترف لك بأنى لا أعلم كيف تقدرين على أن ترمى
هكذا من قدر أوتيلى . الظاهر أن الفتاة قد ورثت شيئاً من الود الذى
تَحَضُّثْتِهُ أُمُّهَا . هى حقاً جميلة ، وإنى لأذكر كيف نهى الكابتن
إلى فتنتها ، حينما كنت عائداً منذ سنة فرأيناها معك عند خالتك . هى
حقاً جميلة ، ما فى ذلك من ريب ؛ ولها خصوصاً عيان جميلتان ؛ لكنى
لا أستطيع أن أقول إنها تركت فى نفسى أقل أثر .

فقالت شرلوت : هذا من ممادحك ، لأنى كنت حاضرة ، وعلى الرغم
من أنها كانت أنصع منى شباباً بكثير ، فإن وجود الصديقة القديمة كان
له من السحر فى عينك ما جعلك تنصرف كل الانصراف عن كل ما شامه
جمالها من مخايل الرجاء . وهذا دأبك ، ولذا يلذ لى أن أقضى حياتى وإياك .
لكن شرلوت ، على ما فى لغتها من إخلاص وصدق ، كانت تخفى
شيئاً . ذلك أنها تعمدت حينذاك أن تظهر أوتيلى أمام أعين إدورد حين
عودته من أسفاره ، كيما تهيب لتييمتها العزيزة زواجاً ممتازاً كهذا ، لأنها
لم تكن تفكر بعد فى إدورد لنفسها . وكانت أيضاً قد دعت الكابتن سراً
إلى لفت نظر صديقه إلى الفتاة ؛ غير أن إدورد ، وقد ظل على حبه القديم

لشرلوت ، لم يتلفت بمنة ولا يسرة ، سعيدا كل السعادة بالشعور بأنه قد صار في مقدوره أخيراً أن يظفر بهذه النعمة التي طالما استشرفت نفسه إليها ، لكن سلسلة من الأحداث قد خَيَّلَتْ إليه أنها حُرِّمَتْ عليه أبداً . وكان الزوجان بسبيل الانحدار إلى القصر خلال المزارع الجديدة ، حينما صعد نحوها خادم أعلن بالضحك عن مَقْدَمِهِ وقال :

— هلمنا سريعا ، سيداي ! فقد وصل السيد مِتْلَر على جواده ، وهو الآن في ساحة القصر ، وجعلنا نُهْرَع جميعا إلى ندائه . فكان لا بد من البحث عنكم ، ودعوتكم إلى الحضور إن كانت المسألة عاجلة . فسألناه فأجاب : إذا كانت المسألة عاجلة ؟ أصغ ! أسرع ، أسرع !

فصاح إدورد : يا له من رجل مضحك ! لكن ، ألم يأت في الفرصة المناسبة ، شرلوت ؟

وقال للخادم : عُد سريعا ! أجبني أن المسألة عاجلة ، عاجلة جسداً . ولينزل عن صهوة جواده ؛ واتسُغَنَ بهذا الأخير ؛ أما مِتْلَر فأدخله في القصر ، ولتعدُّوا له الغداء . ونحن قادمان توا . ثم قال لزوجته : لنسلك أقرب طريق ! وسار على الدَّرْب السائر خلال المقبرة ، وهو دَرَبٌ تعود تجنبه . لكن كم كانت دهشته حينما وجد شرلوت تجمل للماطفة حظاً حتى في هذا المكان ! فقد أبقت ما وسعها على القبور القديمة ، واستطاعت أن تنظم كل شيء وتُعيدَه على نحو جعل المقبرة تبدو مقاما بديعا تراح لمرآه العيون كما يهواه الخيال .

لقد أبقت على كل شيء حتى أقدم الأحجار ، ورتبتها وفقا لتاريخها ، وأحاطتها بالأُطُر أو على الأقل أسندتها إلى عرض السور ؛ وزينت بها قاعدة الكنيسة العليا في بعض المواضع . فاستولت الدهشة على إدورد ، حينما

دخل من الباب الصغير؛ وضغط على يد شرلوت، وفي عينيه عَبرة تتألق .
غير أن الضيف الغريب سرعان ما انتشلهما من هذا المكان ، إذ لم
يستطع البقاء في القصر ، فأَحْضَرَ خلال القرية حتى بلغ باب المقبرة الكبير،
ثم توقف وصاح في أصدقائه :

— أنتم لا تسخران بي ، فيما آمُل ؟ إن كان الأمر عاجلاً حقاً ،
فسأظل هنا حتى الظهر . ألا لا تُبْطِئَا بي ! فإنّ لدى الكثير الذي يجب
علىّ فعله اليوم .

— ما دمت قد مكنت نفسك مشقة الحياء إلى هنا من بعيد ، بهذا أجابه
إدورد ، فاركب إلى هنا : فإننا نلتقي هنا في مكان رهيب ، وتأمل كيف
زينت شرلوت هذا المرقد الحزين !

فصاح الراكب : لن أدخل هناك راكباً ولا راجلاً ، ولا في مركبة .
إن هؤلاء يرقدون في سلام ؛ وليس لدى ما اشتوره معهم . وكفى بالمرء داءاً
أن يُحْمَلَ إلى هنا يوماً وقدماء إلى أمام . ماذا إذن ، الأمر جيد ؟
— نعم ، هكذا قالت شرلوت ؛ جد للغاية . هذه هي المرة الأولى التي
يشعر فيها الزوجان الجديدان بأنهما في مأزق لا يستطيعان الخروج منه .
فأجاب : لا يبدو هذا على مُحْيَاكٍ ؛ ومع هذا فإنّي أود أن أصدقته .
فإن دعوتنا في المستقبل ، فسأدعكما وشأنكما . أسرعاً باقتفاء أثرى ؛ إن
في هذا التوقف استجهاماً لجوادي .

وبعد قليل كان ثالوثهم مجتمعاً في البهو . وأحضر الغداء . فقص متلر
حديث أعماله ومشروعاته في ذلك اليوم . لقد كان هذا الرجل الغريب
الأنوار من قبل قسيساً ، وبفضل نشاطه الدائم برّز في مهنته هذه ، من
حيث قدرته على حسم أسباب الخلاف في جميع الخصومات الأسرية أو بين

الجيران ؛ وكان يقوم بعمله هذا في البدء بين الخواص ، ثم من بعد بين الأسر الكبيرة وأصحاب الثراء الواسع . وطوال المدة التي كان يمارس فيها مهنته ، لم يحدث أى طلاق ، ولم تُشغل محاكم الإقليم بأى نزاع حاد ، ولا بأية قضية رفعها أحد أبناء أبروشيته . لكنه سرعان ما أدرك ضرورة العلم بالقانون لديه ؛ فقصّر نفسه على دراسته وأخلى له ذرعه ، وسرعان ما أصبح محامياً أليماً . ثم اتسعت دائرة نشاطه إلى حد عجيب ، حتى كان على وشك أن يُدعى إلى العاصمة كيما يتم من عِلِّ ما بدأه من أسفل ، حينما ظفر بمكسب ضخم في اليانصيب ؛ فاشتري قطعة أرض قليلة المساحة ، أجزها وجعل منها مركز نشاطه ، مصمماً كل التصميم أو بالحرى متبعاً ديدنه القديم ، وهو ألا يبلج بيتاً ليست فيه مشكلة تحتاج إلى حل ، أو نزاع يراد حسمه . حتى إن المؤمنين بالخرافات من الناس ممن يحفلون بمعاني أسماء الأعلام ليزعمون أن اسمه ، متلر (أى : الوسيط) هو الذى قدر له أن يتخذ هذا المسلك الغريب وهذه المهمة العجيبة .

فلما أحضرت الفاكهة ، توسل متلر إلى مُضيفيه بكل جد ألا يدعاه ينتظر طويلاً ما يريدان الإفضاء به إليه ، لأنه لا بد مغادرهما بعد تناول القهوة . فاسترسل الزوجان في اعترافتهما بإطباب . لكنه لم يكذبين موضوع نزاعهما حتى نهض من مقعده مفضباً وأهرع إلى النافذة حيث أمر بإسراج جواده . ثم صاح فيهما :

— إما أنكم لا تعرفوننى ولا تفهمون طبيعتى ، أو أنتم تسلكون سبيلاً ماكرة . أهذه مجلبة للنزاع ؟ وهل أنتم فى حاجة إلى أى عون ؟ أنحسبون أنى خلقت لإسداء النصائح ؟ كهنه أحمق مهنة يتخذها الإنسان ، ألا فلينصح كل امرئ نفسه ، وليفعل ما ليس منه بد . فإن سارت الأمور

على ما يهوى ، فليمتدح حكمته وليُطَرَّ جده ؛ وإن أخفق ، فهذا أنذا على استعداد . من يُرِدُ الخلاص من شر يعرف دائماً ماذا يريد ؛ ومن يرد امتلاك أكثر مما وسعه يَسِرُّ في ضلال ... نعم ، نعم ، ابتسما ما وسعكما الابتسام ! .. إن مثله مثل من يلعب لعبة عصب العيينين ، فلعله يمسك بشيء ، لكن ما هو ؟ أعملاً ما يبدو لكما : فهذا سواء . ادعوا صديقكما للسكنى معكما ، أو دعوهما بعيدين : فهذا سيان . لقد رأيت أحكم العزائم تفضى إلى أسوأ النتائج ، كما رأيت أسوأها تكلل بالنجاح . فلا تصدعاً رأسيكما : إذا انتهى قراركم ، أيّاً ما كان هذا القرار ، إلى نتائج سيئة ، فلا تحملا كثيراً : بل إرسلا في طلبى ، وأنا أخرجكما من المأزق . ولا زلت لكم خادماً حتى ذلك الحين .

وما قال هذه الكلمات حتى خرج ووثب على صهوة جواده ، دون انتظار للقهوة .

فقال شرلوت : « ها أنت ذا ترى كيف أن أى ثالث لا يمكن أن يفيد كثيراً ، إذا كان اثنان وظيفاً الارتباط لا يستطيعان أن يتفقا تمام الاتفاق . وها نحن أولاء قد صرنا من أمرنا على عُقْمَةٍ تزيد عما كانت من قبل . لقد كان الزوجان سيظلان على هذا الالتياث لولا أن وصلت رسالة من الكاتبين رداً على رسالة إدورد الأخيرة . وفيها أعلن أنه قرر قبول منصب من المناصب التى عرضت عليه ، بالرغم من كونه لا يوافقه : إذ سيضطره إلى المشاركة فى ملال أناس أثرياء نبلاء ، قصدوا منه أن يكون لهم سميماً يسرّ عنهم غشاوة السامة .

وبنظرة واحدة استنفذ إدورد الموقف كله وصوّره فى أحد تصوير .

وصاح :

— أَدْعُ صديقنا في مثل هذا المركز ؟ لست قاسية إلى هذا الحد
يا شرلوت !

فأجابت : لعل صديقنا الغريب ، متلر ، على حق . فكل هذه المسائل
ضربات حظ ، وليس في استطاعة أحد أن يتنبأ بالنتائج . وهذه الصلات
الجديدة يمكن أن تكون غنية بالنعيم أو مليئة بالشقاء ، دون أن يكون
في وسعنا أن ننزو هذا إلى فضل لنا أو إلى خطأ ارتكبناه وإثم اقترفناه .
ولم يعد لي من القوة ما يسمح لي بالاستمرار في معارضتك . فلنحاول إذاً .
ورجائي الوحيد إليك هو أن تكون محاولة قصيرة المدى . ولتسمح لي بأن
أبدل للكاتبين من السعى أكثر مما فعلت حتى الآن ؛ وأن انتفع بما لي من
نفوذ وصلات شخصية ، كيما أحصل له على مركز يهيء له من أمره رَشْداً .
فقضاهما إدورد حق الشكر على ما أولته من جميل . وأسرع ، مثلوج
الصدر مسرور الفؤاد ، يكتب إلى صديقه عما اعترمه . وشرلوت بدورها
قد أضافت حاشية حَبْرَها بكلمات الاستحسان ، ضامّة رجاءها إلى رجاء
زوجها . لقد كتبت بقلم سيال فيه رقة ورشاقة وإحسان ، لكن في سرعة
لم تألفها ، ثم فعلت ما لم تفعله من قبل مطلقاً : أسقطت نقطة من المداد
على الورق ، مما أثار خيفتها ، ولما حاولت إزالتها لم تفعل إلا أن زادت سعة
على سعة . فإزالتها إدورد على هذا ، وأضاف حاشية ثانية ، لأن الفراغ كان
لا يزال موفوراً ، ذكر فيها أن هذه العلامة لا بد منبهة الصديق عن تلهفهما
إلى رؤياه ، وعن وجوب إيسراعه في السفر وفقاً لسرعتهما في كتابة
هذه الرسالة إليه !

مضى الرسول . ولم يجد إدورد شاهداً على شكرانه خيراً من أن يباح في
الإهابة بشرلوت أن تدعو أوتيلي من مدرستها الداخلية كيما تقيم إلى جوارها .

فطلبت شرلوت إليه مهلة واستطاعت في ذلك المساء أن تحمله على عزف بعض المقطوعات الموسيقية . وهي قد كانت تحسن التوقيع على البيان بدرجة أعلى مما كان إدورد ينفخ بها في الناي ، لأنه على الرغم مما بذل من جهد في فترات مختلفة ، فإنه لم يتح له من الصبر والمثابرة الضرورية ما يسمح له بإجادة هذه المللعة . فقام بدوره بطريقة غير مطردة في الإجادة : فبعض المواضع كان فيه بارعاً ، وإن كان بسرعة أكثر مما يجب ، وفي مواضع أخرى كان يبطئ الميزان ، لأنه لم يكن في مقدوره أن يعزفها بانطلاق ، وكان من العسير على أى شخص آخر أن يصاحبه في ثنائى حتى النهاية . لكن شرلوت كانت تستطيع مسيرته : فكانت تبطئ حيناً ، ثم تسرع ، وبهذا كانت تؤدي مهمة مزدوجة : مهمة رئيس ممتاز لفرقة موسيقية ، ومهمة زوج فطنة ، فاستطاعت الاحتفاظ بالميزان في المجموع ، وإن لم يُراع دائماً في كل فقرة .

الفصل الثالث

وافى الكابتن . وكان قد أرسل قبل مجيئه كتاباً حكيماً أشاع الطمأنينة كلها في رُوع شرلوت . فقد قدر نفسه فيه بكل وضوح ، وعبر بدقة عن موقفه وموقف صديقيه ، مما أنشأ أفقاً سعيداً باسمه .

وجرى الحديث في الساعات الأولى لوصوله حاراً يكاد يشيع الدوار ، كما هي الحال عادة بين أصدقاء ظلوا وقتاً طويلاً لم يَرَ بعضهم بعضاً . وقبيل المساء هيات شرلوت زهرة إلى المنشآت الجديدة . فوجد الكابتن منطقة ساحرة ، وتلفت إلى كل جمال كشفت عنه المخاريف الجديدة وبصبر به .

ولقد كانت له عين نافذة النظرة ومع هذا سهولة الإرضاء ؛ وبالرغم من أنه كان يعرف حقاً ما يمكن تطلبه ، فإنه لم يفعل ما يفعله الكثيرون من إثارة امتعاض هؤلاء الذين ارتاضوا به في عقارهم ، بتطلب ما لم تكن الظروف تسمح به ، أو بذكر أشياء أكبر كلاً رآها في أماكن أخرى .

وما بلغوا كوخ الطحلب حتى وجدوه موشى ، على أجمل نحو وأبهاء ، بأزهار صناعية حقاً ، ونباتات خضر ، تما نقيها باقات جميلة من القمح ومن أزهار الحقول والبقول ، مما ولد منظرًا يَم عن سمو ذوق مَنْ هيأت هذا التزيين . « على الرغم من كون زوجي لا يحب الاحتفال بعيد ميلاده أو عيد تسميته ، هكذا قالت شرلوت ، فإنه سيفقر لي إن أنا كُرسْتُ هذه الأكاليل المتواضعة للعيد الثلاثي لهذا اليوم .

— العيد الثلاثي ؟ هكذا تساءل إدورد .

— فأجاب شرلوت : بلا ريب ! فوصول صديقنا عيد بالنسبة إلينا ؛ ثم إنه يظهر أنك غير متنبهين إلى أن هذا اليوم عيدكم في التسمية . أو لا يسمي كل منكم أوتو ؟ »

فتصافح الصديقان فوق المنضدة الصغيرة .

« إنك لتذكّرني ، هكذا قال إدورد ، بِسِمَة من سمات الصداقة في حداثة عمري . فقد كان هذا اسم كليتنا إبّان الطفولة ؛ لكن لما أدخلنا مدرسة داخلية ، حدث عن هذا كثير من الخلط ، فتخلّيت لك عن هذا الاسم الموجز الجميل .

— ولم تكن في هذا كثير السخاء ، بهذا أجاب الكابتن ؛ لأنني أذكر جيداً أن اسم إدورد كان عندك ألد مسمعاً ؛ فمن الحق أن لهذا الاسم رنيناً بالغ العذوبة ، حينما ينطق به فم جميل .

وكان ثلاثتهم يجلسون حول المائدة الصغيرة نفسها التى من حولها كانت شرلوت من قبل تعارض أشد المعارضة فى مجيء ضيفهما . ولم يشأ إدورد ، وسط هذا السرور السابغ ، أن يعيد ذكر هذه اللحظات إلى زوجه ؛ بيد أنه لم يمالك أن قال لها : « وثمت مكان أيضا لشخص رابع » .

وفى تلك اللحظة كانت أصوات أبواق العيد تتردد أصدائها فى القصر ، وكأنها تؤكد هذه العواطف الطيبة والنوايا الجميلة التى يكنها هؤلاء الصّحاب وهم بالفراغ المذب ينعمون . فأقبلوا على هذه الأصوات بأسماعهم دون أن ينطقوا بنبرة ، وكلٌّ منطوٍ فى نفسه جامع لشتات أفكاره ، شاعر أقوى شعور بسعادة كبرى فى هذا الاجتماع الجميل .

وقطع إدورد هذا الصمت أول من قطع ، بأن نهض وخرج من الكوخ ، قائلاً لشرلوت : « لترافق صديقنا إلى قمة الرابية ، كيلا يقع فى ظنه أن هذا الوادى الضيق هو كل تراثنا ومقامنا . فهناك فى الأعلى تكون النظرة أوسع مدى ، والتنفس أكثر انطلاقا » .

فقات شرلوت : « يجب علينا إذاً فى هذه المرة أيضا أن نصعد فى الشّعب العتيق الذى وإن كان شاقاً بمض المشقة فإنى آمل أن تعيننا الدرجات والمساعد التى عملناها فيه على تسهيل صعودنا إلى القمة » .

علّوا الصخور واخترقوا الأشواك والمخائل حتى بلغوا القمة العليا التى لم تكن سهلاً منبسطة ، بل سلسلة من الآكام الخصبية . ومن خلفها غابت القرية وغار القصر . وفى الأعماق البعيدة كانت الغيران الواسعة تترأى للمعيون ؛ وعبرها ترامت الروابي ذات الأيك والغاب تحجبها تلك الغيران ؛ وفى النهاية تتبدى صخور وعرة عاتية كانت حوائلها العمودية إطاراً أخيراً لمرآة الماء ، تمكس على صفحاته صبرها الرائعة . وفى الأفصى وادٍ كان

يرى منه نهر واسع يجرى نحو الغيران ، وتكاد تختفي فيه طاحونة تتبدى بما حولها كمُستراح فتان . وفي هذه الدائرة التي كان يشملها النظر توات صفوف من الأودية والروابي ، والغابات والخلائل التي كانت تضرتها الناشئة تبعد بأبهى المناظر . وكانت زُمر من الأشجار المنعزلة تحول دون النظر في بعض المواضع . وعند أقدام الناظرين تجلت أدغال من الصُفصاف والدُّلب في وضوح بارز ، على حفافى غدير الوسط . وقد كانت هذه الأشجار في ريمان نموها ، قوية سليمة مُشرعة الرأس ، باسطة الأغصان . فعنى إدورد بلفت نظر صديقه إليها ، قائلاً :

— لقد غرستها بنفسى إبان شبابه . وكانت آنذاك فسائل غضة ، استنقذتها من والدى حينما انتزعها في معمعان الصيف وهو يعمل في توسيع حديقة القصر . وليس من شك في أنها ستستمر في عرفانها الجميل ، حتى هذا العام ، بإرسال غصون جديدة .

وعاد المرتاضون مغمورين بالرضا والحبور . ثم عُيِّنت للكاتبين حجرة حسنة فسيحة تقوم في الجناح الأيمن من القصر ، ما لبث أن نقل إليها كتبه وأوراقه وأدواته ، كيما يوالى الحياة النشيطة التي اعتادها . غير أن إدورد لم يدع له في الأيام الأولى فسحة للراحة : فقد كان يأخذه معه في كل مكان ، حيناً سائراً وحيناً راكباً جواداً ، وجاس معه خلال ضيعته وهذه المنطقة . ثم إنه أفضى إليه برغبته التي كان يكتمها من زمن طويل في أن يزداد معرفة بضياعه وأن يستثمرها على خير وجه مستطاع .

فأجاب الكاتب : أول ما ينبغي عمله هو أن أرفع مستوى الضياع بواسطة البوصلة . وهذه عملية ميسورة لذيدة ؛ وإذا لم تكن دقيقة كل الدقة ، فإنها مع هذا مفيدة كافية في البداية . وفي الوسع القيام بها بغير

كثير عناء ، ومن المؤكد إنجازها . فإن كنت تفكر في القيام بعملية مساحة أكثر دقة ، ففي مقدورنا أن نفعل هذا أيضا .

وقد كان الكابتن ماهراً كل المهارة في هذا النوع من رفع مستوى الأرض . وهو قد استحضر الأدوات اللازمة وما لبث أن شرع في العمل توّاً . فعلم إدورد بعضاً من القناصين والفلاحين الذين سيقومون بمعاونته . والزمن قد كان مواتياً ؛ فكان الكابتن يرسم في الصباح والمساء ، وسرعان ما نظّف الرسم ولوّنت أجزاؤه . ورأى إدورد بكل وضوح ضياعه تتبدى على الورق كأنها خلقت من جديد ، حتى خُيل إليه أنه لم يبدأ يعرفها إلا الساعة ، وأنها قد صارت حقاً ملكاً خالصاً له .

فدعا هذا الصديقين إلى التحدث عن تلك الضياع ، وعن الأعمال التي يمكن أن تنجز بمعونة هذه النظرة الكلية خيراً من محاولة التأثير في الطبيعة وفقاً لخواطر عابرة وزوات عارضة .

وهنا قال إدورد : « هذا هو ما ينبغي أن نرشد زوجتي إليه » . فأجابه الكابتن : « لا تحاول ذلك » ، راغباً في عدم مصادمة أفكار الآخرين ، لأن التجربة علمته أن نظرات الناس من الاختلاف بحيث لا تستطيع أحكام البراهين أن تجمعها على رأى واحد أبداً . وصاح به ثانية : « لا تحاول ! فقد يزعمها هذا كثيرا . إن المهم لديها ، كما هو لدى من يتدخلون في مثل هذه الأعمال كهواة ، أن يُشغّلوا بشيء ، لا أن يفعلوا شيئاً حقاً . إن الرء ليتحسس مع الطبيعة ؛ فيكون له ميل إلى هذا المركز الصغير أو ذاك ؛ أو لا يخاطر بإبعاد هذه أو تلك من المقبات ؛ أو لا يكون لديه من الجرأة ما يكفي للتضحية بشيء ؛ أو لا يكون في وسعه تصور النتيجة مقدما ، فيحاول مرة بعد مرة ، فتارة ينجح ، وطوراً يُخفّق . . . فيعدل ، ولعله

أن يعدل ما كان يجب أن يحافظ عليه . . . ثم يُبقى على ما كان ينبغي تعديله ، ولا يبقى في النهاية إلا آثار السَّرمَة والإصلاح ، مما يلذ ويسر ؛ وإن كان لا يرضى ويُقنع .

فقال إدورد : « اعترف بهذا صراحة : أنك لست راضيا عن أعمالها هاتيك » .

فأجاب : « لو كان التنفيذ قد جاء وفقا للفكرة ، وهي جيدة ، لم يك في ذلك ذام . لقد أجهدت نفسك في شق الصخور ، وإنها لتُجهد كل من تقوده إليها : إذ لا يستطيع المرء أن يسير إلى جوار أخيه ولا وراءه أو أمامه بحرية ، ذلك لأن إيقاع الخطى يُقطع باستمرار . وكَم غير هذا من معائب ؟ » فقال إدورد : « وهل كان من اليسور العمل على نحو آخر ؟ »

— من السهل جدا : فلم يكن على زوجتك إلا أن تشق زاوية في الصخر لا تكاد تبدو ، لأنها ستكون مركبة من أجزاء صغيرة ؛ فهذا كانت تستطيع الحصول على منحني للصعود رشيق ، وفي الآن نفسه تظفر بأحجار وفيرة ، لبناء جدران تكون كقوائم تستند عليها المواضع التي يكون فيها الطريق ضيقا أو رديئا . ولكن ليكن هذا حديثا بيننا وحدنا ؛ وإلا فسيمروها القلق ويعتورها السخط . وعلينا أن نبقى على ما تم فعله . فإذا شئنا أن نبذل فيه من بعد مالنا وجهودنا ، فلا تزال ثمت — من كوخ الطحلب حتى القمة ، وعلى الراية — أعمال كثيرة تحتاج إلى الإنجاز ، ومجال واسع للتزييق والتجميل .

وإذا كان الصديقان قد وجدا في الحاضر ما يشغلهما ، فقد هيا لهم الماضي وفرة من الذكريات الحية العذبة تعودت شلوت أن تشارك فيها . واقترحوا فيما بينهم أن يبدأوا في تحرير يوميات السفر بمجرد انتهاء الأعمال

العاجلة ، مُحْشِنِينَ ، عن هذا الطريق ، ذكريات الماضي العتيق .

وفضلاً عن هذا ، فإن دواحي الحديث بين إدورد وشرلوت وحدهما قد قل مقدارها ، خصوصاً منذ أن صار ينزع إلى انتقاد الأعمال العاجلة التي قامت بها في البستان ، وهو انتقاد كان في نظره صائباً . وهرقد ظل مدة طويلة صامتاً لا يدلى إليها بملاحظات الكابتن ، ولكنه حينما رأى زوجته تأمر ببناء مصاعد صغيرة وشعابا ضيقة للصعود من الكوخ إلى الأعلى في شيء من الإرهاق والجهد ، لم يستطع أن يستمر في صمته ، وبعد شيء من التقديم ، أفضى إليها بأفكاره الجديدة .

ارتعدت شرلوت . إذ سرعان ما تبينت ، وهي الفَطِنَةُ المتقدمة الذكاء ، أنهما على صواب فيما يرتأيان . غير أن ما تم عمله لا يتفق مع التصميمات الجديدة ؛ وفضلاً عن هذا فقد قُضِيَ الأمر ووجدت ما فعلته حسناً ؛ بل إن كل ما كان موضوعاً للوم كان في نظرها مدعاة للرضا من كل نواحيه . فلم تشأ الاقتناع ؛ بل راحت تدافع عن ضيعتها الصغيرة ؛ وأخذت على الرجال أنهم ينزعون دائماً إلى ما هو ضخيم ، ويريدون أن يصنعوا من المزاج والمهارة عملاً جدياً ، دون أن يقدروا النفقات التي يقتضيها دائماً كل تصميم واسع . وكان يغالبها التأثر والتهرُّع والسخط ؛ فهي لم تكن تقدر أن تتخلى عن أفكارها القديمة ، كما لم يكن في وسعها أن ترفض كل الرفض الآراء الجديدة . ولكنها ، وهي الماضية العزيمة بطبعها ، وقفت في الحال أعمالها ، وروَّت في الأمر وانتظرت حتى تتضح أفكارها .

وبينما كانت بمعزل عن هذا الشغل اللذيذ ، كان الصديقان ، اللذان ازدادا كل يوم ترافوفاً واتفاقاً ، يتابعان أعمالهما ويوجهان عناية خاصة إلى حدائق النزهة وإلى بيوت تربية النبات ؛ وبين الحين والحين ينصرفان إلى

هو أياهم المهودة : من قنص ومقايسة خيول أو شرائها ، وتمرينها على السروج والعربة ؛ مما جعل شرلوت تزداد بوحدها شعورا . فعكفت على الترسل (حتى من أجل فائدة الكابتن) بحماسة متجددة ؛ ومع هذا كانت تشعر بساعات فراغ طوال جعلت التقارير التي تتلقاها من المدرسة الداخلية تزداد في نظرها لذة وتشويقا .

ومن بينها رسالة متصلة بعثت بها الناظرة التي توسعت ، كما هو دأبها ، في ذكر تقدم لوسيان في نبرة يمازجها السرور ؛ وكانت الرسالة متلوّة بحاشية صغيرة تتبعها مذكرة حررها أحد المعلمين بالمدرسة . وها نحن أولاء نروى كليهما :

حاشية الناظرة

أما فيما يتصل بأوتيلي ، أي سيدتي البارونة ، فليس لدى ما أقوله غير ما ذكرته في تقريراتي السالفة . فما يسمنى أن أغلظ عليها اللائمة ، كما أنى لا قبّل لي بأن أرضى عنها . فهي كمادتها متواضعة رقيقة الحاشية للآخرين ؛ لكن هذا التحفظ وتلك الشوائب الرسمية التي تتراءى منها لا تبعث الرضا في نفسى . ومنذ قليل أرسلت إليها ، أي سيدتي ، نقوداً وأنواعاً مختلفة من الثياب ؛ لكنها لم تمسّس النقود ، والثياب لا تزال كما هي لم تستعملها . وهى حريصة كل الحرص على ترتيب متاعها وتنظيفه ، وعلى هذا النحو وحده يبدو أنها تغير ملابسها . كما لا يسمنى أيضا أن أقرها على إفراط قناعتها : فليس على مائدتنا شيء يزيد عن الحاجة . لكن لا شيء أبعت إلى السرور في نفسى من رؤية الأولاد يأكلون بشهية أطعمة صحية حلوة المذاق . إذ ينبغى الفراغ من كل ما يقدم من طعام لأنه إنما

يُقدِّم عن فطنة في الاختيار وحسن في الخدمة . ومع هذا كله فلم أستطع إقناع أوتيلي وإغراءها به . ويسرها دائماً أن تفتقد خدمة تؤديها ، وتُغفِّره تسدها (إذا أهمل الخادمت في شيء) ، لا شيء إلا لتتخلص من تناول صحفة أو فاكهة . وجدير بي ، يا سيدتي ، أن أضيف ملاحظة أخرى تنبهت إليها حديثاً ، هي أنها تشعر أحياناً بألم في الجانب الأيسر من رأسها ، ألم وإن يكن عابراً ، فإنه شديد حرى بالعناية . وهذا كل ما لدى أن أقوله عن هذه الطفلة اللطيفة الجميلة .

مذكرة المعلم

إن ناظرتنا الممتازة تسمح لي كثيراً بقراءة الرسائل التي توجه فيها إلى الآباء وأولياء الأمر ملاحظات خاصة بالتلاميذ . وإنني لأقرأ بمزيد الانتباه وفائق السرور ما يرسل إليك منها ، أي سيدتي البارونة . ذلك أنه إلى جانب ما لدينا من دواعٍ لتهنئتك على أن تكون لك بنت تجمع أروع الخصال التي تهيب للأنسان في الدنيا مركزاً كريماً ، فإنني مع هذا لا أقل تقديرًا لك بأن يكون من حظك أن تتبنى فتاة خلقت كما تكون مبعثاً للسرور والرضا في محيطها ، بالنسبة إلى غيرها ، ثم بالنسبة إلى نفسها كذلك . وإن أوتيلي لهي الوحيدة تقريباً من بين تلميذاتنا التي لا أستطيع أن أشارك ناظرتنا المبجلة رأيها فيها . فأنا أفهم جيد الفهم أن هذه السيدة المليئة بالنشاط ترغب في أن ترى ثمار عنايتها واضحة أمامها ؛ غير أن ثمت ثماراً تظل مستترة ، وهي الثمار الحقيقية الممتازة ، ثم لا تلبث ، إن عاجلاً أو آجلاً ، أن تظفر ببناء رائع . وتلك هي من دون شك حال ابنتك اليتيمة . فنذ العهد الذي وكل إلى فيه تعليمها ، وأنا لا أنفك أراها

تطرد في التقدم ، الذى وإن كان بطيئاً فإنه لا يتراجع أبداً . وإذا كان من الضروري أن يبدأ الإنسان مع الطفل منذ البداية ، فما أصدق هذا بالنسبة إليها ! إنها لا تفهم من الأشياء ما لا تستنتج مباشرة مما سبق ؛ فتظل مضطربة ، حائرة كالقمية ، أمام فكرة سهولة الإدراك ، إذا كانت هذه الفكرة غير مرتبطة بشيء ؛ لكن إذا كشف المرء عن الحلقات المتوسطة ودلّها عليها ، فإنها تفهم أشد الأشياء صعوبة وعسرا .

وخضوعها لهذا التقدم المعتدل يجعلها تتخلف عن زميلاتها اللاتي يسرن بخطى واسعة ويتقدمن باستمرار ، بما لديهن من مواهب مختلفة عن مواهبها : فإنهن يدركن كل شيء ويحفظنه يُسر ، حتى ما هو غير مُحكم ، ويحسنّ الانتفاع به . لهذا لا تفيد مطلقاً ولا تنتفع أبداً من التعليم السريع ، كما هي الحال في بعض الدروس التي يلقاها أساتذة أكفء ، وإن كانوا مع هذا مسرعين متلهفين . ولطالما علت الشكاوى من سوء خطها ، ومن عجزها عن فهم قواعد النحو : ففحصت هذه الشكاوى عن قرب . حقاً ، إن كتابتها بطيئة تعوزها المرونة ؛ لكنها مع هذا ليست مُشبَّجة ولا مُمَجَّمة . وما لقمته إياها شيئاً فشيئاً من اللغة الفرنسية — التي لا أحسنها مع ذلك كثيراً — قد وعته بسهولة . ومن الغريب أنها كثيرة المحفوظ جيدة المعلوم ؛ لكنها حينما تُسأل يُرتجّ عليها وتبدو كأنها لا تعرف شيئاً .

فإن سمحت لي بأن أختم كلامي بملاحظة عامة ، فإنى أجزؤ على القول بأنها تتعلم ، لا كمن يرمى إلى التعليم فحسب ، لكن كمن يريد تعليم غيره ؛ لا كتمليذة ، بل كعلمة في المستقبل . ولعله قد يبدو لك غريباً ، سيدنى البارونة ، أن لا أجد ، وأنا المعلم ، شيئاً أُطرى به إنساناً خيراً من أن أساويه بنفسى .

وإن نظراتك الثاقبة ، ومعرفتك العميقة بشئون الحياة والناس ، ستختار ما عسى أن يكون حسناً في أقوالى المتواضعة المليئة بأطيب النوايا . وستقتنعين بأنه فى الوسع أن يأمل المرء من هذه البنت خيراً كثيراً . وختاماً أتقدم إليك ، يا سيدتى ، بأخلص آيات الولاء ، سائلاً منك الإذن لى بالكتابة إليك حينما أجد فى مقدورى أن أرسل إليك شيئاً يبعث إلى الرضا والتشويق .

لشدّ ما سرّرت هذه المذكرة نفسَ شرلوت ! فقد اتفق مضمونها كل الاتفاق مع رأيها فى أوتيل . لكنها لم تملك نفسها من الابتسام ، إذ رأت عطف المعلم يبدو أرق من ذلك العطف الذى تثيره عادةً مواهب تلميذة . غير أنها ، بما لها من طريقة فى التفكير خاصة ، رزينة متحررة من الوسوس ، لم تستوحش من هذه الناحية ، ولم يخامرها من هذه العلاقات ظن ولا ريب ، كما هو شأن كثير من العلاقات ؛ بل زادت قدر هذه العناية التى يوجهها هذا الرجل العاقل نحو أوتيل ، لأنها تعلمت كثيراً من تجارب الحياة ما هنالك من قيمة كبرى لكل عطف صادق فى عالم ساد فيه عدم الاكتراث وفقدان التعاطف .

الفصل الرابع

تم إنجاز التصميم الطبوغرافى للضيعة وما حولها فى وقت قصير . وقد عمل هذا التصميم على مقياس كبير ، وأضفت عليه الخطوط والألوان شيئاً من البروز والوضوح ، وازداد دقة بواسطة بعض عمليات حسب المثلثات التى أجراها الكاتبين . ولقد كان من العسير الظفر بشخص أحرص على

السهر من هذا الرجل المثابر الذى كان يجعل يومه مخصصاً كله لعمل الساعة : ولهذا كان يتم جزء من العمل كل مساء .

قال لصديقه : « لننتقل إلى التالى : إلى وصف الأرض التى يجب أن تنهيا لها مواد كافية ؛ وسيفيد هذا الوصف فى أن يكون أساساً لمشروعات الإيجار ولنافع أخرى . لكن لنتخذ مبدأ ثابتاً لا يتغير : افصل الأعمال عن الحياة . فإن الأعمال تحتاج إلى الجهد والصرامة ، بينما الحياة تريد الهوى والنزاهة ؛ الأعمال تنشئ الاستمرار والانتظام ، أما الحياة فكثيراً ما تتطلب الانقطاع والتناقض ، مما يؤلف أيضاً نوعاً من السحر والإغراء . وكلما ازدادت دقة فى الأعمال ، استطعت الاستمتاع بالحرية فى الحياة ؛ أما إذا خلطت ، فالحرية تذهب بالدقة وتقضى عليها » .

شعر إدورد بما فى هذه النصائح من لوم رشيق . أجل ، إنه لم يكن غير منظم ، غير أنه لم يكن فى استطاعته تصنيف أوراقه وترتيبها ؛ ولم يكن يميز بين ما يتوقف على الغير وما لا يتوقف إلا على نفسه ؛ كما لم يفرق تفرقة كافية بين الأعمال والأشغال وبين الملامى والمسرات . لكن هذا كله قد صار له اليوم ميسوراً ، الآن وقد قام عنه صديق بأداء هذا الواجب ، صديق يعتبر صورة أخرى منه ، قام بعملية الفصل هذه التى لا قبل للإنسان دائماً القيام بها لو ترك وحده .

لهذا وضعا فى جناح القصر حيث يقيم الكابتن مكتبا للأعمال الجارية ، ومحفوظات للأعمال الماضية ؛ واستخرجوا من مستودعات مختلفة : من غرف وخزائن ، الوثائق والأوراق والسفامج من كل الأنواع ، ووضع هذا الخليط كله فى أماكن خاصة بنظام ملائم : فجعلت لكل شىء بطاقة ووضع فى خانة منفصلة . وما كانا يرغبان فيه وجداه أكمل مما كان يظن ، واستعان

الصديقان خير العون بكتاب عجوز ظل طوال النهار وشطراً من الليل لا يفارق قطره ، بعد أن كان إدورد غير راضٍ عنه حتى ذلك الحين . حتى قال لصديقه : « إني لم أعد أتعرفه ؛ وإني لمعجب بما هو عليه من نشاط وبما يسديه من منفعة لنا » .

فأجاب الكاتب : « ذلك أننا لا نعرض عليه أى عمل جديد قبل أن يكون قد أتم على هواه العمل الذى يشتغل به . فعلى هذا النحو تراه ينجز الكثير . أما إذا أرهق بعمل آخر ، فإنه لن يكون حينئذ مفيداً » .

وكان الصديقان ، بعد أن يمضيا النهار على هذا النحو ، يختلفان إلى شملوت كل مساء . فإذا لم يكن فى زيارتها أحد من الجيران — وهذا كان يحدث كثيراً — كان الحديث ، أو القراءة ، يدور عادة حول المسائل التى تزيد من رفاهية المجتمع المدنى وسعادته ومنافعه .

وشملوت بدورها ، وهى التى تعددت الانتفاع بوقتها ، لما رأت زوجها راضياً ، شعرت هى الأخرى بحماسة جديدة تشيع فى نفسها . وكثير من المنشآت المنزلية ، التى كانت تصبو إلى إقامتها منذ زمان طويل دون أن تظفر بتحقيق هذه الرغبة ، قد استطاع نشاط الكاتب أن ينظمها ويهيئها . فصيدلية المنزل ، التى لم تكن تشتمل حتى ذلك الحين إلا على مقدار من الأدوية قليل ، قد زودت بالكثير ؛ وبعض من الكتب السهلة والمحادثات الهينة هيأت شملوت لإظهار إحسانها النشط أكثر مما كانت تفعل وأكبر تأثيراً من قبل .

ولما كان الحديث يعرج على الحوادث ، المعتادة وإن فاجأت مراراً ، فقد أفكروا فيما يجب عمله فى هذه الأحوال ، ولذا أعدوا كل ما هو ضرورى لإنقاذ الفرق وإسعافهم ، خصوصاً أن كثرة القُدران والمياه والأجهزة

المائية في هذه المنطقة قد جعل الحوادث من هذا النوع متعددة . وشغل هذا الموضوعُ الكابتن طويلاً . وأطلق إدورد هذه الملاحظة وهي أن حادثاً مماثلاً قد كان له أكبر الخطر في حياة صديقه على نحوٍ يستنفد كل غرابة . لكن لما اعتصم بالصمت وكأنه يريد طرد ذكرى حزينة ، التزم إدورد هو الآخر الصمت ؛ وشرلوت ، وقد كانت تعرف أيضاً حقيقة هذه المسألة ، حوّلت مجرى الحديث .

وذات مساء قال الكابتن : « كل هذه الاحتياطات جديرة بالإطراء ؛ إنما الذي يعوزنا دائماً هو الرجل الماهر الذي يستطيع الانتفاع بهذا كله . غير أن في وسعي اقتراح جراح عسكري من معارفى ، يمكن الحصول عليه بشروط معتدلة ، وهو رجل ممتاز في فنه ، أسدى إلى خدمات جُلّى في علاج أمراض داخلية عنيفة ، لا يستطيع أن يؤدي مثلها طيب مشهور ؛ وإن أحوج ما يُحتاج إليه في الريف هو الإسعاف السريع » .

وسرعان ما استدعى هذا الرجل ، واغتبط الزوجان للظفر بفرصة لاستخدام بعض المال في مسائل ضرورية ، وقد كان يُنفق لمجرد اللذة .

وعلى هذا النحو استطاعت شرلوت أن تفيد من معارف الكابتن ونشاطها ، إفادة تتفق وذوقها ؛ حتى بدأت تغتبط لوجوده بينهم ، وتشيع في نفسها الطمأنينة من ناحية نتائج وجوده بين ظهرانيهم . وكان هجّيراً أن تنهياً للإلقاء مختلف الأسئلة عليه ؛ ولما كانت تحب الحياة ، فقد كانت تحرص على استبعاد كل ما هو ضارٌّ خطر : فطلاء الرصاص الخاص بالأواني ، والزنجار الذي يغطى الأواني النحاسية ، كثيراً ما أثار مخاوفها ؛ فنشدت تفسيراً في هذا الصدد ، مما أفضى بطبعه إلى الخوض في أوليات الفزياء والكيمياء .

وكان إدورد يزج في هذه الأحاديث بعناصر عارضة ، ولكنها مقبولة دأمة ؛ كما كان يهوى القراءة بصوت مرتفع ، صوت متزن رنان . وكثيراً ما كان يُمتدح من قبل لبراعته في الإلقاء الحى المتأثر وهو يقرأ كتب الشعر والخطابة . أما اليوم فهو في شغل بموضوعات أخرى ، فكان يقرأ لأصدقائه كتباً من نوع آخر ، كانت منذ زمن قليل في الغالب كتباً في الفزياء والكيمياء والصناعة .

ومن غريب أحواله (ولعل غيره يشاركه في هذا) أنه لم يكن له قبل برؤية إنسان يلقي بنظره في الكتاب الذى يقرأ فيه . وقبل ، حينما كانت قراءاته تدور حول الأشعار والمسرحيات والقصص ، كانت هذه الحالة نتيجة طبيعية للرجبة الحارة التى يشعر بها القارئ ، كما يشعر بها الشاعر والمسرحى والقصّاص ، فى إثارة الدهشة والتوقف عند بعض الواضع وابتعاد حب الاستطلاع . وإنه لما يعترض هذه الرغبة كل الاعتراض أن يعلم الإنسان أن شخصاً آخر يسابق نظراتنا بينما نحن نطالع . لهذا كان من دأبه فى مثل هذه الأحوال أن يجلس بطريقة لا تجعل أحداً يقوم من ورائه . أما الآن وقد صاروا ثلاثة ، فلم يكن لهذا الاحتياط فائدة ؛ وفضلاً عن هذا لم يكن الأمر يستدعى الآن إثارة عاطفة أو إدهاش خيال ، لذا لم يكثر إدورد ولم يفكر فى أن يحتاط ذلك الاحتياط .

لكن حدث ذات مساء حينما كان يجلس فى غير اكتراث أنه تبين فى الحال أن شرلوت كانت تحديق بعينيهما فى الكتاب . فبعث هذا قلقه القديم ، فلامها بطريقة لا تخلو من الجفاف ، قائلاً :

— ليت شعرى لماذا لا يترك الناس نهائياً هذه العادة السيئة ويقلموا عنها وعن أمثالها مما لا يلائم المجتمعات ! فأنا حينما أقرأ شيئاً للإنسان ، أفليس

هذا كأنى أستعرض أمامه شيئاً شفاهاً ؟ إن المكتوب والطبوع يشغلان مكان أفكارى وعواطفى الخاصة ، فهل أحمل نفسى عبء الحديث ، إذا كانت فى جبهتى أو صدرى نافذة صغيرة ، بحيث يتهمياً للشخص الذى أريد أن أعرض أفكاره أمامى واحدة تلو الأخرى ، وأبث إليه عواطفى عاطفة بعد عاطفة ، أن يعرف مقدماً إلى أين أريد الوصول ؟ حينما ينظر إنسان فى الكتاب الذى أقرأ فيه ، يخيل إلى دائماً أننى قد شطرت شطرين . وشرلوت ، التى امتازت فى المجتمعات صغيرها وكبيرها بمهارتها الفائقة فى استبعاد كل قول غير مرغوب فيه أو جارح أو حاد ، وفى قطع الحديث الطويل لدرجة الإملال ، وفى إشاعة الحياة فى الحديث المترخى ، شرلوت وهذه صفاتها لم تخنّها هذه المرة موهبتها هاتيك . فقالت لزوجها : « ستغفر لى من غير شك خطأى ، حينما تدعى أبنك عما حدث لى فى هذه اللحظة . فالموضوع متصل بالأنساب ، فأفكرت فى الحال فى نسب الدم ؛ أفكرت فى ابنى عم يقلقان بالى الآن . فاتجه انتباهى إلى القراءة ، وإذا بى أسمع أن الحديث يدور حول الأشياء الجمادية ، فألقيت بنظرى فى كتابك ، كيفاً أستعيد نفسى » .

-- إنه تشبيه هذا الذى أفضى بك إلى الخطأ ، هكذا قال إدورد . فالحديث هنا يدور كله حول التربة والمعادن وحدها ، ولكن الإنسان نرجس حقاً : فهو يريد أن يرى نفسه منعكسة فى كل ما حوله ، ولا يرى فى الدنيا غير نفسه .

-- أجل ! هكذا قال الكابتن . فهو يعامل كل ما يحيط به على هذا النحو ؛ ويعبر عقله وجنونه ، إرادته وهواه ، وكل ما يملك إلى الحيوان والنبات والعناصر والآلهة .

— ولكيلا نبتعد كثيراً عن موضوعنا ، هكذا قالت شرلوت ،
أفلا تود أن تخبرني في كلمات قلائل عما يقصد من « الأنساب » ؟
بكل ارتياح ، هكذا أجاب الكابتن ، وقد كانت شرلوت وجهت
إليه الحديث . سأبذل غاية الوسع في إيضاحه لك كما تعلمته منذ عشر
سنوات ، وكما علمتني الكتب إياه . أما أن يكون هذا لا يزال رأى العلماء
اليوم ، وهل يتفق مع الآراء الجديدة ، فهذا ما لا أستطيع أن أنبئك به .
فصاح إدورد : ما أخلقنا بالراء لأننا لا نستطيع التعلم مرة واحدة
لمدى الحياة ! لقد كان أجدادنا يقتصرون على المعلومات التي كانوا يتلقونها
في شبابههم ؛ أما نحن فيلزمنا أن نستأنف الدراسة والتعلم كل خمس
سنوات ، إذا أردنا أن نكون عصريين .

— أما نحن معشر النساء ، هكذا قالت شرلوت ، فلا نطمح إلى
مثل هذه الغاية ، وأقول بصراحة إن كل رغبتى تقتصر على معرفة معنى
هذا اللفظ ، لأنه لا شيء أدعى إلى السخرية من استخدام لفظة أجنبية
أو مصطلح بمعنى غير مدلوله الصحيح . لهذا أود أن أعرف فقط بأى
معنى يستخدم هذا التعبير في هذه المناسبة . أما عن السياق العلمى الذى
يستخدم فيه ، فهذا ما أدعه للعلماء الذين سيجدون دائماً عناء كبيراً في
التفاهم فيما بينهم ، كما تبين لى من ملاحظاتى .

— لكن ، من أين نبدأ ، كيما نصل إلى المطلوب بسرعة ؟ هكذا قال .
إدورد للكابتن بعد لحظة من الصمت . فأجاب الكابتن بعد شيء من التردد :
— لو سمحتم لى بالبحث عنه بعيداً لوصلنا فى الواقع إلى الغرض
بطريقة أسرع .

فقالت شرلوت : اعتمد على كامل انتباهى ! واطرحت شغلها جانبا .

فقال الكابتن : لنلاحظ أولاً أن كل الكائنات في الطبيعة مما يقع تحت الحس لها جاذبيتها في نفسها . وقد يبدو من الغريب أن يسمع المرء ما هو مفهوم بنفسه ؛ غير أنه لا يمكن الإنسان أن يتقدم لمعرفة المجهول إلا إذا اتفق على المعلوم .

فقاطعه إدورد قائلاً : يبدو لي أننا نستطيع أن نوضح المسألة لشرلوت ولأنفسنا ، بواسطة الأمثلة . تأمل مثلاً الماء أو الزيت أو الزئبق : فستجد في أجزائها وحدة وتماسكاً . وهذه الوحدة لا يمكن أحدهما أن يتخلى عنها إلا بالقوة أو بأى شيء آخر يرغمها عليه . حتى إذا ما أبعد هذا التأثير ، اتحدت عناصرها في الحال .

— أجل ، هكذا قالت شرلوت مؤمنة على كلامه ، إن قطرات المطر تتجمع على هيئة أنهار ؛ والزئبق ، ألم يكن إبان طفولتنا مصدراً للدهشة ، حينما كنا نفصل أجزائه على هيئة كريات ، ثم ندعه بعد هذا يتجمع ؟ فأضاف الكابتن : وهذا يسمح لي بأن ألقت النظر بهذه المناسبة إلى نقطة رئيسية ، هي أن الجاذبية الصافية كل الصفاء ، التي تسمح بها السيولة ؛ تظهر دائماً على هيئة كروية . فالقطرة من الماء الساقطة مستديرة ؛ وأنت قد تحدثت عن كريات الزئبق ؛ بل إن الرصاص المنصهر المتساقط يصل إلى السطح على هيئة كرة ؛ إذا تيسر له الوقت الكافي .

فقالت شرلوت : دعني أقود الحديث ، لعل أصل إلى النقطة التي تبني بلوغها . لما كان لكل كائن جاذبية نحو نفسه ، فيجب أن تكون له صلات أيضاً مع غيره .

فاستأنف إدورد بجرارة : ويجب أن تكون هذه الصلات مختلفة وفقاً لاختلاف الكائنات . فحيناً تتلاقى كأصدقاء قدماء ومعارف منذ زمان

طويل ، سرعان ما يتحدون ويختلطون ، دون أن يفسد الواحد طبيعة الآخر (كما يحدث للماء مع الخل) ، وحيناً آخر يُصرّ كل منهما على أن يظل غريباً عن الآخر وإن كان إلى جواره ، ولا يمكن أن يتحدا ، حتى بالاحتكاك وبمزيج آلى (كما هي حال الزيت والماء : فهما إذا مُزجا لا يلبثان أن ينفصلا) .

فقال شرلوت : لا يعوزنا شيء كما نرى في هذه الصور البسيطة الناس الذين عرفناهم ؛ ولكنها تذكرنا خصوصاً بالجماعات التي عشنا بها . ومع هذا فلا شيء أشبه بهذه الكائنات الجمادية من الطبقات الموجودة في العالم : المراكز الاجتماعية ، المهن ، النبالة والشعب ، الحربي والمدني . — ومع هذا — هكذا استأنف إدورد — فكما أن هذه الطبقات يمكن أن تتحد بواسطة الأخلاق والقوانين ، فإن في عالمنا الكيميائي وسائط أيضاً لاتحاد ما ينفصل .

— فثلاً — هكذا قال الكابتن — يمكن اتحاد الزيت مع الماء بواسطة الملح القلوي .

فقال شرلوت : لا تسرع كما يكون في مقدوري المتابعة . أفلم نبغ الأناساب ؟

— فعلاً ، يا سيدتي ، وها نحن أولاء بسبيل معرفتها بكل قوتها ودقتها . إن المواد التي إذا تقابلت اتحدت وامتزجت أجزاؤها بعضها ببعض ، يقال عنها إن بينها وبين بعض نسباً . وهذا النسب مثير لكثير من العجب في القلويات والأحماض ، التي ، على الرغم من تعارضها المتبادل ، أو بالأحرى بسبب هذا التعارض نفسه ، يسعى بعضها إلى بعض ويتحد بكل تماسك ، وتتعامل مكونة معاً جسماً جديداً . ولنذكر على سبيل المثال

الجير الذى يميل جداً إلى الاتحاد بكل الأحماض ، وإلى الامتزاج التام بها .
وحينما يكون لنا معمل كيمائى ، سنطلعك على كثير من التجارب المتنوعة
الشائقة كل التشويق ، مما يعطيك عن هذه المسائل فكرة أدق مما تعطيه
الألفاظ والمصطلحات .

فأجابت شرلوت : اسمح لى بأن أعترف لك بأنك إذا كنت تسمى
نسباً العلاقة القائمة بين موادك هذه الغريبة ، فلست أرى فيها نسباً دموية ،
بل بالأحرى نسباً روحياً . وعلى هذا النحو يمكن أن تقوم بين الناس
صداقات جدية حقاً ، لأن الصفات المتعارضة تسمح بإيجاد اتحاد أتم . وإنى
لمنتظرة ما ستطعننى عليه من هذه التأثيرات المستسرة . أما الآن — هكذا
قالت موجهة الخطاب إلى إدورد — فلا أريد أن أستمّر فى قطع قراءتك ؛
وهأنذا بعد أن علمت ما علمت أكثر إصغاء إليك وانتباهاً .

فأجاب إدورد : ما دمت قد استشرّيتنا ، فلن ندعك تتخلصين بهذه
السهولة ، لأن أعقد المسائل أكثرها تشويقاً . إذ بها وحدها يستطيع
المرء أن يعلم درجات الأنساب ، وقريب الروابط وبعيدها ، وقويها وضعيفها :
والأنساب لا تصير شائقة إلا حينما نقوم بالفصل .

فصاحت شرلوت : ماذا ! أهذه الكلمة الحزينة التى يسمّعها الإنسان ،
ويا للأسف ! كثيراً هذه الأيام بين الناس ، أفتوجد أيضاً فى التاريخ الطبيعى ؟
فأجاب إدورد : من غير شك : بل لقد كانت كلمة تفاخر محبوبة عند
الكيميائيين أن ينبعثوا أنفسهم بأنهم الفنانون الفاصلون .

فقالت شرلوت : أما اليوم فلم يعد يطلق عليهم هذا اللقب ، وحسناً
فعل الناس . فالربط فن أكبر ، وله فضل أوفر . « فالفنان الرابط »
سيكون فى كل مكان مرموق المكانة محبوباً لدى الجميع . لكن ما دمت

قد خُصِّتْ في هذا الشأن ، فلتذكر أُمَامِي بعض الأمثلة والشواهد .

فقال الكابتن : إذن لَنُعَدِّ إلى ما أسلفنا ذكره . إن حجر الجير أرض كلسية تتفاوت في النقاء ، متحدة مع حامض لطيف نستطيع استحضاره على هيئة غاز . فإذا غمسنا قطعة من هذا الحجر في حمض الكبريتيك المصبوب في الماء ، فإن الحمض يتحد بالجير ويظهر على صورة جبس ، بينما الحمض الآخر ، الحمض اللطيف ، الهوائى ، ينبخر ويتطاير . فهنا حدث انفصال واتحاد جديد ، وللمرء الحق بعد هذا في استخدام التعبير : نسب مختار ، لأنه يبدو أن رابطة قد فُضلت على أخرى ، واختيرت دونها . فقالت شرلوت : معذرة لى ، كما أنى أعذر العالم الطبيعى ؛ ليس في وسعى مطلقا أن أرى في هذا اختياراً ، بل أرى فيه بالأحرى ضرورة فزيائية ؛ وهذا ليس واضحاً كل الوضوح ، إذ يمكن أن يكون هذا أترأ من آثار الصدفة وحدها والمناسبة . فالصدفة تصنع الروابط ، كما أنها تخلق اللصوص ؛ وإذا كان الأمر متصلاً بمركباتك الطبيعية ، فيبدو لى أن الاختيار محصور في يد الكيمياءى ، الذى يجمع بين هذه الأجسام . لكنها إذا ما صارت معا ، فليكن الله في عونها ! وفي هذا المثل الذى أمامنا ، لا أرتى إلا لحال الحمض الهوائى المسكين ، الذى أراه مضطراً إلى التحليق في الفراغ .

فأجاب الكابتن : في مقدوره أن يتحد بالماء ، وأن يفيد ، كينبوع معدنى ، في تقوية المرضى والمُذَنَفِينَ .

فقالت شرلوت : للجبس أن يفعل ما يشاء ؛ فقد تقرر مصيره وصار جسماً ، له كيانه ، أما هذا المنفى المسكين فيمكن أن يعانى بعدُ كثيراً من الملل والأمراض قبل أن يجد ملاذاً له آمناً .

فتبسم إدورد من قولها ضاحكا وقال : إما أن أكون مخدوعا أو يكون وراء ألفاظك سخرية رشيقة ! فهيا اعترفي بنخبك ! فأنا في نظرك الجير الذى استولى عليه الكابتن باعتباره حمض الكبريتيك ، وسلبك إياه ، وأحاله إلى جيس نافر .

فأجابت شرلوت : إذا كان ضميرك يلهمك مثل هذه الخواطر ، ففي وسعى أن أعزى عن الخوف . فهذه التشبيهات جميلة مرفهة ، ومن ذا الذى لا يسره التلاعب بالنظائر والأشباه ؟ على أن الإنسان مع هذا فوق هذه العناصر ؛ وإذا كان قد بدا هنا سخيا في منح الألفاظ الجميلة مثل : اختيار وأنساب مختارة ، فمن الخير له أن يؤوب إلى رشده ، وأن يجيد وزن هذه الكلمات في هذه المناسبة . فأنا أعلم وللحسرة ! كثيراً من الأحوال التى فيها قُضى على الارتباط الوثيق بين شخصين وثيقة تبنت أنها لا يمكن فصمها ، بواسطة ارتباطها عرضا بشخص ثالث ؛ وفيها رؤى أحد الكائنات المرتبطة بهذه الرابطة المحكمة قد استبعد وطُرد إلى نهاية الدنيا . فقال إدورد : في هذه الحالة إذن يكون الكيمياءيون أكثر مهارة ورشاقة : فهم يدخلون حينئذ عنصراً رابعا ، كما لا يبقى أحد منعزلا وحيداً . فقال الكابتن : أجل ، من غير شك ؛ بل إن أشد الأحوال إثارة للدهشة والتشويق هى تلك التى يمكن أن يظهر فيها هذا التجاذب والنسب ، وهذا الترك وذلك الاتحاد ، بحسبانهما متقاطعين ، هى التى فيها أربع مواد كانت متحدة حتى الآن مثنى مثنى ، فلما صارت على اتصال تحلت عن اتحادها الأول ، وكونت اتحاداً جديداً . وفي هذا الترك والأخذ ، فى هذا الفرار والنشدان ، يخيل إلى المرء حقا أن تمت مصيراً أعلى ؛ فيُعزى إلى هذه الكائنات نوع من الاختيار والإرادة ؛ ويرى المرء أن التعبير العلمى :

نسب مختار ، له ما يبرره كل التبرير .

— أتوسل إليك أن تصف لى حالة من هذا النوع !

فأجاب الكاتب : لا يمكن شرح هذا بالألفاظ . فكما قلت لكما ، حينما يكون فى مقدورى أن أجرى التجارب أمام عيونكما سيبدو كل شيء ألد وأوضح . أما الآن فساكون مضطراً إلى الانتقال عليكما بالمصطلحات العلمية الخفيفة التى لا تعطىكم أية فكرة واضحة . إنما يجب على المرء أن يرى فعل هذه المواد وانفعالها أمام عينيه ، هذه المواد التى تبدو مجادبة ، لكنها مع هذا متأهبة دائماً فى باطنها للعمل والنشاط ؛ ويجب أن نشاهد بتشويق كيف ينشد بعضها بعضاً ، وكيف تتجاذب وتباسك وتتفانى ويمتص أحدها الآخر ، ويقضى بعضها على بعض ، ثم تنتقل من أوثق اتحاد إلى صورة متجددة غير متوقّعة : وحينئذ فقط تُعزى إليها حياة أبدية ، بل وحواس وعقل ، إذ نشعر بأن حواسنا لا تكاد تكفى لمشاهدتها بوضوح ، وأن عقلنا لا يكاد يقوى على فهمها .

فقال إدورد : أعترف بأن هذه التسميات الغريبة لابد أن تبدو متعبة ، بل ومضحكة فى نظر من ليس يألفها بواسطة المحسوسات والأفكار العيانية . وإلى أن يحين هذا ، نستطيع أن نعبر بالحروف عن النسبة التى كنا بصدد الحديث عنها .

فأجاب الكاتب : إذا كنت لا ترى فى هذا إذاً إفراطاً فى الخداعة ، فى وسعى أن ألخص رأيى بلغة العلامات والرموز . فتصور أن ا متحد بكل وثاقة مع ب ، دون أن تستطيع المحاولات العديدة والمجهودات المتكررة أن تفصلهما ؛ وتصور أن ح متحد على نفس النحو مع د ؛ فضع الآن الزوجين على اتصال : فإن ا سيذهب للارتباط مع د ، و ح مع ب ، دون أن يكون

فى وسع المرء أن يعرف من ذا الذى ترك الآخر أولاً ، ومن ذا الذى اتحد أولاً مع الآخر .

فقال إدورد بحماسة : إذن ! إلى أن يحين الوقت الذى نرى فيه هذا كله بعيوننا ، سنعتبر هذه الصيغة مثلاً يعطينا درساً لنفعلتنا العاجلة . فأتت ا ، أى شرلوتى ؛ وأتأت بالنسبة إليك ؛ ذلك لأنه والحق يقال ، أنا متعلق بك وحدك أتبعك ، كما تتبع الباء الألف . و حهى من غير شك السكابتن ، الذى يسلبنى منك على نحو ما فى هذه اللحظة . والآن ، فلكيلاً تتطارى فى الهواء ، فمن العدل أن نحضر إليك ، ولا شك فى أنها هى الأنسة الصغيرة أوتيل ، التى لا ينبغى لك أن تعارضى فى مجيئها بعدُ طويلاً .

— حسنًا جداً ، بهذا أجابت شرلوت ، وعلى الرغم من أن المثل لا يبدو لى أنه ينطبق تمام الانطباق على حالتنا ، فإنى أعتبر من السعادة أن نكون قد التقينا اليوم واتفقنا كل الاتفاق ، وأن تعجل هذه الأنساب المختارة الطبيعية فى زيادة التفاهم وعمقه فيما بين كلينا . وهأنذا أعترف لك بأنى قطعت عزمى منذ هذا اليوم على استحضار أوتيل إلى جوارنا ، لأن قهرمانتى المخلصة ستفارقنى لأنها ستزوج . وهذا ما يشوقنى فى هذا الأمر . أما ما يجعلنى أعزم هذا العزم لصالح أوتيل ، فهذا ما ستقرأه علينا الآن . خذ هذه الرسائل . ولن أتبع قراءتك بعينى ؛ لكننى أعلم مضمونها مقدماً . خذ واقراً » .

وما قالت هذه الكلمات حتى قدمت الرسائل إلى إدورد .

الفصل الخامس

رسالة ناظرة المدرسة

اغفرى لى ، سيدتى البارونة ، إن كنت سأقتصر اليوم على بضع كلمات أكتبها إليك . فبعد الانتهاء من الامتحان فيما علمناه تلميذاتنا فى العام الذى انقضى ، يخلق بى أن أبلغ النتائج إلى كل الآباء وأولياء الأمور . وقد تجاسرت على الإيجاز ، لأننى أستطيع أن أقول الكثير فى كلمات قصار . إن الآنسة ابنتك قد تبدت متفوقة فى كل ناحية بالشهادات المرفقة بهذا ، ورسالتها هى إليك ، وهى تتضمن تفاصيل الجوائز التى ظفرت بها ، كما تنطوى على الرضا الذى ألهمها إياه هذا النجاح الموفق ، كل هذا سيكون لك موضوع رضا واعتباط . أما الذى يقلل من سرورى ، فهو أننى أتوقع أن لا يكون فى وسعنا أن نحفظ طويلا بتلميذة مجتهدة كل هذا الاجتهاد . وهأنذا ، سيدتى البارونة ، أستنصُّ إحسانك وأستمحك فى أن أبلغك عما قريب رأى فى خير ما يجب أن تفعله الآنسة ابنتك . أما عن أوتيل ، فسيحدث إليك زميل الكريم .

رسالة المعلم

كلفتنى ناظرنا المجلَّة أن أكتب إليك عن أوتيل ، إما لأنها ، وفقاً لوجهة نظرها ، تجد حرجاً فى كتابة التقرير الذى ينبغى أن يقدم إليك ، أو لأنها تفضل أن أقوم أنا بتقديم الاعتذارات وألوان الأسف التى يجب أن تحملها إليك .

ولأنى لأعلم جيّد العلم إلى أى مدى أوتيت الطيبة قليلة القدرة على إظهار ما تعلم والكشف عن قيمة نفسها : ولهذا فإن الامتحان العام قد أثار فى نفسى الكثير من القلق ، خصوصاً أنه من المستحيل على وجه العموم الاستعداد له ؛ وحتى لو أمكن هذا لما شئت أوتيت أن تخوض فى هذه المظاهر الكاذبة . ثم أنت النتيجة مبررة للخافى كل التبشير : فلم تحط بأية جائزة ، بل كانت من بين التلميذات اللأئى لم يظفرن بأية شهادة على الرضا والقبول . آه ، ماذا بقى أن أقوله بعد ؟ أما عن الخط ، فإن التلميذات الأخريات ، وإن كان خطهن ليس واضحاً كل هذا الوضوح ، كانت أيديهن أكثر خفة ورشاقة . وفى الحساب كن جميعاً أسرع منها ، والمسائل الصعبة التى تحسن هى حلّها ، لم توضع فى الامتحان . والفرنسية قد كشفت عن طلاقة الكثيرات . وفى التاريخ كانت تستذكر بصعوبة الأسماء والتواريخ ، وفى الجغرافيا كان من المؤسف أنها أهملت التقسيم السياسى . ولم يكن ثمت من الزمن ما يسمح بسماعها وهى تعزف مقطوعاتها النادرة البسيطة . أما عن الرسم ، فقد كان فى وسعها قطعاً أن تنال الجائزة : فإن تخطيطها كان رائقاً والتبويض مليئاً بالفهم والعناية ، غير أنها وباللأسف قد حاولت شيئاً صعباً ، فلم تستطع إتمامه .

وحينما خرجت الطالبات ، عقد الممتحنون جلسة وسمحوا للمدرسين بإبداء ملاحظات : فرأيت فى التواء أنه لم يُقل شيء عن أوتيتى ، أو إذا تحدث عنها متحدث ، فإنما كان ذلك عرضاً أو على الأقل من غير اكتراث . فأملت أن أثير عطفهم عليها بإعطائى إياهم صورة صادقة عن طبيعتها وخلقها ، وحاولت هذا بحماسة خاصة ، أولاً لأننى كنت أستطيع أن أتحدث عنها مطمئن الضمير ، وثانياً لأننى كنت فى مثل حالها البائسة هذه أيام شبابى

الأول . فأرعدوا أسماعهم إلىّ ؛ لكنني حينما انتهيت من حديثي ، أجبني الرئيس بلهجة وإن تكن عاطفة فهي قاسية :

— الميول مفروضة مقدما . إنما الواجب هو أن تستحيل إلى ملكات . فهذا هو موضوع كل تربية ؛ وتلك هي نية الأباء الصريحة ؛ والأولاد أنفسهم يسرون نحو هذه الغاية ، دون أن يعلموا ، أو لا يعلمون إلا علما ناقصا . وهذا أيضا هو موضوع كل امتحان ، حيث يُحكم فيه على الأساتذة والتلاميذ على السواء . وإن ما أخبرتنا به عن هذه الفتاة ليجعلنا نرّجى منها ، وإنك لتستحق المدخ على اهتمامك بمراعاة مواهب الطلاب . فاعمل في العام المقبل على أن تصير هذه المواهب ملكات ، ولن نبخل حينئذ بالثناء على الأستاذ ولا على التلميذ الذي يهتم به .

أسألت أُمري للنتائج ، لكن حدثت حادثة عنها أشد المآ ، ولم أكُ أتوقعها . فإن ناظرنا الطيبة التي لا تريد ، مثلها مثل الراعي الصالح ، أن ترى إحدى النعاج تضلّ ، أو ، في حالتنا هذه ، تظل بدون غذاء ، لم تستطع كتمان سخطها ، بعد ارتحال المتحنيين ، وقالت لأوتيلي ، وكانت متكئة بهدوء عند النافذة ، بينما كانت صواحبها مغتبطات بالجوائز التي ظفرن بها :

— قولي لي بربك كيف يمكن المرة أن يتبدى غيباً كل هذا الغباء إذا لم يكن في حقيقته كذلك .

— مغفرة ، أمي العزيزة ! فإن صداع رأسي قد انتابني اليوم وبكل شدة .

— من يدرى ؟ » هكذا أجابت هذه السيدة التي من دأبها العطف . ثم مضت مُغضبّة . ومن الحق أنه لا يستطيع أن يعلم هذا إنسان ، لأن أوتيلي لا تغفّر من ملاحظتها ، ولم ألاحظ مطلقاً أنها حملت مرةً يدها إلى صدغها . ولم يكن هذا كل شيء ، سيدتي البارونة . فإن الآنسة ابنتك ،

وهي التي ألفت الخفة والصراحة باستمرار ، قد استسلمت بكبرياء وازدهاء
لما طفة انتصارها . فكانت تجرى في كل الغرف ، ومعها جواثرها وشهادتها ،
وتلوح بها وهي مارة أمام عيون أوتيل ، صائحة في وجهها :
— لقد أسأت قيادة عربتك اليوم !

فكانت أوتيل تجيبها بكل هدوء : ليس هذا آخر يوم في الامتحان .
— وماذا يعني هذا ؟ ستظلين دائماً الأخيرة » ، بهزادت عليها الآنسة
ابنتك ، ومضت متواثبة . وتبدت أوتيل هادئة في نظر الآخرين ؛ لكنني لم
أنخدع بهذا المظهر . فإن انفعالاً باطنياً ، حياً ألماً ، تحاول إخفاءه ومناهضته ،
تبدت في لون وجهها التغير بدرجة غير متساوية . فالخذ الأيسر يصير
أحمر حيناً ، بينما الأيمن يشحب . ولاحظت هذا العَرَض ولم أستطع إخفاء
تأثري لحالها . فانتحيت مع ناظرتنا جانباً ، وحدثتها في المسألة بجد .
فاعترفت هذه المرأة الفاضلة بخطأها . وكان لنا حديث طويل ؛ ولئن أطيل
عليك ، وبكفيني أن أنهي إليك ، أي سيدتي ، قرارنا ورجاءنا . فهل
تفضلين بدعوة أوتيل إلى جوارك مدةً من الزمان . وإنك لتفهمين مقاصدنا
خيراً من كل إنسان آخر . فإن عزمت على هذا فسأبنتك عن الطريقة
التي ينبغي اتخاذها مع هذه الطفلة العزيزة . وحينما تغادرننا الآنسة ابنتك ،
كما نتوقع قطعاً ، فسرتحب بعودة أوتيل إلينا .

وملاحظة أخرى أخشى أن أنساها فيما بعد . لم أرها مطلقاً تطلب شيئاً
أو تسترشد حاجة بالحاح ؛ لكن تعرض أحوال ، نادرة مع هذا ، تحاول فيها
رفض ما يطلب إليها . وهي تفعل هذا بحركة لا يستطيع من يدرکها ويفهم
معناها أن يعترض سبيلها . فهي تسند كفاً مفتوحة إلى أخرى مفتوحة
كذلك ، وترفعهما نحو السماء ، ثم تردهما من بعد إلى صدرها بانحناء خفيفة ،

موجهة إلى السائل الثقيل نظرة فيها من التعبير ما يجعله يعترف بارتياح عن كل ما كان سألته أو رجاه . فإذا حدث ورأيته ، سيدتي البارونة ، تؤدي هذه الحركة ، وهو ليس من المحتمل مع طرق سلوكك وإياها ، فاذكريني وارجعي أوتيلي .

ولما قرأ إدورد هذا الخطاب لم يتمالك نفسه من الابتسام أحياناً وإنفاض رأسه مراراً ؛ كما لم ينس أن يلقي بخواطره عن الأشخاص المشاركين في هذه المسألة وعن الأمر كله . وأخيراً صاح :

— كفى ! لقد قرر القرار ، وستعود إلينا . وقد أخذنا أهبتنا فيما يتصل بك ، أي صديقتي العزيزة ، ولا نجد حرجاً الآن في أن نفضي إليك بما اقترحناه . فقد صار ضربة لازب أن أقيم في الجناح الأيمن إلى جوار الكابتن . وإن الصباح والمساء لهما الوقتان الأنسبان للعمل معاً . وهذا الاقتراح يسمح لك بأن تهينى الأمر فيما بينك وبين أوتيلي على خير ما ترتضيان . فراقاته شرلوت على كل شيء ، وأنشأ إدورد يصف حياتهم الجديدة ، وانتهى بأن صاح قائلاً :

— في الحق أنه من اللطيف أن تكون ابنة أختك مصابة ببعض الألم في الرأس في الجانب الأيسر ؛ فأننا أنالم أحياناً في الجانب الأيمن ؛ فإذا تلاقى نوبات ألما وكنا نجلس الواحد منا في مواجهة الآخر ، هي مستندة إلى ذراعها الأيسر وأنا إلى ذراعي الأيمن ، ورءوسنا في أيدينا ، وكلانا مائل جانباً ، فستكون عن هذا المنظر صورتان جميلتان تتلاقيان ! فتوسم الكابتن في هذا خطراً .

فقال إدورد له : فكّر في أمرك ، يا صديقي العزيز ، وخذ حذرك

من ؟ ! فإذا سيؤول إليه أمر الباء إذا سلبت منه الجيم ؟
 فقالت شرلوت : يبدو لي أن هذا شيء بين نفسه .
 فقال إدورد بجمرة : بدون شك سنعود إلى أليها ، التي هي
 أملها ومأواها !
 وما قال هذه الكلمات حتى وثب فوق كرسيه وضم شرلوت بجمرة
 إلى قلبه .

الفصل السادس

وصلت العربية التي أقلت أوتيلي ، فاستقبلتها وحيثها شرلوت .
 فهُرعَت الطفلة العزيزة نحوها ، وترامت عند قدميها وعانقت ساقها .
 — لماذا تمصاغرين على هذا النحو ؟ هكذا قالت شرلوت في شيء من
 الارتباك ، وهي تحاول النهوض بها .
 — ليس هذا ذلًا ولا تصاغرا ، بهذا أجابت أوتيلي ، وهي باقية على
 وضعها : ولكن يلزم أن أذكر العهد الذي لم أكن أستطيع أن أرتفع
 فيه إلى ما فوق ركبتيك والذي كنت فيه موقنة من حبك لي .
 ثم نهضت وعانقتها شرلوت بجمرة . وقُدمت إلى البارون والكابتن ،
 وسرعان ما قوبلت بعطف خاص . فالجمال أينا حلّ في احتفال . وبدأت
 أوتيلي تتنبه إلى الحديث دون أن تشارك فيه . وفي الغد ، قال إدورد لشرلوت :
 — هذه الفتاة تفيض عذوبة ورقة .
 — تفيض عذوبة ورقة ؟ هكذا قالت شرلوت باسمّة ، إنها لم تفه بكلمة بعد .
 — حقًا ؟ أجاب إدورد ، وكأنه يراجع ذكرياته . سيكون هذا غريبًا !

وكان يكفي شرلوت أن تعطى يتيمةً بمض الإرشادات الخاصة بطريقة إدارة المنزل كما تدرك في الحال أو بالأحرى تحبس كل نظامه . وسرعان ما فطنت يئسر إلى كل ما يجب عليها عمله نحو النكل ونحو كل فردٍ على حدة . فكانت تؤدي كل شيء بدقة وإحكام . وكانت تستطيع إعطاء الأوامر دون أن تبدو في لهجة الأمر ، وإذا أهمل أحد شيئاً ، فعلته بنفسها في الحال .

وبعد أن حسبت مقدار ما بقي لها من الزمان لتقصيه بين ظهرانيهم ، سألت شرلوت السماح لها بتوزيع أوقاتها ، ومن ثم استخدمتها بكل دقة . وسرت في عملها على المنهج الذي عرضه المعلم لشرلوت . ثم تسررت وشأنها ، اللهم إلا أن البارونة كانت تسمى بين الحين والحين لإرهاق عزمها . فثلاً كانت أحياناً تضع في يدها أقلاماً طال استعمالها ، كما تيسر لها أن تكتب مشقاً . يئسر أن أوتيل سرعان ما كانت تشجدها ، كما تصير أكثر قسوة .

وكان النسوة قد تعاهدن على التحدث بالفرنسية فيما يكنّ وحدثن ، وشرلوت ازداد حرصها على هذه العادة نظراً إلى زيادة قدرة بنت أختها على التحدث بهذه اللغة الأجنبية ، التي أوجبوا عليها التمرن بها ، وكانت حينئذ تقول أكثر مما كانت في الظاهر تريد . وكان يلزم لشرلوت أن تستمع إليها أحياناً وهي تصف مدرستها الداخلية وصفاً إن يكن صادقاً فهو لا يخلو من الإحسان . ومن ثم صارت أوتيل بالنسبة إلى شرلوت رفيقة عذبة ، وراق البارونة أن تجد فيها يوماً صديقة لها وفيّة .

وراحت تقرأ التقارير القديمة التي كانت تكتب لها عن ابنتها ، كما تستحضر في ذاكرتها كل تلك الأحكام التي كانت ناظرة المدرسة والمعلم

بصدرانها على هذه الطفلة العزيزة ، وتقارنهما بما تراه من أحوال أوتيلي ؛ لأن شرلوت كانت ترى وجوب معرفة أخلاق الأشخاص الذين يضطر المرء للعيش معهم ، كما يكون على بصيرة بالذى يمكن أن يصدر عنهم ، وما عسى أن يتيسر إصلاحه فيهم ، وماذا يجب على المرء أن يعجز نفسه عنه منه ويطويه على غرّه .

يُبد أن هذا الامتحان لأحوالها لم يزدها معرفة بها ، اللهم إلا أن كثيراً من الأشياء التي كانت تعلمها عنها تبدت لها أكثر مثاراً للعجب والدهشة . فمثلاً كانت قناعة أوتيلي المفرطة مثاراً لقلق حقيق لديها .

وكان أول موضوع عنى السيدتين هو الزينة . فافتضت شرلوت من ابنة أختها أن تزيد في التأنيق في هندامها . وسرعان ما كانت الفتاة الطيبة النشيطة تفصل القماش الذي أُعطي لها من قبل بنفسها ، ومع قليل من المساعدة كانت تعرف كيف تلفقها على قدها تماماً . وهذه الفساتين التي خيطة وفقاً لأحدث الأزياء كانت تزيد من جمالها : لأن فتنة الشخص تنتشر على ملبسه ، ويخيل إلى المرء دائماً أنه أكثر جدة وحُسنًا ، حينما تنتقل مفاته إلى ملابس جديدة .

وبهذا ، ولكي نسمى الأشياء بأسمائها الحقيقية ، كانت تزداد كل يوم فتنة وسحراً في نظر البارون والكابتن ؛ لأنه إذا كان يؤثر أيضاً في هذا الإحساس تأثيراً صحيحاً سليماً ، فكذلك الجمال الإنساني يؤثر بقوة أكبر كثيراً في الإحساس الباطن والظاهر . ومن يتأمله لا يمتسسه ضر ، ويشعر بأنه في وفاق مع نفسه ومع الدنيا بأسرها .

فكان جماعتهم إذن قد أفادت من وصول أوتيلي من أمحاء عدة . والصديقان الثابران أكثر من كليهما على حضور المجلس كانا يصلان دائماً

في اليماد المحدد ، ولم يكونا يتأخران مطلقاً عن وجبات الطعام أو الشاي أو الزهرة ، كما لم يكونا متمجّلين لمغادرة المائدة ، خصوصاً في المساء . وأدركت شرلوت هذا تمام الإدراك ، ولم تكف عن ملاحظتهما كليهما ، محاولة أن تكتشف حدوث أى تغيير من جانب الواحد أكثر من الآخر ؛ لكنها لم تستطع أن تلاحظ أى اختلاف . وكلاهما كان يتبدى غالباً حسن الجمالة رقيق الحاشية . وفي أحاديثهما يتبديان كأنهما يركزان انتباههما من أجل تشويق أوتيلي ، ومسايرة معارفها ومستوى معلوماتها . وإذا قرأ أو قصصاً ، كانا ينتظران عودتها لإكمال ما يقصان أو يقرآن . وهكذا صارت أحوالهم أكثر رقة وأيسر تبادلاً واتصالاً .

أما أوتيلي فقد صارت ، من ناحيتها ، أكثر حرصاً على الجمالة والمبادرة . وكلما ازدادت معرفتها بالقصر والأحياء والأشياء ، ازداد حرصها على العمل ، وفهمها للألفاظ وأنصاف الكلمات والإشارات والنظرات . وبقي انتباهها الهادئ مستوياً دائماً ، كما هو شأن نشاطها الرقيق . فكانت ترى ' وهى تجلس أو تنهض أو تغدو أو تروح أو تخرج أو تدخل وتستعيد مكانها ، دون أن تتبدى على وجهها علائم القلق ؛ لقد كانت كتلة من النشاط المستمر والحركة التى لا تهدأ ومع هذا تسر ؛ أضف إلى هذا أن صوت وقع أقدامها لم يكن يُسمع مطلقاً ، لأن سيرها كان خفياً .

وهذا التلطف الجميل قد أشاع الكثير من السرور في نفس شرلوت ، اللهم إلا أن تمت شيئاً واحداً بدا لها خارجاً عن الحدود ، ولم تشأ أن تخفيه عن أوتيلي ، فقالت لها ذات يوم :

« من كريم الشئائل أن ينحنى المرء بسرعة لالتقاط ما هو من يد الآخرين ، لأن هذا إعلان منه بأنه مستعد لخدمته ؛ لكن يجب علينا

في المجتمع أن نأخذ حذرنا من هذا الذي نبين له عن هذا التوقير . أما فيما يتصل بالنسوة ، فليست لدى قاعدة أريد أن أفرضها عليك . إنك شابة صغيرة : فنحو هؤلاء اللاتي يَفْقُننك في المرتبة أو السن ، هذا واجب عليك أدائه ؛ ونحو قرباناتك هذا أدب ومجاملة ؛ ونحو الأصغر منك سناً وفي مرتبته ، هذا إحسان وإجمال وإنسانية ؛ لكن لا يخلق بامرأة أن تقدم لرجل مثل هذه الخدمات والتبجيلات » .

فأجابت أوتيل : « سأبذل جهدي كيما أنخلص من هذه المعادة التي أرجو أن تغفريها لي بما فيها من سوء ، حينما تسمعين مني كيفية اتخاذي لها . لقد علمونا التاريخ ، ولم أحفظ منه كما كان يجب ، لأنني لم أعرف ماذا عساه يفيدني . لكن بعض حوادثه قد انتعشت بعمق في ذاكرتي ، ومن بينها هذه :

حينما كان شارل الأول ، ملك إنجلترا ، في حضرة من ادّعوا أنهم قضائه ، سقطت العقافة الذهبية للمعصا التي كانت في يده . ولما كان قد اعتاد ، في مثل هذه الأحوال ، أن يرى الناس متلهفين لخدمته ، بدا كأنه يلقي نظرة حواليه ، منتظراً ، هذه المرة أيضاً ، أن يقدم له واحد من الحاضرين هذه الخدمة البسيطة . لكن أحداً لم يتحرك ؛ فأنحني بنفسه لالتقاطها . ولست أدري هل كان في هذا مصيبا . لكن هذا قد أثر في نفسي إلى حد أني منذ ذلك الحين لا أستطيع أن أرى إنسانا يسقط منه شيء ، دون أن أنحني لالتقاطه . لكن لما كان هذا غير ملائم في كل الأحوال ، ولما كنت لا يسعني أن أقص هذه القصة في كل مرة ، هكذا تابعت حديثها باسمه ، فسا عمل ما وسعني كيما أملك نفسي في المستقبل » .

وفي تلك الأثناء كان الصديقان يعملان بجهد ومثابرة في المنشئات الجديدة

التي شعرا بأن عليهما أن يقيماها . وفي كل حين كانا يجدان فرصة جديدة للتفكير في مشروع أو تنفيذه .

وذات يوم كانا يتحرقان القرية سوياً فلاحظا مع الأسف أنها بعيدة كل البعد — من ناحية النظام والنظافة — عن تلك القرى الجميلة الموقع مما يضطر أهلها إلى رعاية أنفسهم من مختلف النواحي .

قال الكاتبين : « إنك لتذكر أننا حينما كنا نزور سويسرة ، عبرنا عن الأمل في تجميل بستان ريفي ، بأن نقيم في قرية ، مكانها كهذه ، لا العمارة ، لكن النظام والنظافة المتوفرين في القرى السويسرية التي لها في الاستقلال مزايا عدة » .

فأجاب إدورد : إن هذا ميسور التحقيق هنا مثلاً . فالراية التي تحمل قصرى تهبط وتنتهي بزاوية بارزة ؛ والقمرية قد بنيت قبالاته ، على هيئة نصف دائرة منتظم بعض الانتظام ؛ وبينهما يجري النهر ، الذي يُحتَمَى من أمواجه الكبيرة على أنحاء عدة : فهذا يريد الاحتماء بالحجارة ، والثاني بالخوازيق ، والثالث بجذوع الأشجار ، وجاره بالألواح الخشبية ؛ لكن لا يعين أحدهما الآخر ؛ بل يُضِرُّ كل منهما بنفسه وبجيرانه . والطريق هو الآخر سيء التعميد ؛ فحينما يصاعد ، وأخرى ينحدر ؛ وهنا يمر خلال النهر ، وهناك من فوق الصخور . ولو شاء الناس أن يبذلوا شيئاً من الجهد ، فلن يكلفهم إلا القليل كيما يبنوا هنا سوراً نصف دائري ، وأن يصعدوا ، من هناك ، بالطريق حتى المنازل ، وأن يستفيدوا من المكان ، ويجعلوا النظافة تسود ، وبغضنشة كبيرة يلغون كل هذه الاحتياطات البسيطة غير الكافية .

فقال الكاتبين : فلنقم بتجربة ، بأن نقيس بالنظر ونحكم على الحالة .

فأجابه إدورد : لايسرنى الاشتغال مع رجال الطبقة الوسطى والفلاحين ،
إلا إذا كانت لدى أوامر صريحة واضحة أقيها إليهم .

— لك الحق : فكثير من الأعمال التى من هذا النوع قد أحدثت
لى فى حياتى كثيراً من المتاعب الكبيرة . وإنه لمن العسير على الناس أن
يحسنوا تقدير ما يجب عليهم التوضيحية به طمعا فى الحصول على الفائدة التى
يرجونها ! وأن يريدوا الغاية ولا يحتقروا الوسائل المؤدية إلى تحقيقها ! إن
كثيرا من الناس ليخلطون حتى بين الغاية والوسيلة : فيتملقون بالواحد ،
دون أن يلتفتوا إلى الآخر . ويود الإنسان دائما أن يكافح الشر أينما ظهر ،
لكنه لا يُعنى مطلقاً بالنقطة التى ابتدأ منها ، وعنهما يصدر تأثيره . وتلك
هى العلة فى صعوبة التفاهم ، خصوصا مع الجمهور ، الذى يحسن تقدير المسائل
اليومية الحاضرة ، لكنه نادرا ما يمتد ببصره إلى ما وراء الغد . وإذا حدث
أيضا أن كان الواحد كاسبا والآخر خاسرا فى إقامة المنشئة العامة ، فمن
المستحيل تماما عمل شئ . عن طيب خاطر واتفاق . لهذا فإن كل عمل ذى
منفعة عامة لابد له من معونة قوة السلطان غير المحدودة .

وبينا كنا يتوقفان ويتناقشان على هذا النحو ، أتاها رجل يدل مظهره
على القحة أكثر مما يدل على الفقر ، وسألها صدقة . فغضب إدورد من
إقلاقه وقطع الحديث عليه ، فانهره ، بعد أن حاول رده بلطف مرارا ،
اسكن عبثا ؛ غير أنه لما كان هذا الرجل العجيب قد ابتعد بخطوات متثاقلة ،
وهو يدمدم ويهمهم ؛ ولما كان قد تبجح بحقوق السائل ، الذى يمكن رده ،
لكن لا يجب انتهاره ، لأنه كغيره من الناس فى حمى الله والسلطان —
فقد عيل صبر إدورد . فقال له السكابتين ملاطفا :

— لنتخذ من هذه الحادثة نصيحة لنا بأن نمتد بإدارتنا وإشرافنا

الرفي حتى إلى مثل هذه المسائل . فيجب التصديق على المحرومين ، لكن لا يجب أن يقوم بها صاحبها بنفسه ، خصوصاً في منزله . إنما من الواجب استعمال العدالة والاطراد في كل شيء حتى في الإحسان . فإن صدقة زائدة تغري زيادة السائلين بدلاً من التخلص منهم . ومن ناحية أخرى ، حينما يكون المرء في سفر ماراً بسرعة فإنه يلذ له أن يتبدى للفقير في الطريق على هيئة إلهة الحظ ، وأن يلقي إليه بصدقة غير منتظرة . وإن موقع القرية والقصر يجعل مثل هذا الوضع ميسوراً : وهذا شيء طالما فكرت فيه من قبل . فعند إحدى نهايات القرية يقوم النُّزُل ؛ وفي الأخرى تقيم أسرة أبناؤها طيبون : فلنضع في كل من هذين السكانيين مقداراً صغيراً من المال . وسيعطى لا للداخل ، بل للخارج من القرية ، ولما كان البيتان على حافة الطرق المؤدية إلى القصر فإن جميع من يريدون سلوكها يتجهون إلى هذين السكانيين .

— تعال ، هكذا قال إدورد ، ولننفذ هذا حالا ؛ ومن بعد فلننظر إن شئنا في التفاصيل .

وذهبا إلى صاحب النُّزُل ، وعند الأسرة المهرمة ، ونفذا ما أرادا . فقال إدورد للسكاتبين (وهو يصعد معه إلى القصر) : إنى أرى جيداً أن كل شيء في العالم يتوقف على فكرة صائبة وعزيمة راسخة . وهكذا أصبت في الحكم على الأعمال التي أجرتها زوجتي في البستان ، وألهمتني أفكاراً أفضل ، سرعان ما أفضيت بها إليها . أقول هذا كي لا أحنى عليك أمراً . — لقد وقع هذا في خلدى ، لكنى لا أرافئك على ما فعلت . لقد وقعت في نفسها الاضطراب ، فتركت كل شيء معلّقا ، وفي هذه المسألة أثبتت حفيظتها ضدنا ، لأنها تتجنب الحديث عنها ، ولم تعد تقودنا إلى

كوخ الطحلب ، على الرغم من صعودها إليه مع أوتيلي حينما تختليان .
 - لكن لا نجمل هذا سبباً لانبثاق جبل الرجا ، هكذا أجاب
 إدردود . فحينما أقنع بأن شيئاً ما صواب ، وأنه يمكن ، بل يجب ، فعله ،
 فإني لا أرتاح حتى أراه قد نُفِّذَ وتم . وإني لأترجى أن يكون في وسعنا
 الوصول إلى بغيقتنا برفق . ولنتخذ على سبيل التسلية في المساء كوضع
 لحديثنا الموائد الإنجليزية ، ووضعها مرفقةً بالصور المحفورة ؛ ثم تتبع هذا
 بعرض مشروعات الخاص بتنظيم الضيعة ، ولنتناول أولاً الأمر على هيئة
 مسألة للحل وللمجرد التسلية ، وضرعان ما تصير أمراً جيداً » .

وبعد أن أفاضوا قِدادح الرأي على هذا النحو ، فتحوا الكتب التي
 يرى فيها تخطيط المنطقة ومنظرها الريفى ، في حالته الطبيعية الفطرية
 الوحشية ؛ وفي أوراق أخرى التغييرات التي استحدثتها الصناعة لاستثمار
 الفوائد القائمة بها . ومن هنا كان من السهل عليهما أن يعرجا على ضيعتهما
 الخاصة والبقاع المجاورة لها وما يمكن لإحداثه من تزويق فيها وتجميل .

وكان مشغلة شائعة أن يتخذ مشروع الكابتن أساساً للبحث . لكن
 لم يكن في الوسع التخلص نهائياً من الأفكار الأولى التي اتبعتها شرلوت
 حتى الآن في أعمالها . غير أنهم استطاعوا إيجاد وسيلة لبلوغ الراية عن
 طريق مطلع أيسر ، ورغبوا في إقامة صُفَّة للترويح في أعلى على المنحدر ،
 قبالة خيمة جميلة ، صُفَّة يلزمها أن تكون على اتصال بالقصر ، ويمكن رؤيتها
 من خلال نوافذ هذا البناء ، ومن الصُفَّة يتنزه النظر في القصر والبساتين .
 والكابتن ، بعد أن أفكر في كل شيء وقدره ، طرح على البحث
 طريق القرية والصور المصاوب للنهر ، والأترية المخصصة للردم . . . وتابع
 حديثه قائلاً :

— ببناء طريق معبد يؤدي إلى أعلى ، يمكننا أن نظفر بما نحتاج إليه من الأحجار لبناء السور . وإذا ما مُزج مشروع بآخر نفذ كلاهما بطريقة أسرع وأقل نفقات .

— هاك ما يعينني ؛ هكذا قالت شرلوت : يجب قطعاً تقديم شيء ثابت وحينما نعرف كم سيتكلف هذا العمل ، سنجزئ المبلغ على أشهر ، إن لم يكن على أسابيع . وسأكون أنا أمانة الصندوق ، فأدفع المطلوبات ، وأنظم الحسابات .

— يبدو أنك لا تثقين فينا كثيراً ، هكذا قال إدورد .

— كلا ، لا أثق فيكم فيما يتصل بالمسائل الخيالية . فنحن أقدر منكم على إحكامها .

وأعدوا الترتيبات اللازمة ؛ وبدأت الأعمال بهمة ، وكان السكابتن يُسهر لها قلبه ويرعاها باستمرار ، واستطاعت شرلوت ، كل يوم تقريباً ، أن تتحقق من صدق نظراته وحكمته . وهو بدوره قد ازداد معرفة بشرلوت ، وصار من الميسور لهما أن يعملوا سوياً ويصلا إلى غاية فيها فائدة . إن مَثَل الأعمال مَثَل الرقص : فالأشخاص الذين يخطون خطوة واحدة يجب أن يعتمد كل منهما على الآخر ؛ ويجب أن ينشأ عن هذا بالضرورة إحسان متبادل ؛ والشاهد الصادق على أن شرلوت منذ أن عرفتة حق معرفته أضمرت لضيفها الخير حقاً ، هو أنها تركته ، بكل هدوء وبلا أدنى تملل ، يهدم مستراحاً جميلاً عنيت هي باختياره خاصة وزينته في أعمالها الأولى ، وقد كان لا يتفق مع مشروع السكابتن .

الفصل السابع

ولما كانت شرلوت قد وجدت مع صديق المنزل شاغلا مشتركا ، فقد حدث عن هذا أن ازداد تقرب إدورد من أوتيلي . وهذا قد شعر فعلا منذ حين بميل سرى رقيق . ولقد كانت أوتيلي بارعة المجاملة رقيقة حواشي الطبع لينة المهتصر بالنسبة إلى الجميع ، لكن غرور إدورد خيل إليه أنها أكثر مجاملة له منها للآخرين . والشئ الذى لا شك فيه هو أنها لاحظت بدقة أى ألوان الطعام آثر عنده وكيف يتشهاها ؛ ولم يفُتها أن تراعى ما يتناوله من السكر للشأى ، ومثل هذه اللوازم ؛ وسهرت بعناية ظاهرة على حمايته من تيارات الهواء ، وقد كان إدورد يتأثر بها بدرجة مفرطة ، مما أفضى أحيانا إلى منازعات مع زوجته ، لأنها لم تكن تجد مطلقاً الغرف مُهوَّاةً تهوية كافية . ثم امتدت عناية أوتيلي إلى المَفرَس والمَبَقَّة ، وسعت لاستباق رغبات البارون واستبقاء ما عسى أن يحدث له قلقا ومللا ، إلى درجة أنها صارت بعد حين قليل ملاكا حارسا له وحفيظا ، ولم يعد فى وسعه الاستبعاد عنها ، وأضحى يستشعر الألم من غيبتها . أضف إلى هذا أنها كانت تبدو أكثر تفتحا وصراحة حينما يختليان .

وبرغم تقادم السنين فقد احتفظ إدورد بشئ من مظاهر الطفولة يتفق تماما وشباب أوتيلي . ولذلهما أن يعيدا ذكر الأزمئة الأولى التى التقيا فيها ، وكانت هذه الذكريات تعود إلى العهد الأول لغراميات إدورد مع شرلوت . وزعمت أوتيلي أنها لا تزال تحتفظ بذكرى هذين العاشقين ، بحسبانهما أجل زوج من العشاق فى البلاط ، ولما كان البارون لم يشأ الاعتقاد بأنها لا تزال تحتفظ بهذه الذكريات التى ترجع إلى طفولتها الأولى ، فقد

أكدت هي أنها تذكر جيداً حادثة بعينها : هي أنها ، وقد دخل يوما ، قد أخفت رأسها في حِصْن شرلوت ، لا خوفاً ، بل تحت تأثير المفاجأة الطفولية ، وكان في استطاعتها أن تضيف : لأنه أحدث في نفسها تأثيراً حياً ، ولأنه راقها كثيراً .

ونظرا إلى الوضع الجديد الذي وجدا فيه ، ترك الصديقان كثيراً من الأعمال معلقا ، وهي الأعمال التي عالجها سويا ، إلى درجة أنهما وجدا من الضروري استعراضها ، وتخطيط بعض المذكرات ، وكتابة جملة من الرسائل . فعادا إذًا إلى مكتبهما ، حيث وجدا الناسخ المعجوز عاطلا من العمل . فأنشأ يعملان ، وسرعان ما أمدها بالعمل ، دون أن يلاحظا أنهما قد استراحا من كثير من الأشياء التي اعتادا من قبل أن يقوموا بها بأنفسهما . غير أن الكاتبين لم يستطع إتمام أولى مذكراته ، كما لم يقدر إدورد على الانتهاء من رسالته الأولى : إذ عانيا صَعْدًا حينما في التفكير والتحرير . وأخيرا سأل إدورد ، وقد كان أكثرهما انحراف مزاج : كم الوقت .

لكن حدث أنه للمرة الأولى منذ عدة سنوات نسى الكاتبين ملء ساعته ذات الثواني ، وتبيننا ، أو على الأقل استشعرا أن سير الزمان بدأ يصبح بالنسبة إليهما شيئًا لا يكاد يعينهم .

وبينما بدأ نشاط الرجلين في الفتور ، ازداد نشاط السيدتين . والواقع أن مسار الحياة المعتاد في الأسرة ، كما ينتج عن الأشخاص الذين يكونونهما وعن الملائسات الضرورية التي تحيط بهما ، يمكن بذاته أن يسمح بوجود ميل غير عادي أو عاطفة ناشئة ؛ ولعل زمنا طويلا بدرجة كبيرة سيمر قبل أن يموت العنصر الجديد الذي أدخل في الأنوبة اختبارا ظاهراً ، وينتشر فوق الحافة على شكل موجات من الرغبة والزبد .

ولقد ولدت الميول المتبادلة التي نشأت بين أصدقائنا هؤلاء أجل أثر :
فقد تفتحت القلوب ، وفاضت عاطفة إحسان شاملة من عاطفة إحسان
خاصة ، وشعر كل زوج بأنه سعيد ، وسر بسعادة الآخر .

ومثل هذا الموقف خليق بالسمو بالروح والارتفاع بالقلب ، فيصير
كل ما يفعله الإنسان وكل ما ينجزه ذا نزوع إلى اللانهاى . فلم يعد هؤلاء
الأصدقاء مغلقين بمد فى مساكنهم ؛ وامتدت نزهاتهم إلى مسافات بعيدة ؛
وبينا كان إدورد يحث الخطى إلى الأمام مع أوتيلى لاختيار الطرق التى
يسلكونها والتقدم أمام ركبهم ، كان الكابتن برفقة شرلوت يقتفى آثار
هذين الكشافين ؛ وساروا يتجاذبون بينهم أحاديث جدية ، ويمعنون النظر
فى أماكن اكتشفت حديثا ، وفى آفاق لم تكن متوقعة ولا منتظرة .

وذات يوم غادروا القصر من باب الجناح الأيمن ، وهبطوا ناحية
النُّزل ، وعبروا الجسر ثم عَمِمُوا نزهتهم صوب المستنقعات وساروا فى
محاذاة شواطئها إلى أبعد ما تعود الناس أن يتابعوا به الماء ، حينما يكون
الساحل قد كف عن أن يكون معبداً ، إذ سُدَّ رابية ذات أدغال ، ومن
بعيد تعترضه الصخور .

وعلى الرغم من هذا فإن إدورد الذى خبر من قبل إبان رحلاته
للْقَنْصِ طبيعة المنطقة المجاورة قد أوغل فى المسير ، وفى صحبته أوتيلى ،
خلال طريق تموقه الأشواك ، وهو يعلم جيداً أن الطاحونة القديمة ،
المغمورة فى الصخور لا يمكن أن تبعد عن مكانه كثيرا . لكن هذا
الطريق ، الذى لم يلجه كثيرون ، سرعان ما تبدد رسمه وامسحت معالمه ،
فضلاً فى الغابة الكثيفة ، بين الصخور المغطاة بالطحلب . لكن ضلالهم
لم يستمر طويلاً ، لأن ضجة العجلات سرعان ما أنبأتها بأنهما بالقرب

من السكان الذى يئشده انه .

ولما تقدماء على صخرة بارزة ، أبصرا أمامهما ، فى الوادى ، البيت الخشبى العتيق ، تعلوه سمرة وجمال ، وتُظِلُّه صخور وعرة وأشجار باسقة . واستقر عزمهما بجسارة على الهبوط من فوق الطحلب والصخور المتكسرة ، وفى طليعتهما إدورد . فلما عاد يبصره إلى الأعلى ورأى أوتيلى تتبعه بخطوات خفيفة دون ما وجل ولا اضطراب ، وفى آتران بلغ غاية الرشاقة ، خيل إليه كأن كائنا سماوياً يخلق من فوقه . وحينما كانت فى بعض الأحيان فى المواضع الوعرة تقبض على اليد التى يمدّها إليها ، أو تستند فعلاً إلى كتفه ، لم يكن يقوى على كتمان أن هذه التى تمسه إنما هى امرأة ، امرأة رقيقة عذبة ، حتى كانت تخالجه أمنية أن يراها تنهاوى وتنزلق ، كما يتيسر له أن يمسك بها بين ذراعيه ؛ وأن يضمها إلى قلبه . لكنه لم يكن ليفعل هذا على أية حال ، لأكثر من سبب : فقد كان يخشى إهانتها وجرح شعورها . كيف نفسر هذا ؟ هذا ما نقص عليك نبأه الآن . فانهما حينما بلغا الوادى ، وجلس إدورد فى مواجهة أوتيلى ، يتفياّن ظلال الأشجار السامقة حول منضدة ريفية ، ثم طلب من الطحانة المهذبة أن تبحت عن لبن ، ومن زوجها المرح أن يستبق إلى استقبال شرلوت والكابتن ، أنشأ إدورد يقول ، فى شيء من التردد :

« عندى رجاء إليك ، يا عزيزتى أوتيلى ؛ واضربى عنه صفحاً جميلاً ، إن لم يَرُقْكَ . إنك لا تكتمين (ولست فى حاجة إلى هذا الكتمان) أنك تحملين تحت ثيابك وفوق صدرك صورة أبيك ، هذا الرجل الكريم الذى لم تكادى ترينه وتعرفينه ، ويستحق من كل وجه مكانة فى قلبك خاصة . لكن اغفرى لى أن أقول لك إن هذه الصورة كبيرة بدرجة مفرطة ، وهذا

المعدن وذلك الزجاج يثيران في نفسى مختلف ألوان القلق ، حينما تأخذين طفلاً بين يديك ، وحينما تحملين شيئاً أمامك ، أو تترجح العربية ، أو نجوس خلال الغابة ، ومنذ قليل ، حينما كنت تهبطين الصخر . فإن نفسى لتمتلئ قشعريرة لفكرة أن صدمة مفاجئة ، أو هبوطاً ، أو ضغطاً يمكن أن يؤدي إلى جلب الشر عليك . فبحق صداقتى لك إلا خلعت هذه الصورة ، لا من ذاكرتك ، ولا من غرفتك — بل بالعكس : أحلّتها خير مكان وأقدس موضع في مخدعك — لكن أبعدى عن صدرك شيئاً يجعلنى الخوف — المبالغ فيه ، ربما — أحكم بأن قربه خطر عليك .

وكانت أوتيل تستمع له في صمت وبعينين منكسرتين ؛ وإذا بها ، دون عجلة ولا تردد ، تفصل بصرها عن الأرض وترفعه قليلاً إلى السماء ، ثم تفتح السلسلة ، وتجذب الصورة من صدرها ، وتضعها على جبينها وتقدمها إلى صديقها قائلة :

«احتفظ بها حتى نبليغ القصر . وليس لدى خيراً من هذا شاهد على مقدار تقديري لقلقك الصادر عن خالص الود والصداقة » .

لكن إدورد لم يجسر على ضم الصورة إلى شفثيه ، بل أخذ كف أوتيل وضماها إلى عينيه . ولعل هاتين اليدين كانتا أجمل يدين تصافحتا وتضاغطتا . فأحس بأن قلبه قد انزاح عنه عبء فادح ، وبأنه يرى الحاجز الذى كان يفصله عن أوتيل قد زال .

أما شرلوت والكابتن فقد اقتادها الطحّان خلال طريق أكثر تمبيداً ، وازداد السرور باللقاء ، وتناولوا بعض المنعمشات . ولم يشاءوا العود من نفس الطريق ، فاقترح إدورد اتخاذ طريق من الصخر ، على المُدوّة الأخرى من الجدول ، فإذا صعدوه بشيء من الجهد ، وجدوا أنفسهم في

مواجهة المستنقعات . ثم اخترقوا كثيرا من الخوائل ، وتبدت أمام نواظرهم في الريف المنبسط قرى ودساكر وضياح ، تحيط بها البرارى الخصبة الخضراء ؛ وبالقرب منها تجلت في إحدى المزارع فوق الأعلى وسط الغابة خلوة هادئة . ولكن ثراء الإقليم تكشف عن خلف وعن أمام ، بكل جماله ، فوق الراية التي بلغوها عن طريق منحدر رقيق ؛ ومن هنا بلغوا أيبكة بديمة ، وعند المخرج صاروا إلى صخرة في مواجهة القصر .

كان سرورهم فياضاً حينما وصلوا هذا المكان على نحو يكاد أن يكون غير متوقع . لقد داروا حول عالم صغير ، وتلبّثوا ملياً عند المكان الذي سيقام عليه البناء الجديد ، ووجدوا أنفسهم أمام القصر .

ثم هبطوا إلى الكوخ الطلحي ، ولأول مرة جلس فيه الأربعة المتزهون . وطبيعي أن يتفق إجماعهم على التعبير عن الرغبة في رؤية الطريق ، الذي سلكوه في ذلك اليوم ببطء وفي شيء من المشقة ، مرسوماً ومعبداً على نحو يهيئ لجماعة أن تشقه يئسراً وسهولة . وأدلى كل منهم باقتراحه ، وقدروا أنه لو كان الطريق الذي كلفهم ساعات طوالاً للسير قد عبّد جيداً ، لكلفهم ساعة واحدة للعودة إلى القصر . واقترح أحدهم إنشاء جسر تحت الطاحونة في الموضع الذي يصب فيه الجدول في المستنقعات من شأنه أن يقصر من المسافة وأن يزيد في جمال المنظر — غير أن شرلوت وقفت قليلاً من تخليق هذا الخيال المتدع ، مشيرة إلى ما يتكلفه مثل هذا المشروع من نفقات .

فأجاب إدورد : « عندى طريقة جيدة . فهذه الضيعة القائمة في الغابة ، التي تبدو جميلة الموقع ولكنها لا تُفِلُّ إلا القليل ، يجب أن نبنيها ، وأن نخصص المال الناتج لمثل هذه التجميلات . وعلى هذا النحو ، تدفع لنا

المُتَسَنِّزَات الثمينة بملاذها العذبة فوائد رأس مال أجياد استغلاله ، بينما نحن اليوم لا نحصل بعد الجهد إلا على دخل تافه في نهاية العام ، بعد تصفية حسابها .

فلم يكن لشرلوت ، وهي المدبرة الأربية ، أن تقيم كبير اعتراض على هذا الرأي ؛ بل المسألة كانت من قبل موضع نظرهم . فاقترح السكاكين توزيع الأرض بين الفلاحين القاطنين في الغابة ؛ لكن إدورد فضل وسيلة أجمع وأيسر ، هي أن تعطى المستأجر الحالي ، وكان قد تقدم بهذا العرض من قبل ؛ وأن يدفع على أقساط ؛ وكذلك تنجز الأعمال المقترحة على دفعات . ومثل هذا التدبير الحكيم المستحصى كان خليقا أن يظفر بموافقة الجميع دون أدنى تحفظ . وهام الأصدقاء أولاء يرون بعين خيالهم الطرقات الجديدة مخططة ، ويرجون الكشف عن آفاق جديدة ومواقع بديعة ، إن في المنطقة المجاورة أو على طول المجرى .

ولكى تتضح التفاصيل ، نشروا في المساء أمامهم المشروع الجديد ؛ ودرسوا الطريق الذي سلكوه ، وما يمكن إدخاله عليه من إصلاحات في بعض المواضع ، ثم عكفوا على المشروعات القديمة يناقشونها ويمزجون بينها وبين الآراء الجديدة ؛ ووافقوا فوراً على مكان البناء الجديد ، في مواجهة القصر ، حيث تنتهي إليه الطرقات عند امتدادها .

وخلال هذه المناقشة كلها ، اعتصمت أوتيلي بالصمت ، وأخيراً وضع إدورد أمامها التصميم ، بعد أن كان موضوعاً أمام شرلوت حتى ذلك الحين ، ودعاها في الآن نفسه إلى إبداء رأيها . فلما ترددت قليلاً في الإجابة ، ألح عليها بلطف في الكلام ، وقد كان باب الاختيار لا يزال مفتوحاً ، إذ لم يتقرر بعد شيء .

فقلت ، وهى تضع إصبعها على أعلى نجدٍ فى الراهية : « ها هنا أرى أن يبنى المنزل . أجل ، لن يكون فى الوسع رؤية القصر ، إذ تحجبه الغابة ، لكن سيجد المرء نفسه كأنه فى عالم جديد غريب لأن القرية وجميع المساكن ستختفى معاً . وإن المنظر على المستنقعات والطاحونة والروابي والجبال والإقليم ليفيض فتنة وسحرا بدرجه خارقة : إذ لاحظت هذا وأنا مارة » .

فصاح إدورد : « الرأى ما رأته ! كيف لم تحظر ببالنا هذه الفكرة ؟ انظرى ، أوتيلى ، أليس هذا رأيك ؟ » ثم أخذ قلماً ورسم بطريقة مكبرة مستطيلاً طويلاً فى أعلى الراهية . فأدنى هذا قلب الكابتن : إذ أسف على تشويه هذا التصميم الذى رسمه بفاية العناية والدقة والنظافة ؛ ومع هذا فقد كتم انفعاله ، بعد أن عبر عن سخطه بلطف . وقال : « إن أوتيلى على حق . أولاً نقوم برحلة طويلة لتناول القهوة ، أو أكل سمكة لا نجدها بمثل هذه الشهية فى منزلنا ؟ إن الإنسان لينشد التنويع والجدة فى الأشياء . ولقد أصاب أجدادك حينما شيدوا القصر هنا ، لأنه فى مأمن من الرياح ، وفى متناوله كلُّ الأشياء الضرورية للحياة ؛ ولكن البناء الذى يعدُّ للحفلات والنزهات أولى منه للسكنى يمكن أن يقام خير إقامة فى هذا المكان العالى ، ويستطيع المرء أن يقضى فيه أجمل الساعات إبان الطقس البديع » .

وكلما تحدثوا فى هذا المشروع ، ازداد ظهور منافعه . ولم يقو إدورد على كتمان إعجابه بأن تكون صاحبة هذه الفكرة هى أوتيلى ، حتى إنه زُمى بها وكأنها فكرته الخاصة .

الفصل التاسع

وفي اليوم التالي ، زار الكابتن المكان منذ الصباح الباكر وبدأ بأن
خط تخطيطاً خفيفاً . ولما قرعهم جميعاً على تنفيذ ما رأوه وهم يشاهدون
المكان عينه . رسم تصميماً دقيقاً ، مصحوباً بالتقديرات اللازمة ، ولم ينقص
شيء من أجل الإعدادات الضرورية . وسرعان ما تناولوا مسألة بيع الضيعة .
وهكذا وجد الصديقان ميداناً للنشاط جديداً .

ونبه الكابتن إدورد إلى أن الأدب ، بل الواجب يقضى بالاحتفال
بعيد ميلاد شرلوت عن طريق وضع الحجر التأسيسي . ولم يكن من العسير
تحويل إدورد عن كراهيته القديعة لمثل هذه الأعياد ، لأنه اقترح فجأةً
الاحتفال بعيد ميلاد أوتيلي — وموعده يأتي بعد — بطريقة جليلة
لا تقل روعة .

أما شرلوت ، وقد تبدت لها المنشآت الجديدة ونتائجها خطيرة ، جدية ،
بل ومثيرة للخاوف والقلق ، فقد شغلت بمراجعة التصميمات وحساب
الوقت وتقدير النفقات ؛ وقل اللقاء أثناء النهار ، وازداد الحرص على اللقاء
في المساء .

وفي هذه الأثناء كانت أوتيلي قد وضعت بين يديها كل شئون المنزل ؛
وهل كان ينتظر غير هذا ، مع مسلكتها هذا الهادئ الرزين ؟ لقد دفعت
بها طبيعتها إلى المشاغل المنزلية ، أولى منها إلى المسائل الدينية العامة والحياة
الخارجية . وسرعان ما لاحظ إدورد أنها لم تكن تصاحبهم في النزهة إلا
من باب المجاملة وحدها ، وأنها لم تكن تطيل معهم السهر في الهواء الطلق
إلا أداء لواجبها نحو هذه الجماعة ؛ وأنها كانت أحياناً تعتذر بشئون المنزل ،

كما تعود إليه . لهذا نظم الزُّهُمات المشتركة على نحو يجعلهم يعودون إلى القصر قبل مغيب الشمس . كما أنه استأنف عادته التي انقطع عنها منذ زمان طويل ، وهي أن يقرأ لأصدقائه قصائد من الشعر ، خصوصاً تلك التي تعبر عن حب طاهر ، ولكنه مشبوب .

وصار من عادتهم أن يختلفوا في المساء إلى منضدة صغيرة يأخذ كل منهم مكانه حولها بانتظام : فكانت شرلوت تجلس على الأريكة ، وقُبالتها أوتيلي جالسة على كرسي ذى مساند ، بينما يأخذ الرجلان مكانهما في الجانبين الآخرين ، فكان إدورد يجلس وعن يمينه أوتيلي ، وإذا بدأ القراءة كان يضع النور إلى ناحيتها . وحينئذ كانت تتقدم للنظر في الكتاب ، لأنها هي الأخرى تثق في عيونها أكثر من ثقها في شفاه الآخرين . وكان البارون من ناحيته يتقدم إليها كما ييسر لها هذا الأمر . وفي أحيان كثيرة كان يقف وقفات أطول مما يجب ، كيلا يقلب الصفحة قبل أن تكون قد وصلت إلى نهايتها .

ولحظت شرلوت والكابتن هذه المسألة بوضوح ، وكانا أحياناً يتبادلان النظرات باسمين ؛ ولكنهما دهشا من شاهد آخر تبين فيه عرَضا ميل أوتيلي الخفي . فقد حدث ذات يوم أن أضاعت زيارة ثقيلة جزءاً من المساء على هذه الجماعة الصغيرة ، فاقترح إدورد على أصدقائه أن يظل ساعدهم قائماً . إذ شعر بميل إلى استئفاف العزف على نايه ، الذي هجره منذ زمن طويل . فبحثت شرلوت عن السوناتات التي اعتادت وزوجها أن يعزفاها سوياً ؛ غير أنها لم تجدها ؛ وبعد قليل من التردد ، اعترفت أوتيلي بأنها حملتها إلى مخدعها . - إذن تستطيعين وتودين أن تصاحبينى في العزف ؟ هكذا قال

إدورد ، وفي عينيه وميض السرور .

فأجابت : أحسب أن هذا ممكن .

وراحت تبحث عن الموسيقى وجلست إلى ذات المفاتيح (الكلافسان)؛ وأرعى السامعون أسماعهم وأعجبوا ببراعة أوتيل في دراسة القطع الموسيقية ، وازدادوا إعجاباً بمهارتها في مصاحبة إدورد في العزف : ولا يكفي أن نقول « المهارة في المصاحبة » ، فهذا ليس التعبير الدقيق ، لأنه إذا كان مفهوماً من شرلوت ، بما لها من براعة ومحاولة للإرضاء ، أن تقف هنا ، وتسرع هناك ، حرصاً على إرضاء زوجها الذى كان يُسْطىء في الميزان (الموسيقى) حيناً ، ويسرع حيناً آخر — فإن أوتيل ، التى استمعت أحياناً إلى عزف السوناتات ، بدت كأنها تعلمتها على النحو الذى يصاحبها به إدورد ؛ حتى لقد بلغ من معرفتها بعيوبه أنه نشأ عن هذا نوع من العزف ملىء بالحياة ، لم يكن يسير حقاً وفقاً لقواعد الميزان الموسيقى ، ولكنه كان يحدث في الأذن وقماً عذاباً جذاباً ، ويلد الملحن نفسه أن يسمع مؤلفه مشوهاً على هذا النحو البديع .

أما شرلوت والكاتب فقد شاهدا في صمت هذا المنظر الغريب ، غير المتوقع ، يخالجهما شعور كشعور الإنسان حيناً يرى الأطفال يعملون أشياء لا يقرم عليها ، نظراً لنتائجها المثيرة للذعر ، ولكنه لا يستطيع مع هذا أن يلومهم عليها ، بل يحدث أحياناً أن يحسدهم عليها . فالواقع أن الميل المتبادل فيما بين شرلوت والكاتب كان هو الآخر يسير قُدمًا ، بل لعله أن يكون على نحو أدعى إلى الخطر ، لأنهما كانا أكثر جدًّا وأشد ثقة بأنفسهما ، وأقدر على كتمان عواطفهما .

وها هو ذا الكاتب قد بدأ يشعر بأن عادة لا يستطيع مقاومتها تهدده بأن سيكون أسيراً لشرلوت . فعزم على أن يتجنب الأوقات التى اعتادت فيها

أن تزور المزروعات ، فكان يستيقظ في الصباح الباكر ، ويمطى الأوامر خاصةً بكل شيء ، ثم يعود إلى العمل في مسكنه بالجناح الأيمن . وخیّل إلى البارونة في الأيام الأولى أن هذا من قبيل المصادفة ، فكانت تبحث عنه في كل مظان وجوده ؛ وأخيراً فهمت السر في المسألة ، وقدرت موقفه كما قدرته خير تقدير .

لكن حرصه على تجنب الخلوة مع شرلوت لم يمنعه من زيادة الاهتمام والإسراع بإنجاز المعدات اللازمة للعید الرائع الذى سيحتفل بميلادها ، وقد قرب موعده . ففي نفس الوقت الذى عَجَّل فيه ببناء الطريق الممتد خلف القرية صاعداً ، كان يأمر بالعمل نازلاً ، بحجة استغلال الحجر ؛ وهياً كل شيء وقدره بحيث يتم وصل جزئى الطريق فى آخر ليلة . وكان حفر الأساس للمنزل الجديد لا يزال فى مستهلّه ، إنما نحتوا حجراً أساسياً جميلاً ؛ وحفروا مربّعة وهياؤا البلاط الذى سيفطيه .

ولم يكن من شأن هذا النشاط الخارجى ، وهذه النوايا الطيبة المستسرة ، وهذه العواطف الحبيسة ، لم يكن من شأن هذا كله أن يجعل الحديث شائعاً حاراً حينما يلتئم عقد الجماعة ، إلى درجة أن إدورد ، وقد شعر ذات مساء بشيء من الفراغ ، أوزعَ الكابتن بتناول كئانه ومصاحبة شرلوت على البيان ذى المفاتيح . فلم يقو صديقهما على مقاومة هذه الرغبة العامة ، فعزفاً سوياً — فى عاطفة وسهولة وحرية — قطعة من أصعب القطع ، سُرا بها هما والاتنان المستمعان إليهما أيتما سرور . فتواعدوا على العود إلى العزف صراراً وعلى زيادة المران سوياً .

وهنا قال إدورد لأوتيلى : « لئنهما يعزفان خيراً منا ، فلنعجب بهما ، لكن لنعرف أيضاً كيف نجد اللذة سوياً » .

الفصل التاسع

وإلى يوم الميلاد ، وكل شيء على أتم استعداد : أولاً السور المتاخم لطريق القرية الرافع له ، على طول النهر ، ثم الطريق المار بجوار الكنيسة الذى يسار جنباً المسلك الذى رسمته شرلوت ، ويتعرج على سفح الصخور ، تاركاً — أولاً عن يسار — كوخ الطحلب من فوقه ، ثم — بعد دورة — يتركه مرة أخرى عن يسار ، لكن من تحته ، إلى أن يبلغ أخيراً قمة الراية على درجات .

فاحتفل حشد كبير ، ما لبث أن ذهب إلى الكنيسة ، حيث كان جميع القرويين مجتمعين بملابس العيد . وبعد الحفل الدينى ، خرج الأطفال والشبان والرجال أول من خرج ، وفقاً للنظام الموضوع ؛ وتلاهم سادة القصر ومعهم أصدقاؤهم وحاشيتهم ؛ وبقى على أثرهم الفتيات والأخوات الكبريات فالسيدات فكُنَّ خاتمة الموكب .

وفى منعطف الطريق هُتِيَ مكان مُشرف على الصخرة ، دعا الكابتن إليه البارونة والضيوف كيما ينالوا قسطهم من الراحة . ومن هنا كانوا يستشرفون إلى كل الطريق ، ويرون الرجال واصلين إلى أعلى ، والنساء قادمات فى إثرهم ، وها هن الآن يمررن أمام الجماعة . وكان الجورائماً ، والمنظر فاتناً خلاباً . فتأثرت شرلوت وملسكتها الدهشة ، فضغطت برفق على يد الكابتن وحنان . وتبعوا الجماعة وهى تتقدم برفق مكوّنة دائرة حول مكان المنزل المقبل . ودُمى المالك وأسرته والممتازون من الضيوف إلى النزول حتى المحفور ، حيث تهيأ الحجر الأساسى ، وقد أُسند من جانب ، للوضع . وقام البناء مرتدياً ثوب العيد وممسكاً بالمالج بيده والمطرقة بأخرى ،

والتي خطاباً بالشعر بديعاً ، لا نستطيع أن نورده نثراً إلا بطريقة ناقصة .
 قال : « هناك ثلاثة أشياء تراعى في كل بناء : أن يكون جيد الموضع ،
 جيد الأساس ، جيد الصنع . والأول من شأن المالك : فكما أن الأمير
 والرعية هم المسؤولون عن تعيين السكان الذي سيبنى فيه في المدينة ، فإن من
 حق المالك في الريف أن يقول : هنا سيقام مسكني ، لا في أى مكان آخر » .
 فلم يستطع ادورد وأوتيلي أن يتبادلا النظرات لدى سماعهم هذه
 الكلمات ، على الرغم من أنهما كانا قريبين والواحد في مواجهة الآخر .

« والمسألة الثالثة ، أى إنجاز البناء ، هي مهمة كثير من الصنائع بل قليل
 منها فقط هو الذي لا يساهم فيها . أما المسألة الثانية ، وهي التأسيس ،
 فهي من اختصاص البنا ، وفي وسعى أن أقول بكل جرأة وصراحة إنها
 أهم شيء في العملية كلها . إنها مهمة جدية خطيرة ، وإن دعوتنا أيضاً
 خطيرة : لأن هذا الاحتفال يقام في الأعماق . فهنا وفي داخل هذا المحفور ،
 أنتم تشرفوننا بحضوركم شهوداً على عملنا المستمر . وها نحن أولاء سنضع
 هذا الحجر الجيد النحت ، وعمّا قليل لن يكون في الوسع النفوذ إلى هذه
 الحفرة التي تلمع فيها الآن شخصيات محترمة رائعة : لأنها ستكون قد مُلئت .

« وهذا الحجر الأساسى الذي يشير بزوايته إلى الزاوية اليمنى من
 البناء ؛ وبقطعه المنتظم يشير إلى انتظامه ، وبأوجهه العمودية والأفقية إلى
 عموديته ومستوى جميع جدرانه ، وكل حواجزه — هذا الحجر نستطيع أن
 نرقده ببساطة كما هو ، لأن ثقله كفيل بتثبيتته ؛ لكننا هنا أيضاً في
 حاجة إلى الجبر والملاط : فكما أن الناس ذوى الميل المتبادل بالطبيعة يصيرون
 أعظم اتحاداً حينما يربطهم القانون ، فإن الأحجار التي تلاؤم أشكالها تزداد
 تماسكاً بفضل هذه القوى الرابطة ؛ ونظراً إلى أنه من غير اللائق أن يكون

المرء متمطلا وسط العاملين ، فإنكم لن تجدوا غضاضة في العمل هنا وإيانا .
وما تفوه بهذه الكلمات حتى قدم ماله إلى شرلوت ، فوضعت جيرا
تحت الحجر . ودعى الكثيرون إلى عمل المثل ، وسرعان ما أُرقد الحجر ؛
ثم قُدم المدقُّ إلى شرلوت وإلى بقية الحاضرين ، ليدشّنوا علنا ، وهم
يقرعون ثلاث ضربات ، اتحاد الحجر بالأرض .

وتابع الخطيب حديثه فقال : « إن عمل البناء الذي يُعمل الآن في
وضح النهار ، إنما يتم من أجل السر ، إن لم يكن في السر . فالأساس المنتظمة
البناء تُدفن في الأعماق ، ولا يرى الناس الجدران التي تقام فوق الأرض
حتى ينتهي بهم الأمر إلى نسياننا نحن . أما أعمال نحّاتي الأحجار والنحات
الفني فأكثر استعراء للعيون ؛ بل يجب علينا أن نرضى بأن يزيل الرسام
كل آثار أيدينا ، وينسب إلى نفسه عملنا بواسطة حصه وطلائه وألوانه .
« فمن أجدر من البناء بالحرص على إجادة عمله بدافع من نفسه ؟
ومن ذا يفوقه في الظفر بأول حادثة له في مرصاة ضميره ؟ فحينما يكتمل
المنزل ، ويوضع البلاط وخشب التجليد ، ويوشى الخارج بالنقوش
والزينات — تنفذ عينه إلى ما وراء هذه الأغلفة كلها ، متبينة هذه الروابط
المنتظمة المحكمة التركيب ، التي يدين لها البناء كله بوجوده وصلابته .

« لكن ، كما أن من يقترف إثمًا لا بد أن يخاف عليه أن يظهر ، رغم
ما يبذل من محاولات ، — كذلك من يفعل الخير سرا يجب أن يتوقع إفشائه
رغم إرادته . لهذا فنحن نريد أن يكون هذا الحجر الأساسى حجرا أثريا ،
فيوضع في هذه الفرض وهذه التجايف كثير من الأشياء ، كشواهد
قائمة أمام الأجيال القادمة . فهذه الأسطوانات المعدنية الملتحمة تحتوى
مختلف الكتابات ؛ وعلى هذه الصفائح المعدنية نقش أعمال باهرة ؛ وفي هذه

القوارير الزجاجية سندفن نمر معتقة ممتازة ، مع بيان عمرها ؛ بل لا يعوزنا حتى النقود التي ضربت في هذا العام . وكل هذا إنما ندين به لسخاء المالك ؛ غير أنه لا يزال ثمت مكان لمن يشاء من الأصدقاء أو الحاضرين أن يُنفذ شيئاً إلى مُقبل الأجيال .

وبعد لحظة من الصمت قصيرة ، نفّض البنّاء المكان بعينيهِ ونظر حواليه : لكن أحداً لم يكن مستعداً ، كما يحدث عادة في مثل هذه الأحوال ؛ فقد رَبيكَ كلُّ في أمره ؛ وأخيراً قام ضابط شاب مَرَح خطيباً فقال :
« إذا كان من واجبي أن أقدم نصيبي فأضع في هذا الكنز شيئاً لا يوجد فيه ، فهأنذا سأقتص من زبي الرسمي زوجاً من الأزرار ، يستحق أيضاً أن يُنفذ إلى الأجيال المقبلة » .

وما تفوه بهذه العبارة حتى اقتلعهما ، واحتذى حذوه الكثيرون . فأسرع النسوة بوضع الأمشاط الصغيرة التي تمسك شعورهن ، وقناني العطر وبعض أدوات الزينة . وأوتيلي وحدها هي التي ترددت : ولكن كلمة ودية من إدورد انتزعتهما من تأمل جميع القرائن التي تنافسوا في تقديمها ، خلعت من رقبتها السلسلة الذهبية التي كانت تحمل صورة أبيها ، ووضعتها بخفة فوق بقية الحلّى . هنالك أمر إدورد ، في شيء من اللهفة ، بوضع الغطاء محكماً وإلحامه بالمِلاط في الحال .

ثم استأنف الشاب الذي أظهر في هذه العملية أوفر النشاط موقعه الخطابي وتابع قائلاً :

« هانحن أولاً نضع هذا الحجر للأبد ، كما نمكّن لأصحاب هذا المنزل الحاليين والمقبلين في أطول لذة وسعادة . لكن في الوقت الذي تدفن فيه أيدينا نوعاً من الكنز ، نحن نفكر ، بمناسبة هذا العمل المنقطع النظير في

متانته ورسوخه ، فى زوال الأمور الإنسانية وفنائها ؛ فنؤمن بأن هذا الفطاء المحكم الوضع ربما يرفع يوماً ما — وهو أمر لا يمكن أن يتحقق إلا بعد تهدم البناء كله ، هذا البناء الذى لم نشيِّده بعد .

« لكن يجب علينا من أجل بنائه أن نتجنب التفكير فى المستقبل ، ولننعمد إلى الحاضر ! فعلينا ، بعد انقضاء عيد هذا اليوم ، أن نسرع فى إتمام عملنا هذا ، كيلا تضطر أية صناعة تعمل فى الأساس الذى أقتناه إلى التوقف ؛ وليرتفع البناء عالياً ولينته سريعاً ؛ وفى استطاعة صاحبه وأسرته وضيوفه أن يتأملوا من خلال نوافذه الإقليم المحيط بمحور وسرور . وعلى صحتهم وصحة جميع الحاضرين أشرب هذا الكأس الدهاق ! »

وما نطق بهذه الكلمات حتى أفرغ بشرية واحدة كأساً من الزجاج جميلة الصقل ، وقذف بها فى الهواء : إذ من علامات السرور المفرط كسر الزجاج الذى استخدم فى الحفل . لكن حدث فى هذه المرة عكس هذا : فإن الكأس لم يسقط على الأرض ، ولم يكن هذا أمراً خارقاً أو معجزة .

ذلك إن التمجيل بالبناء قد اقتضى إتمام الأساس فى الزاوية المقابلة ؛ بل بدأوا فعلاً فى رفع الجدران ، وإقامة الصقالات إلى العلو المطلوب . ثم وضعت فوقها الألواح ، بمناسبة هذا الاحتفال ، وسمح لكثير من المشاهدين أن يصعدوا عليها ، وكان هذا لصالح الفعلة . وإلى هذه الناحية قُذِف الكأس ، فتلقاه أحد الحاضرين ، الذى رأى فى هذا الحادث فألاً حسناً لنفسه . فأطلع من حوله على الكأس ، دون أن يخرج من يده ، فلاحظوا أن قد نقش عليه الحرفان E و O^(١) متعانقين بأناقة . وقد كان هذا

(١) الأول هو الحرف الأول من اسم إدورد ، والثانى هو الحرف الأول من اسم أوتيل .

الكأس أحد الكؤوس التي عملت لإدورد في شبابه .

ثم جلا الجمع عن الصقالات ، وتلاهم أنشط الحاضرين فصعدوها
كيا يتملوا بما تبديه من مناظر . وكم راعهم جمال ما تراءى أمامهم في
كل ناحية ! فكم من صور فاتنة تجتليها العيون من مرتبة شاهقة ، حينما
تصعد على أقل مصعاد ! ففي داخل الإقليم ، تبدى كثير من القرى الجديدة ؛
وتلايلات بوضوح أخاديد النهر الفضية ؛ بل ادعى أحدهم أنه استطاع أن
يميز نواقيس العاصمة . وإذا رجع المرء ببصره كرة ، رأى من بعيد خلف
الروابي ذات الغابات ، القمم الزرقاء لسلسلة من الجبال ، واستنفض كل
المناطق المجاورة .

وهنال قال أحد الحاضرين : « لم يبق إلا أن تضم الغدران الثلاثة في
بحيرة واحدة ، هنالك لن يعوز هذا المنظر شيء من جمال أو جلال » .

فأجاب الكابتن : « هذا عمل ميسور ، لأن هذه الغدران نفسها
كانت تكون من قبل بحيرة في الجبل » .

فقال إدورد : « كل ما أطلبه هو أن تُعفوا أشجار الدُّلب والخور
ذات المنظر الرائع على شاطئ الغدير الأوسط : تأملى — هكذا قال موجِّهاً
الخطاب إلى أوتيلى بعد أن دعاها إلى التقدم نحوه خطوات : تلك الأشجار
هناك أنا نفسى الذى غرستها بيدي » .

فسألته أوتيلى : « منذ كم من السنين غرستها هناك ؟ »

فأجاب إدورد : « منذ أن أتيت إلى الدنيا ، فيما أظن . أجل ، أى طفلى
العزيرة ، لقد غرستها وأنت لا تزالين فى المهد . »

ثم عادت الجماعة إلى القصر . وبعد الغذاء دعيت إلى نزهة في القرية ،
لزيارة المؤسسات الجديدة التى أقيمت هناك . وبدعوة من الكابتن ، احتشد

السكان أمام بيوتهم ، لا على هيئة صفوف لكن على هيئة أسر ، بعضها عا كف على أعمال المساء ، والآخر يستريح على مقاعد جديدة . وهي قد فرض عليها هذا الواجب الجميل ، واجب تجديد هذا النظام البديع وتلك الأناقة ، على الأقل كل يوم أحد وكل عيد .

ومن شأن الائتناس المذب الذى من نوع ما نشأ بين أصدقائنا هؤلاء ، أن تقطع عليه مجراه الجماعة الحافلة ، فيتولد إحساس بالضيق . لهذا شعروا بسرور فياض حينما اختلوا من جديد هم الأربعة فى البهو الكبير . لكن هذا الشعور المهادىء عكرت صفوه رسالة جاءت تعلن لإدورد حضور ضيوف جديدين فى الغد . فقال لشرلوت : لقد توقعنا هذا ؛ فإن الكونت لم يشأ الانتظار ، لهذا سيأتى غداً .

فقلت شرلوت : « إذن البارونة ليست بعيدة » .

— كلا ، من غير شك : فهى الأخرى ستحضر غداً . وقد استضافونا

لمدة ليلة ، واقترحوا الرحيل سوياً بعد غد .

— أوتيل ، هكذا قالت شرلوت ، لنعجل بإعداد اللازم .

— فسألها أوتيل : بماذا تأمرين ؟

وبعد أن تلقت منها بعض الإشارات العامة ، ابتعدت . وهنا طلب

الكاتب بعض الإيضاحات ، عن العلاقات بين هذين الشخصين لأنه لم تكن لديه عنها إلا فكرة غامضة . فكلاهما كان متزوجاً ، ومع هذا فقد اشتعل كل منهما غراماً بالآخر ، غراماً متبادلاً اضطرب له علناً بيتا الزوجية . ففكر كلاهما فى الطلاق . لكن كان هذا ممكناً بالنسبة إلى البارونة ، ولم يكن بالنسبة إلى الكونت . وعلى الرغم من قطع علاقتهما فى الظاهر ، فقد بقيت الألفة بينهما ؛ وإذا كانا فى الشتاء لا يستطيعان الظهور معاً فى

البلاط ، فقد كانا يجدان العوض عن هذا في الصيف في الرحلات والمياه .
 وكانا كلاهما أكبر سنًا من إدورد وشرلوت ؛ ولكنهم كانوا جميعاً الأربعة
 أصدقاء خُصَّصاء منذ التقائهم في البلاط ، واستمرت هذه العلاقات الطيبة ،
 على الرغم من أن كلا منهما لم يرض عن كل أحوال الآخر . أما هذه المرة
 فقد كان وصولهما ثقيلًا على قلب شرلوت ، ولو حاولت هي أن تفهم السر
 في هذا لأدركت أن هذا بسبب وجود ابنة أختها لديها . فهذه الطفلة
 الطيبة البريئة يجب أن لا ترى في سنّها المبكرة هذا الشل بعيونها .

« كانا يُحسنان صنعاً لو حضروا بعد يومين أو ثلاثة ، هكذا قال إدورد ،
 في الوقت الذي عاد فيه إلى البهو ، بعد أن نكون قد انتهينا من بيع
 الأرض المُستأجرة . فصورة العقْد قد حُضِّرت ، ومعنى نسخة منها ، غير
 أنى في حاجة إلى نسخة ثانية وكاتبى المعجوز مريض الآن » .

فأظهر الكابتن استعدادَه للقيام بهذا العمل ؛ وكذلك شرلوت . لكن
 ثمت ما يحول دون تكليفها القيام به .

قالت شرلوت : لن تقوى على إنجازَه .

فقال إدورد : الحق أنى في حاجة إلى هذه النسخة بعد غد صباحاً ،
 والعمل كثير متراكم .

وهنا قالت أوتيلي : « ستمّ » ، وكانت الورقة في يدها فعلاً .

وفى اليوم التالى كانوا يتطلعون من الطابق العلوى عسى أن يكون
 ضيفهم قد وصلا ، لأنهم لم يشاءوا التخلف عن الذهاب إلى نُقْيَاهم ، فقال
 إدورد : « من هذا الفارس الذى أبصره قادماً ببطء على الطريق ؟ »
 فوصف الكابتن وجهه بطريقة أدق . فتابع إدورد حديثه قائلاً : « إنه
 هو إذاً ! لأن التفاصيل التى تميزها أنت خيراً منى ، تتفق تماماً مع المظهر

العام الذى أراه بوضوح الآن . إنه متلر . لكن لماذا يسير راكبا جواده ببطء هكذا ؟ »

وتقدم الفارس ، وقد كان متلر حقاً . فتقدموا لاستقباله بحرارة ، وهو يصعد درجات السلم بخطى هادئة .

« لماذا لم تحضر بالأمس ؟ هكذا قال له إدورد

— فأجاب : لا تروقى الأعياد الصاخبة ؛ ولكنى أتيت اليوم لى احتفل بعيد ميلاد صديقتى ، احتفل به بعد انقضائه وبلا ضواء .

— وكيف يتيسر لك كل هذا الفراغ ؟ هكذا قال البارون .

— إذا كانت لزيارتى إياكم قيمة ما ، فأنتم تدينون بها لخطاير طراً على بالأمس . فقد أمضيت نصف النهار متمتعاً من أعماق فؤادى فى منزل أعدت فيه السلام ، ثم علمنا من بعد أن القوم يحتفلون هنا بعيد ميلاد البارونة . فقلت لنفسى : « قد تُتهمين بالأثرة ، إذا لم تشأى التمتع إلى جانب هؤلاء الذين دعوتهم إلى السلام والصلاح . فلماذا لا تشاركين أيضاً فى سرور الأصدقاء الذين ينعمون فعلاً بالسلام ويسهرون على حفظه ؟ » وما قلت حتى فعلت . وهأنذا بينكم كما قررت .

فقالت شرلوت : « لو أتيت بالأمس لرأيت جمعاً حافلاً ؛ أما اليوم فلن ترى إلا جماعة صغيرة : سترى الكونت والبارونة اللذين شغلاك من قبل كثيراً .

فوثب متلر فجأة ، غاضباً ، من بين مضيفيه الذين أحاطوا بهذا الرجل الغريب ، المطلوب فى كل مكان . وعدا ليأخذ قبعته وسوطه .

« أبطاردنى سوء الطالع إذاً فى كل مرة أحاول فيها أن أستريح وأرفه عن نفسى ؟ لكن لماذا أخرج عن طبيعى ؟ كان على ألا أحضر ، والآن

لا بد من مغادرة هذا المكان ، لأننى لا أريد أن أسكن تحت نفس السقف الذى يقيم تحته هذان وأنتم بدوركم خذوا حذرکم : فهما لا يجلبان معهما إلا الشر . إذ طبيعتهما كالحميرة التى تنقل الاختمار .
وحاولوا تسكين نائرتيه ؛ لكن عبثاً .

ثم صاح : « إن هذا الذى أراه يهاجم الزواج ، ويزعزع ، بأقواله أوفعاله ، هذا الأساس الثابت لكل جماعة معنوية ، لى معه حساب . وإذا لم أستطع أن أردّه إلى الصواب ، فلن أقبل مشاركته فى شيء . الزواج هو مبدأ كل حضارة وتاجها الذى زينها . إنه يرقق حاشية الإنسان المتوحش ، والمتحضر لا يجد خيراً منه وسيلة لإظهار تهذبه . ولا بد للزواج أن يكون ثابتاً لا تقبل عقده أى حل ، لأنه يحقق من السعادة قدراً يتضاءل إلى جواره كل شقاء ، فيرجحه . بل أين هو هذا الشقاء ؟ إنه الضجر هو الذى يستولى على الإنسان حيناً بعد حين ، فيلذّ له حينئذ أن يرى نفسه شقياً . فليدع المرء هذه اللحظة تمر ، وسيرى نفسه سعيداً لأن ما استمر طويلاً لا يزال مستمراً . الافتراق بالطلاق ؟ ليس لهذا مطلقاً علة كافية . إن حال الإنسان فى الدنيا مليئة بالآلام والملاذات إلى درجة أنه ليس فى الوسع مطلقاً تقدير ما يدين به كل من الزوجين للآخر . أجل ، إنه دين لانهاية لمقداره ، ولا يمكن سداذه إلا بالأبدية . نعم ، قد يكون الزواج أحياناً مصدراً لشيء من الضيق والتعب ، هذا شيء أو من به ، ويجب أن يكون . أو لسنأ أيضاً مقترنين بضميرنا ، الذى نريد مراراً التخلص منه ، لأنه أكثر مضايقة من أى زوج أو قرينة ؟ »

على هذا النحو أطلال عنان القول بحماسة وحماسة ، وكان ممكناً أن يستمر طويلاً ، لولا أن السائقين نفخوا فى البوق معلنين وصول الكونت

والبارونة اللذين دخلا سويا ، وكأنهما على ميعاد ، فناء القصر من البايين المتقابلين . وبينما تقدم سكان هذا المنزل لاستقبالهما ، اختفى مِتلر ، وطلب اقتياد جواده إلى النزل ، ومن هناك ارتحل وهو يتزغم .

الفصل العاشر

بسطوا للضيوف وجوههم وأقبلوا يلتمسون منهم دخول القصر . وكم كان سرور هؤلاء وهم يرون القصر من جديد بأبهائه الفخمة التي أمضوا فيها من قبل أياماً عاطرة بأجل الذكريات ؛ ثم لم يزورها منذ ذلك الحين . وأصدقاؤنا هم الآخرون قد وجدوا بمقدمهم برد السرو . فقد كان الكونت والبارونة من هذا النوع من الوجوه النبيلة الجميلة التي يزداد تأثيرها في استواء السن أكثر منه في مُقتبَل الشباب ؛ ولئن كانا قد فقدتا شيئاً من رونقهم الأول ، فهما يثيران خالص الثقة في النفس بما طبعها عليه من إحسان واجتماع لخلال الخير . وكلاهما كان سهل الشريعة رقيق الحاشية إلى أبعد الحدود ، يأخذ أمور الحياة بالياسرة والترخُّص ، ويعلق كُلُّ شيء بغبطة وبساطة ظاهرة ، تشيع منه إلى من يتصل به من الناس ؛ ويسود كل حركة من حركاته حياء جَسْم لا يستشف من ورائه أدنى تكلف ولا صناعة .

وسرعان ما سرى إلى الجماعة هذا التأثير . فبعد أن تجلت المفارقة لأول وهلة بين الضيوف الجُدُد القادمين مباشرة من المحافل العالية ، — كما يتبين من هندامهم وحاشيتهم — وبين أصدقاؤنا بما هم فيه من مراكز هادىء وجو مشبوب العاطفة المكتومة — اختفت وشيكا ، بفضل اختلاط الذكريات

القديمة مع العواطف الحاضرة ، فأخذوا سريعاً بأطراف الأحاديث بينهم .
لكنها لم تدم طويلاً ، إذ انفض جمعهم فأوى النسوة إلى جناحهن ،
حيث وجدن من الموضوعات ما يكفي مادة لحديثهن : من أسرار استرخس
بمكنونها ، وأزياء استعرضن أشكالها وقودودها ، وطُرُز جديدة للفساتين
وقُبَعات الصيف . بينما شغل الرجال بالحديث عن العربات الجديدة ،
والخيول ، التي أحضروها أمامهم ، فكانت مجالاً للبيع والقباض .

ثم لم يلتئم الجمع من جديد إلا في الغداء . فاستبدلوا هندامهم ، وهنا
تجلى روعة الضيوف : فقد كانت ثيابها جديدة كلها ، بل وغير مألوفاً ،
ولكن العادة وضعت فيها شيئاً من الخفة والألفة .

وجرى الحديث حاراً مختلف الألوان : إذ يبدو كل شيء شائعاً في مثل
هذه الجماعة ؛ وكان بالفرنسية حتى لا يفهمه الخدم ؛ وتراى بهم الكلام إلى
ذكر النبالة والبورجوازية ، تحدوهم إليه لذة ماكرة . ولم يستوقفهم خلال
الحديث ، أكثر مما يجب ، إلا نقطة واحدة : فقد سألت شرلوت عن أخبار
إحدى صديقات الطفولة ، فعلمت ، في شيء من الدهشة ، أنها على وشك
الطلاق ، فقالت :

لشد ما يؤلم النفس أن تعلم في اللحظة التي نعتقد فيها أن أصدقاءها
الغائبين قد استقرت بهم الحال أبداً ، أو أن رفيقة عزيزة تقيم تحت رواق
النعم — أقول أن تعلم فجأة أن مصير مثل هذه الصديقة مزرع قلق ،
وأنها بسبيل أن تسلك مسالك جديدة لعلها تكون أيضاً خطيرة .

فأجاب الكونت : « أي بارونتي العزيزة ! الوزرُ وزرنا إذ دُهِشنا
على هذا النحو . إذ يلد لنا أن نتخيل الشؤون الإنسانية ، وخصوصاً
الزواج ، كأنها ثابتة أبداً ؛ وفيما يتصل بالمسألة الأخيرة ، إنها المسرحيات

الهزلية التي نراها تتكرر كل يوم هي التي تملأ عقولنا بهذه الأفكار الفاسدة ، على خلاف ما تدل عليه حال الدنيا . ففي الملهاة يبدو لنا الزواج كأنه النهاية الأخيرة لنسدر أخرت ميعاده عوائق طوال عدة فصول ؛ ثم في اللحظة التي يلمس فيها المرء الهدف يُسدل الستار ، ويترك هذا الرضى الوقت أثراً مستمرا . أما في الدنيا ، فالحال على غير هذا : يستمر التمثيل وراء الستار ، وإذا رُفع مرة أخرى ، لا يحفل أحد بعد برؤية شيء أو سماع أمر .

فقلت شرلوت : « يجب أن لا يكون الأمر على هذا النحو من السوء ، لأن كثيراً من الذين نزلوا من هذا المسرح يلذلهم أن يعودوا إليه من جديد » . فقال الكونت : « هذا لا اعتراض عليه : إذ يلذل المرء أن يأخذ دوراً جديداً ، وإذا عرف الدنيا وأحوالها رأى أنه في الزواج نفسه هذا الدوام المطلق الخالد ، وسط مثل هذه الحياة المتغيرة ، هو وحده الذى ينطوى على شيء من الإزعاج . ولى صديق ، يتجلى صفاء مزاجه خصوصاً على هيئة مشروعات قوانين جديدة ، يرى أن كل زواج يجب أن يعقد لمدة خمس سنوات فحسب ، قائلاً إن هذا العدد الجميل ، هذا العدد الفردى المقدس ، هذه الفترة من الزمان تكفى للتعارف وإنسال بعض الأطفال ، وللتنازع ، ثم — وهذا أجمل ما فى الأمر — لإصلاح ذات البين من جديد . وكان هذا الصديق كثيراً ما يصيح قائلاً : « ما أسعد مُضَيَّ الفترة الأولى ! سنتان أو ثلاث على الأقل ستمر فى نعيم وسرور ، ثم يبصر أحدهما وجهه الرأى فى أن تستمر هذه العلاقة مدة أطول ؛ ثم يزداد التلطف كلما اقتربا من ميعاد الانفصال ؛ فيصير الزوج غير المكترث ، بل والساخط ، هادئاً راضياً بوساطة مثل هذا المسلك . وكما أن الإنسان ينسى مُضَيَّ الساعات

في الصُّحبة الجميلة ، كذلك ينسى كل منهما أن الزمان يمضي ، وتعتريه الدهشة على أجل نحو حينما يتبين له ، بعد انتهاء المدة ، أنها أطيلت من غير أن يشعرا » .

وعلى الرغم مما كان في هذا الحديث من ظرف وإطافة روح وأن هذه الفكاهة يمكن ، كما أحست شرلوت تماماً ، أن تفسر على أنها تنطوي على مغزى أخلاقي عميق ، فإن هذا الحديث قد أسخطها ، خصوصاً من أجل أوتيلي . فقد عرفت تمام المعرفة أنه لا شيء أخطر من الكلمات الجحرة كل الحرية التي تصور موقفاً ، نصفه أو كله خاطئاً أثير ، على أنه عادى شائع بل وجدير بالإطراء ؛ ولا شك في أن كل ما ينتقص من قدر الزواج يدخل في هذا الباب . لهذا حاولت ، بما عهد فيها من لباقة ، أن تحوّل مجرى الحديث ؛ فلما لم تستطع ، أسيفت عل أن هذه الفتاة الحاذقة في إدارة شئون البيت (أوتيلي) قد أعدت كل شيء على نحو جيد لم تحتج معه إلى النهوض من مكانها وسطهم . فكانت في هدوئها وحسن سهرها تنكتفي بإشارة إلى مدير الخدم كيما يهياً كل شيء على خير وجه ، ومع هذا فقد كانت لديها بعض الخدم الجُدد ، الذين تبتد الحِرَاقَة من تحت هندامهم . وهكذا استمر الكون في حديثه عن الموضوع نفسه دون أن يلاحظ رغبة شرلوت . وهذا الرجل الذي لم يتعود الإيغال في مسألة ، قد شغلته هذه إلى حد كبير ، يضاف إلى هذا أن الصعوبات التي لقيها في محاولة الانفصال عن زوجته قد ملأت نفسه صرارة في كل ما يتصل بالرابطة الزوجية ، إلى حد أنه أراد بكل شعوره أن يعقد على البارونة . فتابع حديثه قائلاً :

« ولقد قدم صديق ذاك مشروع قانون آخر يقضى بأن الزواج يجب

ألا يعد غير قابل للفسخ إلا بالنسبة إلى الأشخاص — أحد الزوجين أو كلاهما — الذين تزوجوا ثلاث مرات : فالزواج بالنسبة إلى هؤلاء لا غنى عنه ؛ إذ يُعرف جيداً في هذه الحالة كيف سلك في زيجاته السابقة ، وهل كان فيه من الشذوذ الذى يؤدي إلى الانفصال أكثر مما يؤدي إلى الصفات المرذولة . لهذا إذاً يجب في هذه الحال على كلا الزوجين أن يستطلع أمر الآخر ، كما يجب أن يُراقب المتزوجون ، كما يراقب غير المتزوجين ، إذ لا يدري الإنسان ما عسى أن تؤول إليه الأمور .

— فقال إدورد : « من شأن هذا أن يزيد ، من غير شك ، في فائدة المجتمع ؛ فالواقع أن الناس لا يحتفلون بعدُ باستطلاع أمر فضائلنا ولا رذائلنا إذا ما تزوجنا » .

— فقالت البارونة باسمه : « في مثل هذا النظام يكون ضيفانا العزيزان قد صرّا فعلاً بالدرجتين الأوليين ويمكنهما أن يتهيا للثالثة » .

فقال الكونت : « لقد سارت الأمور على ما تهوَيْن : فقد لذَّ الموت أن يعمل ما لا يشاء جمع البابا والكرادلة أن يعمله إلا على مضض وكراهية في أغلب الأحوال » .

فقال شرلوت : « لنضع الموقى في سلام » ، وفي لهجتها شيء من الجد . فأجاب الكونت : « لماذا ، إذا كنا نستطيع التحدث عنهم مادحين ؟ لقد كانوا من التواضع بحيث قنعوا بالقليل من السنوات ، في مقابل كل ما خلفوه من خير » .

فقال البارونة وهى تُخَنِّق زَفرة : « واحسرتاه على المرء أن يضطر في مثل هذه الحالة إلى التضحية بأعز سنوات عمره ! »

فأجاب الكونت : « هذا حق ! ولقد كان علينا أن نستيثس ، إذا

كننا لا نرى الآمال كلها في الدنيا إلى خيبة . فالأطفال لا يبلغون ما يُرجى منهم ؛ والشباب قليلا ما يفعلون ، وإذا أخلصوا في وعودهم ، لم تخلص الدنيا لهم .

فقلت شرلوت ، وقد سرها أن يتحول مجرى الحديث : « إيه ! علينا نحن أن نعتاد مبكراً ألا نفعم بالسعادة إلا ناقصة على أجزاء »

— أجل ، هكذا قال الكونت ؛ ولقد كانت لكما معاً أيام سعيدة . فحينما أذكر تلك الأيام التي كنتم فيها ، إدورد وأنت ، خير زوج في البلاط ، لا أرى اليوم أن أحداً يتحدث بعد عن مثل تلك الأرمنة الناعمة والوجوه الرائعة . لقد كانت العيون كلها حينما ترقصان تشخص إليكما ؛ وكم قتما بفزوات ، بينما لم تكن عيون الواحد منكما تنظر إلا إلى عيون الآخر ! فقلت شرلوت : « ما دام كل هذا قد أنهج رونقه ، فلا علينا إن أصفينا إلى هذه الأشياء الجميلة بتواضع » .

فقال الكونت : « كثيراً ما انتنيت على إدورد باللام سرّاً لأنه لم يثابر . فلقد كان أهله سيضطرون في النهاية إلى التسليم ؛ وكسب عشر سنوات شباب ليس بالأمر الهين » .

فقلت البارونة : « يجب أن أتولى الدفاع عنه . فإن شرلوت لم تكن بريئة الساحة من كل خطأ ؛ إذ لم تكن بنجوة من كل دلال ؛ وعلى الرغم من أنها كانت تحب إدورد بحنان ، وأن قلبها قد يختاره زوجاً لها ، فقد كان في وسمى أن أرى أحياناً كيف كانت تعذبه ، إلى حد أنه لم يكن من العسير حمله على عزيمته البائسة في أن يترحل وأن ينتأى كيما يسلوها » . فأوماً إدورد إلى البارونة ، إيماءة شكر لها على تدخلها :

— لكن يجب أن أضيف كلمة ، هكذا تابعت حديثها ، كيما أبرئ

شرلوت من الملام : ذلك أن الرجل الذى كان يسمى حينئذ إلى الزواج منها قد اشتهر منذ زمان طويل بحبه لها ، وحينما عرف على جليته ، وُجد حقاً أخرى بالحلب مما تشاؤون أن تتصوروا .

فقال الكونت ، بشيء من الحرارة : « صديقتى العزيزة ! لنعترف بأنه لم يكن عندك سواء ، ولم يعوزه أن يثير اهتمامك ، وأن شرلوت كانت تخشى منك أكثر من أية امرأة أخرى . وأنا أجد جمالا فى هذه القسمة من قسمات طبيعة المرأة ، وهى أنها تستمر طويلا على تعلقها برجل ، دون أن تضطرب أو تتسلى بأى نوع من أنواع الهجر » .

فقال البارونة : « إن هذه الصفة الجيدة ربما يملكها الرجال أكثر من النساء : أو على الأقل بالنسبة إليك ، يا عزيزى الكونت ، لقد لاحظت جيداً أنه لا أحد أكبر سلطاناً عليك من امرأة شغفت بها حبا من قبل . وقد كان فى وسمى أن أشاهد أنك كنت عند رجاء حبيبة قديمة تبذل من السعى لتحقيقه أكثر مما عساك تفعله بالنسبة إلى حبيبته الحالية » .

فأجاب الكونت : « مثل هذا الملام يمكن قبوله عن طيب خاطر ؛ لكن فيما يتصل بزواج شرلوت الأول ، لا أستطيع احتماله ، لأنه فَصَلَ هذا الزوج الجميل ، هذا الزوج الذى قدر له الاقتران ، لم يعد بحاجة إلى الخوف من فترة السنوات الخمس ، أو إلى الاهتمام والانشغال باقتران ثان وثالث » .

فقال شرلوت : « سنحاول تلافى ما فات » .

فقال الكونت : « تحسنين صنعاً لو عنيت به . إن زواجكم الأول — هكذا تابع حديثه بشيء من الحرارة — كان من نوع ردىء ؛ ومما يؤسف له أن الزواج (واغفرى لى هذا التعبير الذى لا يخلو من حِدَّة)

ينطوى على شيء من الخرق : لأنه يفسد أجمل العلاقات ، والسبب الحقيقي لهذا هو الأمان الفج الذى يعتر به أحد الطرفين على الأقل . فكل شيء يسير على أنه مفهوم بنفسه ، ويبدو أن المرء قد تزوج لا لشيء إلا لكي يتابع كُـلَّ طريقه من الآن فصاعداً .

وفى هذه اللحظة لجأت شرلوت ، وقد قرعزمها على إنهاء هذا الحديث ، إلى وسيلة جريئة لتغيير مجراه ، فصار عاماً حتى استطاع الزوجان والكابتن أن يشاركوا فيه ؛ ودعيت أوتيلى نفسها إلى الحضور معهم ، وعند تناول الحلوى كان الكل صافى المزاج ، وأعان على هذا خصوصاً جمال الفاكهة الشهية المعروضة فى سلال أنيقة ، وبهجة الأزهار العديدة الألوان وهى ترفُّ رائعة فى أصص فتانة .

وتناول الحديث التجميليات الجديدة فى البستان ، فلما خفوا عن السائدة ذهبوا لزيارتها . أما أوتيلى فقد انصرفت لشأنها ، بحجة أن لديها مشاغل منزلية ، ولكنها فى الواقع عادت إلى كتابة النسخة المطلوبة . وتحديث الكونت مع الكابتن ؛ وبعد حين شاركتها شرلوت الحديث . فلما بلغوا الأعلى ، وكان الكابتن قد هبط مسرعاً لبحث عن التصميم ، قال الكونت لشرلوت :

— هذا الرجل يملأ نفسه إعجاباً به : فله معلومات واسعة محكمة الترتيب ، ويبدو لى أن له نشاط العمل الجاد المنطقي : فما يعملُه هنا يكون له قيمة كبرى فى مجال أعلى وأوسع .

وأصغت شرلوت إلى الثناء على الكابتن باغتياب مُستَسرٍّ . ومع هذا فقد ملكت زمام نفسها . وبلهجة واضحة ثابتة ، أيدت أقوال الكونت . لكن كم كانت دهشتها ، حينما تابع حديثه بهذه الكلمات :

— لقد عرفت هذا الرجل في الوقت المناسب ، لأنى أعلم مكانا يصلح له تمام الصلاحية . فإن أنا أوصيت به ، استطعت إسداء خدمة لا تصاب لها قيمة إلى صديق عزيز المكانة ، مع توفير السعادة لهذه الرجل .

لقد وقع هذا القول في نفس شرلوت وقوع الصاعقة . غير أن الكونت لم يظن إلى شيء مما كان منها ، لأن المرأة ، وقد تعودت تمالك نفسها باستمرار، تحتفظ دائما ببرباطة الجأش في أشد الأحوال هولا وترويعا . ولكنها لم تعد تسمع الكونت ، حينما أضاف :

— حينما أطوى فؤادى على صريمة حذاء ، أمضى تواءم لإنفادها .
فها هو ذا الخطاب قد ترتب أجزاءه في رأسى ، وبى بحيلة لكتابته .
ففسدك الله إلا هيات رجلا على جواد ، لكى أبعث به هذا المساء .

تمزق قلب شرلوت ، وغلبتها الدهشة من هذه المشروعات ومن عواطفها الخاصة ، فأرتج عليها الكلام . ولحسن الحظ استمر ضيفها في الحديث عن المشروعات التى أعدها من أجل الكابتن ، وهى مشروعات استرعت نظر البارونة بشدة . وكان الوقت قد حان لكى يعود مهندسنا (الكابتن) وينشر صفحة مشروعه أمام الكونت . لكن ، كم اختلفت نظرتها إلى الصديق الذى صارت على وشك فقدانه ! وبعد انحناء خفيفة ، مضت وهبطت سريعا إلى آخر الطحلب . وما بلغت منتصف الطريق حتى تدفقت دموعها بغزارة . وجثمت بين الجدران الضيقة لهذا المأوى الصغير ، واستسلمت بكليتها إلى ألم ووجدان ويأس لم تكن لتعتقد مطلقا إمكان طرأها عليها قبل لحظات قصار .

أما إدورد والبارونة فقد اتخذا سبيلهما إلى الغدران . وسرعان ما تبينت هذه المرأة اللبقة ، التى لدها أن تسأل عن كل شيء ، أن إدورد وهو

يتحدث قد غالى في توشيح أوتيل حُلل الثناء والإطراء ؛ فاستطاعت أن تحركه شيئاً فشيئاً وعلى نحو طبيعى حتى لم يعد لديها شك فى أن تمت وجدانا لا ناشئاً ، بل بالغاً تمام نموه وازدهاره .

ومن شيمة النسوة المتزوجات ، حتى لو لم يكن بينهما حب ، أن يتآمرن معاً فى السر ، خصوصاً ضد الفتيات . لهذا لم تلبث عواقب مثل هذه العاطفة أن تظهر جليلة أمام عقل امرأة فطنة كهاتيك . وفضلاً عن هذا فقد كانت تحدث من قبل مع شرلوت عن أوتيل أثناء الصباح ، واستهجنَت القام فى الريف بالنسبة إلى هذه الفتاة ، نظراً خصوصاً إلى هدوء طبعها ولين مُهتَصِرِها ، واقترحت إيفادها إلى المدينة لتقيم عند صديقة تبذل غالى التضحيات فى سبيل تشيئه ابنتها الوحيدة ، وتفتقد لها رفيقة رقيقة الحاشية خافضة الجناح ، ستعاملها هذه الصديقة كأنها ابنتها ، فتتعم بكل الزايا التى تنعم بها الأخرى . فسألتها شرلوت أن تمهلها حتى تجد فسحة للتفكير . وما نفذت البارونة إلى عواطف إدورد المستسرة حتى زاد يقينها بمشروعها ، وبقدر ما بادرت إلى تنفيذ عزمها بقدر ما تملقت فى الظاهر رغبات مضيئها . لأنه ما من شخص يملك نفسه خيراً من هذه المرأة ، وهذا الضبط للنفس فى الظروف الخارجة عن المألوف تعود من وهبوه على اصطناع المداينة ، حتى فى الأحوال العادية ، وتهيؤهم ، فى الوقت الذى يقسون فيه على أنفسهم كل هذه القسوة ، لبسط سلطانهم على الآخرين ، كما يستعوضوا ، نوعاً ما ، بهذه المزية الخارجية ، عن حرمانهم المستسر فى طوايا نفوسهم .

ويضاف إلى هذه العواطف عادةً نوعٌ من السرور الخبيث الذى يثبته فيهم عمى الآخرين والجهل الذى يندفعون به إلى الوقوع فى الحبال

المنصوبة . ولا يقتصر السرور على التمتع بالنجاح الحاضر ، بل يمتد إلى التمتع بالاضطراب الذى سيصيب الآخرين فى المستقبل . ولقد كانت البارونة من الدهاء والخبت بحيث دعت إدورد وشرلوت إلى قضاء مدة القِطاف للكروم فى مزارعها ، ولما سألها إدورد عما إذا كان من الممكن اصطحاب أوتيل معهما ، أجابت بطريقة يمكنه تأويلها لصالحه .

وها هو ذا يشيد ، نشوان ، بالإقليم الرائع والنهر الكبير والروابي والصخور والأعشاب والقصور العتيقة والمنازة فوق سطح الماء ومسررات قِطاف الكروم والمصرة وما إليها : سعيداً بأن يشارك ، مقدِّماً ، وفى براءة قلبه ، فى الأثر الذى ستحدثه أمثال هذه المناظر فى نفس أوتيل الفتيّة . وفى هذه اللحظة رأوها قادمة ، فأسرعت البارونة تقول لإدورد أن يلتزم الصمت فيما يتصل بمشروع رحلة الخريف هذه ، إذ يحدث عادةً أن تنهار المشروعات التى يغتبط المرء بها طويلاً قبل تحقيقها . فوعدها بإياه إدورد ثم حشته على الإسراع لاستقبال أوتيل ، فأنهى أمره بأن أعذَّ فى السير كيما يلتقى بالفتاة العزيزة ، وسرعان ما انتشر شعاع السرور الحار فى كل كيانه ، فقبَّل يد أوتيل وهو يقدم إليها باقة من الأزهار الريفية التى اقتطفها أثناء النزهة . وما أبصرت البارونة هذا المشهد حتى أحسَّت بالغضب والحنق ، لأنها ، بالرغم من تنديدها بما فى هذا الحب من إثم وخطيئة ، كانت تحسد هذه الفتاة التافهة على ما وهبها الله من سحر وإغراء .

ولما التأم الشمل فى العشاء ، وجدت الجماعةُ نفسها فى جو روحى جديد . فالكونت ، بعد أن كتب رسالته وأرسل الرسول ؛ كان يحادث الكابتن مستريداً معرفة دخيلته بشيء من الاحتياط والزكاة ، فعنى

بإجلاسه إلى جواره . ولهذا فإن البارونة ، وقد جلست عن يمين الكونت ، وجدت من هذه الناحية المجال ضيقاً للحديث ، كما وجدته هكذا أيضاً من ناحية إدورد لأنه بدأ بأن كان صديانَ ثم شرب ولم يبق على التبيذ ، وأخذ بأطراف الأحاديث بحرارة فيأضه بينه وبين أوتيلي التي أجلسها إلى جواره ، بينما شرلوت التي جلست قبالتها إلى جوار الكابتن كانت تجاهد بمشقة — دون جدوى تقريباً — كيما تخفى حركات فؤادها الخفية .

وكان المجال واسعاً أمام البارونة لتجربى مشاهداتها . فلاحظت قلق شرلوت ، ولما كانت لا تعرف إلا صلات إدورد مع أوتيلي ، فقد اقتنعت بسهولة بأن مسلك الزوج هو العملة في إشاعة الحزن والحلم المُفكر في نفس صديقتها . هنالك أفكرت في خير الوسائل لبلوغ هدفها .

وبعد العشاء تفرقت الجماعة . فالكونت وقد أراد تعمق معرفته بالكابتن قد كان في حاجة إلى تنويع الحديث ، كي يستبطن كُنه ما يريد معرفته ، مع رجل هذا حظه من الهدوء والإيجاز والبعد عن الغرور . فكانا يذهبان ويحيثان في أحد جوانب البهو ، بينما إدورد ، وقد أنعشته الخمر والأمل ، كان يمزح مع أوتيلي بالقرب من إحدى النوافذ ، وشرلوت والبارونة من ناحيتهما يتريسان صامتتين في الناحية الأخرى من البهو . وما لبث صمتهم وقلقهما الفارغ أن انتهيا بأن أشاعا البرود في باقى الجماعة . فأوى النسوة إلى جناحهن الأيسر ، والرجال إلى جناحهم الأيمن ، وبدا كأن ذلك النهار انتهى .

الفصل الحادى عشر

صحب إدوردُ الكونتَ إلى مخدعه ، وَحَمَلَه الحديث على أن يبقيه معه حيناً ، فخر الحديثُ الكونت إلى الماضى البعيد ، وتحدث بحرارة عن جمال شرلوت ، مبيناً مناقب هذا الجمال بدراية وحماسة ، قائلاً :

— إن قدماً جميلة لهى هبة من الطبيعة ثمينة : إنها نعمة لا تقنى . لقد لاحظت اليوم مشيتها . ليود المرء وهو يراها أن يقبّل حذاءها ، ويجدد تلك التحية — وإن كانت ، حقاً ، بربرية شيئاً ، فإنها مع هذا تدل على عمق فى الإحساس — التى كان يستخدمها السرميتيون^(١) الذين كانوا لا يجدون أعذب من أن يشربوا فى حذاء شخص عزيز ماجد ، يشربوا على صحته .

ولم يكن طرف القدم وحده موضوع الإطراء فى هذه المناجاة بين الصديقين . فإن شخصها قد عاد بهما إلى المغامرات القديمة ، وانتقلا منها إلى العقبات التى كانت توضع فى سبيل لقاء الحبيبين ، وما لقيا من عَنَت وإرهاق ، وما قتلا من حباثل لا لشيء إلا ليتيسر لكل منهما أن يقول للآخر : إني أحبك .

(١) السرميتيون هم أهل سرمته ، وهى بلاد واسعة فى شمال أوروبا وآسيا تنقسم إلى قسم أسبوى وآخر أوربى ؛ والقسم الأوربى يحده المحيط شمالاً وألمانيا والفرنسا غرباً ، والبحر الأسود جنوباً ، ويشمل الآن روسيا وبولنده ولتوانيا والنتر العبرى وكان أهلها غير متحضرين محبين القتال ، اشتهروا بصيغ أجسامهم ليزداد روعهم فى الحروب ، كما عرفوا بجلهم إلى الفجور . وقد ازدادت شوكتهم فى عهد الامبراطورية الرومانية ، إلى أن استطاعوا ، بعد أن انضم إليهم لإشقوزيون ، القضاء عليها نهائياً . فهم القبائل المعروفة بقبائل الهون والوندال والقوط والألان الذين غزوا روما وقصوا على تلك الامبراطورية الشائخة . وكانوا يعيشون على السلب ويتغذون بالألبان ممزوجة بدماء الخيول .

وتابع الكونت الحديث قائلاً : « أتذكر المغامرات التي آذرتك فيها بصداقة ونزاهة خالصتين ، حينما ذهب أمراؤنا لزيارة عمهم واجتمعوا في القصر الفسيفس ؟ كان النهار قد انقضى في حفلات ومراسم جليلة رائعة ، وكان لا بد من تكريس شطر من الليل للأحداث الحرة العذبة .

— لقد عرفت ، هكذا قال له إدورد ، كيف تكتشف الطريق المؤدى إلى مخادع السيدات ، وكان من حسن حظنا أننا بلغنا مخدع حبيبتي الجميلة .
— وهي قد حرصت على الحياء أكثر من حرصها على إرضائي ،
هكذا عاود الكونت حديثه ، واحتفظت إلى جوارها بتابعة مفرطة في القبح ، إلى درجة أنك خلقت لي ، أثناء حديثك الغرامي ، دوراً بالغ القبح .
— بالأمس فقط ، هكذا أجاب إدورد ، حينما أعلنت عن قدومك ، أعدت ذكرى هذه الحادثة إلى زوجي ، وخصوصاً كيفية انسحابنا . لقد ضللنا الطريق ، وبلغنا الغرفة المواجهة لغرفة الحراس . ولما كنا نعرف جيداً كيف نجد طريقنا من هناك ، اعتقدنا أن في وسعنا الاجتياز بدون صعوبة مارين أمام ذلك المكان مرورنا أمام أى مكان آخر . لكن كم كانت دهشتنا ونحن نفتح الباب ! لقد كان الطريق مليئاً بالمضائد والوسائل التي نام عليها هؤلاء المرءة الراقدون على عدة خطوط . فحملت الجندي المنوط بالحراسة إلينا مندهشاً ، ولكننا استطعنا أن نمر بما فينا من جرأة الشباب ومرحه ، فوق الأحذية المتراسة دون أن يستيقظ واحد من أبناء ايناك هؤلاء أو ينقطع غطيظه .

— لقد كنت شديد الرغبة في أن أكبو ، هكذا قال الكونت ،
كما أحدث ضجيجاً وجلبة ؛ إذن ما كان أغرب ما ستره من استيقاظ !
وفي هذه اللحظة دقت ساعة القصر نصف الليل .

— نصف الليل ! هكذا قال الكونت باسما ، إنها اللحظة المواتية .
عزيرى البارون ، لى رجاء لديك . لتقعدنى اليوم كما قعدتُك بالأمس . فقد
وعدت البارونة بزيارتها . ونحن لم نحظ طوال النهار بلحظة واحدة نتحدث
فيها حديثا خاصا ؛ لقد بقينا طويلا لا يرى أحدهما الآخر ، فن الطبيعى
أن زَجسى ساعة خلوة . دُلّسنى على الطريق ، وفى وسمى أن أجد سبيل
العودة بنفسى ، وعلى كل حال فلست أخاطر بالكبوة على أحدىة .

— سأزدرع عندك هذا المعروف عن طيب خاطر ، هكذا أجاب
إدورد . ولكن هؤلاء النسوة الثلاث يقمن سويا فى الجناح الأيسر ؛ فمن
يدرى لعلنا نجدهن مجتمعات الآن ، أو ما أغرب المشهد الذى يمكن أن
نكون الآن بسبيل إنارته !

— اطّرح كل خوف ، فإن البارونة تنتظرنى . وهى الآن لا بد
موجودة فى مخدعها ، هى وحدها .

— الأمر على كل حال ميسور ، هكذا قال إدورد .

وأخذ مصباحا وتقدم الكونت مُنزلا إياه سلما خفيا يقود إلى ممشى
طويل ، عند نهايته فتح إدورد بابا صغيرا . ثم صعدا سلما دائريا ، ما بلغا
منه مسطحا ضيقا حتى أشار إدورد — منبها الكونت ، وهو يعطيه
المصباح — إلى باب عن يمين انفتح من أول قرعة فدخل الكونت وترك
إدورد فى الظلام .

وكان هناك باب آخر عن يسارٍ يؤدى إلى مخدع شرلوت . فسمع
إدورد حديثا فأرهمف أذنه لاستراق السمع ، فتوجس شرلوت وهى تحاطب
سيدة مخدعها :

— هل نامت أوتيل ؟

— كلا ، يا سيدتى ، بهذا أجابت سيدة المخدع . إنها لا تزال فى أسفل
تكتب .

— أوقدى إذن قُنَيْدِيل السهر وانصر فى ، فالوقت متأخر . وسأطفيء
الشعلة بنفسى وأنام وحدى .

ولشد ما سر إدورد أن يعلم أن أوتيل لا تزال مشغولة بالكتابة . « إنها
تشتغل من أجل ! » هكذا قال لنفسه منتشياً بالظفر . ولما كان مطوياً على
نفسه فى الظلام فقد تخيلها جالسة تكتب ، وتخيل نفسه يقترب منها ،
وهى ترد إليه ؛ وأحس برغبة لا تقاوم فى أن يكون إلى جوارها مرة
أخرى هذا المساء . لكن لم يكن ثمت طريق يؤدى من المكان الذى كان
فيه إلى الطابق السفلى حيث كانت هى آنذاك . فقد كان فى تلك اللحظة
أمام باب مخدع زوجه . فحدث فى نفسه اختلاط غريب : حاول أن يفتح
الباب فوجده مغلقاً ، وكان دفعه إليه خفيفاً فلم تسمع شرلوت ، وكانت
تندو وتروح فى اضطراب وتهشج فى غرفة مجاورة أوسع من الأخرى ،
وهى تردد لنفسها ، بصوت واضح ، ما أجالته مراراً فى داخل عقلها ، منذ أن
اقترح الكونت اقتراحه المفاجئ . وخيل إليها أنها ترى الكابتن قبالتها .
أواه ! إنه ملء القصر وبهجة الزُهُات ، وها هو ذا بسبيل الرحيل ! أيجل
القفر عما قليل ! وقالت فى نفسها كل ما يمكن أن يقال ؛ وتمثلت لنفسها
مقدماً ، كما هى المادة دائماً ، هذه السلوى الرهيبة : وهى أنه حتى أمثال
هذه الآلام يخفف من وقعها الزمان ؛ وصبت اللعنت على الزمان اللازم
لعلاجها منها ؛ كما لعنت العهد الحزين الذى ستكون فيه قد برئت منها .

وأخيراً أهابت بالدموع ، فكانت سلوى فيها من العذوبة بقدر ندرة
الدموع لديها . وألقت بنفسها على الأريكة ، واستسلمت بكل نفسها لهمومها .

وإدورد هو الآخر لم يقو على مفارقة الباب ، فقرع صرة ثانية وثالثة بقوة متزايدة حتى إن شرلوت سمعته بوضوح في سجن الليل ، واقشعرت فزعاً . وخطر ببالها أول ما خطر أن الطارق يمكن أن يكون هو الكابتن ، بل لا بد أن يكون إياه ؛ ثم خطر لها ثانياً أن هذا مستحيل . تخيل إليها أن هذا وهم ؛ لكنها سمعت طرقا ، ورغبت وخافت معا أن تكون قد سمعت . فانتقلت إلى غرفة نومها ، واقتربت بخطى مسترقة من الباب الموج بالزللاج . وأنبت نفسها على فزعها ، وقالت لنفسها : « يظهر أنها البارونة ، في حاجة إلى معونتي » ؛ ثم قالت ، رافعة صوتها ، بلهجة ثابتة موزونة : « من هناك ؟ » فأجاب صوت خافت : « إنه أنا » . فقالت شرلوت : « من أنت ؟ » إنها لم تستطع أن تبين ذلك الصوت ، وتمثلت أيضا صورة الكابتن أمام الباب . فحاء الجواب على سؤالها مرتفعاً : « إنه إدورد » .

ففتحت ، ومثل زوجها أمامها ، وحياتها بطريقة مازحة ، مما هيا لها أن تستمر معه بنفس اللهجة . لكنه غطي زيارته الغريبة هذه بتأويلات غامضة : وأخيرا قال : « لماذا أتيت ؟ » . . . هذا ما يجب أن أعترف به لك : لقد لجأت إلى الشوق إلى تقبيل نعلك هذا المساء ، فقرر عزمي عليه » .

فقالت شرلوت : « مضى زمان طويل لم يخطر ببالك هذا الخاطر » . فأجاب إدورد : « بئس ما حدث أو نعمه » .

وكانت شرلوت قد ألفت بنفسها على كرسى كيبا تحنى عن نظراته مبدلتها الخفيفة . فخر راكما أمامها ، ولم تستطع هي أن تحول بينه وبين أن يقبل نعلها ثم يمسك بقدمها — وقد بقي النعل في يده — ويضغط به بحجارة على صدره .

ولقد كانت شرلوت واحدة من هؤلاء النسوة المصادئات الطبع

التواضعات ، اللأى يحتفظن فى الزواج — دون ما جهد ولا تكلف — بأحوال العاشقات . فهى لم تحاول مطلقاً أن تستنصّ لطفه ، وتبادنه الملاطفة ، كما كانت نادراً ما تستجيب للملاطفاته ؛ إنما كانت تشبه زوجاً رقيقة لا تزال تشعر بخوف خفى من الشئ المباح — دون ما برود أو قسوة منقّرة . وتلك كانت — والسبب مُضَاعَف — الحال التى وجدها عليها إدورد فى تلك الليلة . وكَم كانت تتوق إلى رؤيته يغادرها الآن ! لأن صورة السكاكين تبدّت كأنها تُنحى عليها باللائمة . لكن الشئ الذى كان من شأنه أن يُبعد عنها البارون الآن لم يفعل إلا أنه زاد فى تعلقه وأنجذبه إليها وتوضح عليها شئ من الانفعال ، إذ كانت قد أسبلت عبرتها ؛ وإذا كان النسوة الضعيفات يفقدن بالبكاء بعضاً من محاسنهن ، فإن هؤلاء اللأى يُروْنَ عادة هادئات ثابتات يزددن منه فتنة وبه جمالا . أما إدورد فقد كان موفور اللطف مبسوط جناح الرقة والحنان ؛ فتوسل إليها أن تحتمل بقاء معها آنذاك ، ولم يكن يتطلب منها شيئاً ؛ وفى لهجة تترجى بين الجد والهزل حاول إقناعها بهذا ، ولم يفكر مطلقاً فى أن له الحق فى هذا ، وأخيراً أطفأ الشمة متلاعباً متضحكاً .

وعلى ضوء قنيديل السهر الباهت ، برّز الميل الخفى والخيال على الحقيقة . فخيل إلى إدورد أنه حمل أوتيلى بين ذراعيه ؛ وخيل إلى شرلوت أنها ترى — من قريب أو بعيد — صورة السكاكين ترنق أمامها وتحلق ؛ وهكذا استطاع الحاضر والغائب — بنوع من المعجزة — أن يتعانقا ويتحدا بلذة وشهوة واشتياق .

لكن الحاضر لا يستسلم لاغتصاب حقوقه المطلقة . فأَمْضيا هزيعاً من الليل فى أحاديث مختلفة الأنواع ودعابات عذبة السماع ، كان فى جريانها من

اليسر بقدر ما كان للقلب من عدم مشاركة فيها وواحسرتاه ! ولكن ،
في الغد ، حينما استيقظ إدورد بين ذراعى زوجته ، تبدى النور وكأنه يلقى
على الغرفة نظرة متوعدة ، وظهرت الشمس له وكأنها تضىء على جريمة ؛
فانسلّ دون ضجة ، وأحست شرلوت بعاطفة غريبة حينما وجدت نفسها
حين استيقاظها وحيدة .

الفصل الثانى عشر

ولما انتظم عِقد اجتماعهم فى ساعة الإفطار كان فى وسع الناظر المتنبّه
أن يتوسم فى حركات كُلِّ تباين أفكاره وعواطفه . فالكونت والبارونة
قد تبادلا التحية فى طمأنينة العاشقين الساجية ، العاشقين اللذين تبادلا —
بعد هجر أليم — تأكيدات جديدة لميولهما المتبادلة ؛ أما إدورد وشرلوت ،
فعلى العكس من هذا استقبلا أوتيلى والكابتن بنوع من الاضطراب والندم
السامد ، لأن من طبيعة الحب أن يعتقد أن له كل الحقوق ، وأن كل
الحقوق الأخرى تتبدد أمامه . ولقد كانت أوتيلى مريحة مرح الطفولة ،
مرحا يمكن أن يقال عنه بالنسبة إليها إنه كان لديها نوعاً من التفرج
والترويح . أما الكابتن فقد تبدى رزين الحِصاة واقع الطائر . فبعد أحاديثه
مع الكونت الذى أيقظت كلماته ما رقد فى قلبه منذ زمان طويل ، شعر
تمام الشعور بأنه لم يؤد مهمته الحقيقية عند صديقه ، ولم يفعل فى الواقع غير
أنه مَدِل بمقامه فى هذه الحال الشبيهة بالتمطل .

ولم يكد الضيفان يرتحلان حتى جاءت زيارة جديدة ، سارةٌ لنفس
شرلوت التى كانت تريد أن تُفَرِّجَ عن نفسها وترفه ، مضايقة لنفس إدورد

الذى كان يحس بازدياد تعلقه بأوتيلى وانشغاله ، ثقيلة أيضاً بالنسبة إليها وهى لم تنته بعد من إتمام النسخة ، وقد كان من الضروري الفراغ منها فى صباح الغد . وفى السادسة ، حينما ارتحل الغرباء ، هُيرت بالصعود إلى غرفتها .

اقترب الليل وإدورد وشرلوت والكابتن قد رافقوا الغرباء سيراً على الأقدام إلى بعض المسافة من القصر ، ثم قرأهم على القيام بنزهة حتى الغدران . فقد وصل زورق كان إدورد قد أوصى بإحضاره من بعيد وشراه بنفقات باهظة ؛ فأرادوا تجربته ليعرفوا ما إذا كان سهل التسيار . وكان الزورق قد شد إلى شاطئ الغدير الأوسط ، غير بعيد من بعض أشجار البلوط العتيق التى حسبوا حسابها للمنشآت المقبلة . فقد كان مفروضاً أن يكون المرسى هناك ، وتقام تحت الأشجار صُفّة للراحة أنيقة البناء ييم شطرها من يريدون عبور الغدير بالزورق .

— « وقبالتها ، أين يجدر بنا أن نقيم التَّكْلِئَة ؟ هكذا قال البارون ؛ يبدو لى أنها يجب أن تقام صوب أشجار الدُّاب » .
فقال الكابتن : « إنها متباعدة كثيراً ناحية اليمين . أما إذا كَلَّأنا فى ناحية أبعد سُفلاً ، فإننا نكون أكثر اقتراباً من القصر . ومع كل هذا فيجب التدبّر » .

وهاهو ذا قد جلس فى مؤخر الزورق وأمسك بأحد المجاديف ؛ ووزت شرلوت فى الزورق ، ومن خلفها إدورد الذى أمسك بالمجداف الآخر . ولكنه فى اللحظة التى قلع فيها المرساة تذكر أوتيلى وقدّر أن هذه النزهة ستأخره وتمود به فى ساعة لا يعلمها إلا الله . فأمضى عزيمته فى الحال ، ووثب إلى الشاطئ ، ومد إلى الكابتن المجداف الثانى ، واعتذر بسرعة وهُيرع إلى القصر .

سأل عن أوتيل فقيل له إنها أغلقت بابها لتكتب . وامتزج بهذا المخاطر الجليل ، خاطر أنها تشتغل من أجله ، أسفٌ حاد على حرمانه من حضرتها . وازداد ضيقه لحظة بعد لحظة وانتَقَضَتْ مرةً صبره . وظل يمشي غادياً آتياً في البهو الكبير ، وحاول كل شيء ، ولكن انتباهه لم يستقر عند شيء . وهو قد رغب في رؤيتها ، رؤيتها وحدها ، قبل عودة شرلوت والكابتن . وأقبل الليل ، فأوقدت المصابيح .

وأخيراً تجلّت في هالة من الإنافة والجمال ، يسمو بها الشعور بأنها عملت شيئاً من أجل صديقها . ووضعت الأصل والنسخة أمامه على المنضدة . — تريد المراجعة ؟ هكذا قالت باسمة .

ولم يعرف هو لماذا يجيئها ، فألقى بنظره عليها ثم على النسخة . أما الصفحات الأولى فقد كتبت بعناية فائقة وبخطٍ نَسْوَى لطيف ؛ ثم تبدلت القسامت وصارت أكثر خفة وحرية ؛ لكن كم كانت دهشته حينما تصفح الصفحات الأخيرة ! فصاح : « بحق السماء ! ماذا أرى ؟ إنه خطي بعينه ! » فنظر إلى أوتيل ، ثم إلى الأوراق مرة أخرى فرأى الأخيرة خصوصاً كأنها بعينها كما لو كان قد كتبها بنفسه . أما هي فاعتصمت بالصمت لكن عينها المحدقتين فيه كانتا تعبران عن أحر السرور . فرفع ساعديه في نشوة صائحاً :

— أنت تحبينني يا أوتيل ! أنت تحبينني !

وتعانقا طويلا . أما من هو الذي بدأ بمناقشة الآخر ، فهذا ما تستحيل معرفته .

ومنذ هذه اللحظة وكل شيء ، قد تبدل وجهه في نظر إدورد ؛ فلم يعد بعداً ما كانه قبل ؛ ولم يعد للدنيا نفس ما كان لها من مظهر في ناظره .

ووقف كلاهما قباله الآخر . وأمسك إدورد بكفى أوتيل في كفيه ؛ ولم تفارق عينا كليها عيني الآخر ؛ وكانا بسبيل أن يتعانقا من جديد .

ودخلت شرلوت بصحبة الكابتن . وعندما اعتذر عن طول تأخرهما ، ابتسم إدورد لنفسه . « آه ! كم أتيتما مبكرين ! » هكذا قال في نفسه .

وجلسوا للعشاء ، واستعرضوا زيارات اليوم ، فتحدث البارون — وقد تهيأ لعاطفة المحبة — عن كلِّ مادحاً ، حانياً دائماً ، مُطنباً في الثناء في غالب الأحيان . أما شرلوت — ولم تكن على رأيه تماماً — فقد لاحظت هذه الحال ، ومازحته على أنه كان في هذا اليوم صافي المزاج شائع الحنان ، وهو المتأهب دائماً للحكم بقسوة على الضيوف بعد رحيلهم .

فصاح إدورد بحرارة وفيض عاطفة صادقة:

— يكفي المرء أن يحب إنساناً من أعماق قلبه كما يتبدى له بقية الناس جديرين بالمحبة .

غَضَّتْ أوتيل طَرْفَهَا ، بينما أنعمت شرلوت النظر . فبدأ الكابتن الحديث قائلاً :

— إن عواطف الاحترام والتقدير تدعو إلى الشعور بشيء من مثل هذا . والإنسان لا يميز جيداً ما هو جدير بالتقدير في الدنيا حقاً إلا حينما يجد الفرصة لتغذية هذه العواطف من أجل كائن أو موضوع واحد . وسرعان ما سمعت شرلوت إلى مخدعها كما تستسلم لذكرى ما جرى ذلك المساء بينها وبين الكابتن .

فإنه حينما دفع إدورد الزورق وهو يثب إلى الشاطئ ، وترك للعنصر المتحرك (الماء) زوجه مع صديقه ، رأت شرلوت الرجل ، الذي طالما تأملت خفية من أجله ، جالساً قبالها في ساعة الأصيل ، وهو يدفع الزورق

بفضل المجاديف إلى حيث شاء . هنالك شعرت بحزن عميق نادراً ما أحست بمثله من قبل . وكان لدوران الزورق ، وضوضاء المجاديف الخفيفة ، ونسيم المساء وهو يمرّ مهتراً على المرأة السائلة ، وقسيب الغاب ، وبعض الطيور المرّنة فوق رأسيهما ، والنور المترنح ترسله النجوم الأولى — كل هذا كان له مسحة من الخيال في هذا الصمت الشامل والسكون الكامل .

وخيل إليها أن صديقها يقتادها إلى بعيد ، ليلقي بها على الشاطئ ثم يذرهما وحدها ؛ وأحست في داخل نفسها بانفعال غريب ، يئد أنها لم تقو على البكاء . ومع هذا فقد كان السكابتن يتحدث إليها عن تزيينات البستان كما صممها ؛ وأشاد بمثانة تركيب الزورق ، إذ يستطيع رجل واحد أن يقوده بئسر بواسطة مجدافين . ولعلها هي أن تتعلم وحدها كيف تقوده ؛ فأأجل أن يحس الإنسان أنه يُبحر وحده أحياناً وبأنه هو ملاح نفسه ونوئ ذاته ! فأهاجت هذه الكلمات في نفس صديقه ذكرى فراقهما القريب .

فقالت في نفسها : « أيقول هذا الكلام عن قصد ؟ أو يعلم شيئاً عما تكنه ؟ أيجدس شيئاً أم يتحدث هكذا حيثما اتفق ، وبدون أن يعلم يندرنى بمصيرى ؟ » فاستولت على نفسها كآبة عميقة وقلق لهيف ، وسألت حاديها أن يساحل بأسرع ما يمكن وأن يعود بها إلى القصر .

وكانت هذه أول مرة تجول فيها السكابتن فوق الغدير ، وعلى الرغم من أنه لاحظ عمقه بطريقة إجمالية ، فإنه لم يعلمه بالتفصيل . وبدأ الليل في الإظلام فولى إبحاره قبّل مكان ظنّ النزول فيه ميسورا ، يعرف أنه لا يبعد كثيراً عن الطريق المؤدى إلى القصر . لكنه صرف عن هذا الاتجاه أيضاً حينما كررت شرلوت الدعاء — في شيء من اللهفة — بأن تنزل إلى البر وشيكا . فاقترب من الشاطئ باذلاً مجهودات جديدة : لكنه

لسوء الحظ شعر بالتوقف على مسافة ما . وكان الزورق قد سقط ، وذهبت جهوده لتخليصه سُدى . فما العمل ؟ لم يبق له إلا أن ينزل في الماء ، وقد كان من الضحولة بحيث يتيسر له أن يحمل صديقه إلى الشاطئ . وسعد باجتياز هذه المسافة حاملاً ذلك الحِمْل العَزيز ؛ وكان من قوة البدن بحيث لم يتأيل مطلقاً ولم يُثر في نفس شرلوت أى ارتعاج ؛ ومع هذا فقد حملها الجزع على أن تمنق رقبتة بذراعها ، بينما أمسك هو بها بقوة وضغطها بين ذراعيه . وانتظر حتى يبلغ أرضاً أريضة مائلة لينزلها ، وتم له هذا في حالة لا تخلو من الانفعال والاضطراب . وكانت لا تزال معلقة بعنقه ؛ فضغط عليها من جديد بين ذراعيه ، وطبع على شفيتها قبلة حارة . ولكنه في نفس اللحظة سقط تحت قدمها صائحاً : « شرلوت ، هل تغرين ؟ »

هذه القبلة التي تجاسر صديقها على طبعها ، والتي قابلته هي بمثلها تقريباً ، دعت شرلوت إلى التأمل في نفسها . وضغطت على يده ، دون أن تنهض به ؛ ومع هذا فإنها انحنى نحوه ووضعت يدها على كتفه وصاحت : « ليس في وسعنا أن نحول بين هذه اللحظة وبين أن تكون فترة حاسمة في حياتنا ؛ لكن يتوقف على إرادتنا نحن أن تكون هذه الفترة جديرة بنا . يجب أن نرحل يا صديقي العزيز ، وسنرحل . فإن الكونوت يعني بإصلاح حالك : وهذا يسرني ويملائي غما . ولقد شئت أن أكتمك هذا إلى اللحظة التي يصير فيها الأمر يقيناً . وهذه اللحظة تحملني على أن أكشف لك عن هذا السر . إنني لا أستطيع أن أغفر لك ، ولا أن أغفر لنفسي خصوصاً ولدينا الشجاعة على تغيير مركزنا ، ما دام ليس في أيدينا أن نغير عواطفنا » .

وما تفوهت بهذه العبارات حتى أنهضت الكابتن ؛ واستندت إلى

ذراعه ، وعادا إلى القصر صامتين وهامى ذى الآن فى غرفة نومها ، حيث يجب عليها أن تشعر وتعرف بأنها زوج إدورد . وفى وسط هذه المتناقضات أعانها على تحمل حالها خلقها المتين الذى حنكته ألوان من التجارب مختلفة . وهى قد كان من عاداتها أن تحاسب نفسها وتضبط عواطفها ، فاستطاعت هذه المرة أيضاً ، فى غير مشقة ، أن تقترب من الاتزان المطلوب ، بواسطة تأمل جاد ؛ بل إنها لم تملك نفسها من الابتسام وهى تفكر فى تلك الزيارة الليلية الغريبة . لكنها سرعان ما انتابها شعور توقع غريب ، وقشعريرة قلقة مسرورة معاً ، تحولت إلى رغبات ورعة وآمال واسعة الرجاء . لقد غلبها التأثر نفخت راحة وكمرت القسم الذى نطقت به لإدورد أمام المذبح . والصدقة والحب والزهد ، كل هذا تبدى لها فى صور براقة باسمه ؛ فأحست بتجديد فى باطنها ؛ وسرعان ما تولاهما فتور عذب ورقدت فى نماس هادئ .

الفصل الثالث عشر

أما إدورد فقد كان فى طور مختلف عن هذا كل الاختلاف . فهو لا يكاد يفكر فى النوم ، حتى إنه لم يخطر بباله أن يخلع ملابسه . وهامو ذا يطبع آلاف القبلات على نسخة الوثيقة ، أو مستهلها على الأقل ، حيث تتجلى يد أوتيل فى طفولة وحياة ؛ أما الجزء الأخير فهو لا يكاد يجرو على تقبيله ، لأنه يتوسم فيه خطه هو . آه لو كانت هذه الصفحات تدور حول موضوع آخر ! هكذا قال لنفسه . ومع هذا فعلى فى نظره الشاهد السعيد على أن أعز أمانيه قد تحقق . وهذه الصفحات ستظل فى يده ؛ فلا يستطيع

دائماً إلا أن يضغط بها على قلبه ، على الرغم من أنها ستدنس بتوقيع شخص ثالث !

وكان القمر قبل انحداره مضيئاً فوق الغابة ؛ والليل الفاتر يدعو إدورد إلى الخروج ؛ وها هو ذا يغدو وروح من كل ناحية ؛ وهو أشد الناس اضطراباً وسعادة معاً . يجول في البستان ، فيشعر بالضيق ؛ ويجرى في الريف فيحس زيادة الاعتماد . فيعود إلى القصر ، فيجد نفسه تحت نوافذ أوتيلي . وهناك يجلس على سُلّم سَطْح ، ويقول في نفسه :

« إن جدراناً وأقفالاً تفصل بيننا الآن ، لكن قلوبنا لا تنفصل . لو كانت أمامى ، إذاً لسقطتُ بين ذراعى ، وسقطتُ أنا بين ذراعيها ؛ وماذا أرغب فيه أكثر من يقينى بهذا ؟ ! »

سكن كل شيء حوله ؛ فلا نسيم للريح ؛ والهدوء قد بلغ من العمق مبالغ تجعل في مقدوره أن يسمع حركة الحيوان تحت الأرض ، هؤلاء المعدّنون الذين لا يكلون ، والذين يتساوى لديهم الليل والنهار . ثم غرق في أحلامه السعيدة ، وأخيراً نام ؛ وحينما استيقظ كانت الشمس قد تبدت بكل روعتها وجلالها وبددت أبخرة الصباح .

وكان أول الناهضين من النوم في ضياعه ؛ وتبدى له العمال متأخرين . وأقبلوا : فوجدهم قلة ضئيلة ووجد العمل المنوط بهم ذلك اليوم قليلاً كل القلة في نظر رغبته . فطلب استحضار عدد أكبر من العمال : فوعده به ، وأتى بهم خلال النهار . لكنهم هم أيضاً لم يكونوا كافين لكي يرى مشروعاته منجزة بسرعة . بل العمل نفسه لم يعد يبعث في نفسه أية لذة : فيجب إتمام كل شيء حالاً وبلا أدنى تأخير . ولن ... ؟ يجب أن تعبد الطرق ، كي تسير عليها هي بسهولة ويسر ؛ وأن توضع المقاعد في

أما كنها ، كى نستطيع أن تستريح . وهو يستحث بكل ما فى مقدوره إنجاز الأعمال الخاصة بالمنزل الجديد ؛ ويجب إقامة القوائم الخشبية فى يوم عيد ميلاد أوتيلى ، ولم يعد إدورد يلتزم حدوداً لا فى عواطفه ولا فى أفعاله . فإن فكرة أنه يحب ويبادل هذا الحب قد دفعت به إلى غير نهاية . آه ! لشد ما تغيرت المنازل والأجواء المحيطة فى نظريه ! إنه لا يجد نفسه بعد فى منزله الحقيقى . فإن حضرة أوتيلى قد ابتلت كل ما عداها عنده ؛ فهو لا يحيا إلا فيها ؛ ولا فكرة لديه إلا فيها ، ولم يعد ضميره يحدته بعد ؛ وكل ما كان مقيداً فى نفسه حطم قيوده ، وتدافع كل كيانه نحو أوتيلى .

ولاحظ الكاتبين حركاته العاطفية المشبوبة ، وود لو استطاع أن يلوى عنانه عن نتائجها المشؤمة . فكل هذه الأعمال التى عجّل بها فوق كل حد تحت تأثير اندفاع مُفسرط ، قد قدرها هو وحسبها من أجل جماعة من الأصدقاء الهادئين . وبيع الضيعة المستكراة قد تم بفضل اهتمامه ، ودفع القسط الأول ، وأودعته شرلوت فى خزائنها وفقاً لما تماهدوا عليه . لكن من الأسبوع الأول شعر بوجوب زيادة التنبية والنظام والصبر أكثر مما اعتاد ، لأنه إذا استمر العمل بهذا الاندفاع والسرعة ، فإن المبلغ المرصود لن يكفى طويلاً لذلك .

لقد شرعوا فى عمل الكثير ، وبقي لديهم الكثير ؛ فهل يستطيع الكاتبين أن يترك شرلوت فى هذا الموقف ؟ فاشتورا وقر الرأى على أن الأفضل هو التعميل بالأعمال المتفق عليها ، والاقتراض من أجل إتمامها ، وتحديد الدفع وفقاً لمواعيد حلول الأقساط الباقية من ثمن الضيعة المبيعة . وهذا يمكن أن يتم دون خسارة ، بواسطة التنازل عن هذه الحقوق ، فتكون أيديهم أكثر حرية وطلاقة ، ويكون فى وسعهم القيام بأكثر من عمل

في آن واحد ، ما دامت الأعمال جارية والمال متوفرين ، فيستطيعون الفراغ منها بكل سرعة ونأ كيد . ورافأها إدورد بكل ارتياح على رأيهما ، لأنه يتفق وأغراضه .

ومع هذا فقد أصرت شرلوت في أعماق قلبها على آرائها وتصميماتها ؛ ولما كان صديقها يشاركها نفس الشعور ، فقد آزرها بكل شجاعة . ولكن هذا لم يفعل إلا أن زاد في خلوتهما وموانستهما . فأجالا الرأي سويا في مسألة عاطفة إدورد ، فكانت مدار حديثهم . وقربت شرلوت أوتيل من شخصها ، ولاحظتها عن قرب ؛ وكلما عرفت حال قلبها هي نفسها ، زاد نفوذها وفهمها لقلب تلك الفتاة . فلم تجد وسيلة للنجاة خيراً من إبعادها .

وكانت فرصة سعيدة في نظرها أن ترى لوسيان وقد وشَّحها أهل مدرستها حُلَل الثناء والإطراء ؛ لأن أخت جدتها ما كادت تسمع بهذا المديح حتى أرادت أخذها لديها لتبقى عندها دائماً كيما تدخلها في المجتمعات والمحافل . هنالك يتيسر لأوتيل أن تعود إلى المدرسة . والسكابتن بدوره سيرحل ضروداً بمركز محترم . وهكذا سيسير كل شيء كما كان سائراً من قبل بضعة شهور ، بل وعلى وجه أحسن . وآملت شرلوت أن تصلح من صلاتها بإدورد ؛ فرتبت كل شيء في ذهنها على نحو من الحكمة وحسن التدبير حتى إنها ازدادت اقتناعاً بالفكرة الزائفة ، فكرة إمكان المود إلى الحياة المحدودة النطاق ، وأن الوجدان المنطلق سيلتزم عما قليل حدوده .

بيد أن إدورد أحس بشدة وطء العقبات التي وضعت في طريقه . وسرعان ما لاحظ أنه يُباعَد بينه وبين أوتيل ؛ وأنه يضيق عليه الخناق حتى لا يتحدث إليها على انفراد ، بل أن يقترب منها ، اللهم إلا في حضرة

أشخاص آخرين . ومن سخطه على هذا المسلك ، تأوّن حَسَنًا على كل شيء . وإذا استطاع أن يوجه إليها بعض كلمات عابرة ، فلم يكن هذا مجرد تأكيد حبه لها ؛ بل كان أيضا من أجل الشَّكَاة لها من زوجته ومن الكابتن . ولم يشعر بأن ابدقائه سيفضى حتماً إلى استنفاد المال الموجود ؛ فكان دائم التريب على شرلوت وصديقتها — تريب ممزوج بالمرارة — لأنهما يسلكان في هذه المسألة مسلكا يتنافى مع ماتعاقدا عليه أول الأمر . ومع هذا فقد أبدى موافقته على الترتيبات الجديدة ، بل كان هو الباعث عليها المؤكد لضرورتها .

البُغْض مُغْضَرٌ ، ولكن الحب أشد إغراضا منه . فإن أوتيلي تبدت بدورها أنها تتباعد عن شرلوت والكابتن . وذات يوم كان إدورد يشكوها إلى أوتيلي قائلاً إنه لا يسلك مسلك الصديق ولا يخلص كامل الإخلاص في هذه المسألة ، فأجابته أوتيلي بغير تدبر ولا تفكير :

— لقد أزعجني من قبل أنه تموزه الصراحة معك . فلقد سمعته يوما يقول لشرلوت : « بودي لو رحنا إدورد من نايه ؟ وهو لن يكون ماهراً في العزف عليه ، ومثل هذا تستك منه المسامح » . وفي وسعك أن تحكم إلى أي مدى جرحتنى هذه الكلمات ، أنا التي أجد لذة ما بعدها لذة في مصاحبتك عليه .

ولم تكذب تنطق بهذه الكلمات حتى أحست بالحكمة توحى إليها في أذهنها أنه كان الأخلق بها أن تسكت ؛ ولكن الأقوال خرجت من لسانها فأربد وجه إدورد إذ لم يشعر بأن شيئا ما قد بلغ من إيذائه وجرح إحساسه مثل ما فعل هذا . فقد أهين في أعز أهوائه . فأحس بمنافسة طفولية لا يمازجها أي ادعاء . وقد كان على أصدقائه أن يحابوه فيما يسره ويشيع

عنده اللذة . ولم يفكر ولم يقدر مدى ما يصيب الآذان من أذى وعذاب من جانب عازف وضيق المنزلة مخفوض المكان . لقد أهين فاستشاط غضباً ووَعِغَ صدرُهُ إلى حد لا يمكن معه الصفع . فأحس بأنه حرٌّ من كل واجباته .

وفي كل يوم يزداد شعوره بالحاجة إلى أن يكون بالقرب من أوتيل وأن يراها ، ويهمس في أذنها بكلمات رقاق ، ويبشها طوايا نفسه . وقرَّ عزمه على أن يكتب إليها ، سائلاً إياها تراسلاً سرياً . وكانت الوريقة الصغيرة التي كتب عليها هذا الاقتراح في كلمات قصار موضوعة فوق مكتبه ، وإذا بتيار هواء يدفع بها إلى أرض الغرفة في اللحظة التي جاء فيها خادم ليمشط شعره . وكان من عادته أن يختبر حرارة المكواة بأوراق يلتقطها من فوق الأرض ، وفي هذه المرة أخذ البطاقة وقبض عليها بالملقاط بشدة ، فاحترقت البطاقة . فلما شاهد سيده خطأه ، انتزعها من بين يديه . وبعد قليل جاول أن يكتب بطاقة أخرى ، ولكن لم يسلبها قلمه بنفس السهولة : فقد أحس إدورد بشيء من تأنيب الضمير وشائعة من القلق ، استطاع مع هذا أن يتغلب عليهما . وأزلق البطاقة في يد أوتيل حينما استطاع الاقتراب منها . وما عَتَمَت أوتيل أن ردَّت عليه لفورها . وقبل أن يتيسر له قراءة بطاقتها الصغيرة ، وضعها في جيب صدره ، وقد كان قصيراً على أحدث طراز ، فلم يستطع الاحتفاظ بالورقة جيداً ؛ فانزلت وسقطت دون أن يشعر . ولكن شرلوت رأتها فالتقطتها وقدمتها إليه بعد أن ألقت عليها نظرة عابرة ، قائلة : خذ هذا فهو مما خططته بيمينك وقد تحزن لفقده .

فاستولى عليه الدهول . وقال لنفسه : أمي تحب شيئاً ؟ وهل رأت ما تحويه هذه البطاقة ، أو هي قد خُذعت بتشابه الخطوط ؟ ورجى أن

يكون الفرض الأخير هو الصحيح . لقد نبه وحذّر مرتين ، ولكن هذه
العلامات الغريبة ، العَرَضية التي يبدو أن كائنا أعلى يتحدث إلينا عن
طريقها ، هذه العلامات لم يستطع وجدانه أن يفهمها ؛ وكما دفع به هذا
الوجدان إلى أبعد ، ازداد شعوره الأليم بالضيق الذي لاح له أنه يفرض
عليه . فتبدد الائتناس الرقيق وأُرمح على قلبه بالأسداد ، وحينما كان يضطر
إلى الوجود في حضرة صديقه وزوجه ، لم يكن في وسعه أن يستعيد في
فؤاده ذلك الحب الأول الذي كان يستشعره نحوهما ، ولا أن يجيبه من
جديد . وكانت ألوان التريب المستور الذي كان يستشعره بالرغم منه في
هذا الصدد ، ثقيلة على نفسه ، وحاول جهده التخلص منها بنوع من
الرج ليس له لطفه المعتاد ، لأنه خلا من الحب .

أما شرلوت فقد نجت من كل هذه الحزن بفضل حالة قلبها المستورة .
وأحست بأنها قد طوت كَشْحَهَا بكل جِدٍّ على أن ترهد في أنبل
عاطفة وأحلاها .

وكم كانت تود أن تكون هي نفسها في عون هذين العاشقين ! فالبعاد
— لقد أحست بهذا جيداً — لن يكفي لعلاج مثل هذا الداء المُضال .
خطر ببالها أن تواضع هذه الفتاة المسكينة (أوتيلي) الرأي ، بيد أنها
لم تستطع أن تقطع عزمها على هذا المسلك : فإن ذكرى ناحية ضعفها هي
تقف في طريقها . حاولت أن تعبر عن نفسها في هيئة قضية عامة ، ولكنها
وجدت أن أقوالها تنطبق على حالتها هي أيضا ، وهي تخشى أن تصفها
لنفسها . فكل النصائح التي تريد أن تسديها إلى الفتاة ترد على قلبها
وشجونه . إنها تود أن تبذل النصيح ، لكنها تشعر بأنها لعلها هي الأخرى
في حاجة إلى أن تُمَحَرِّض صادق النصيحة .

فلاذت بالصمت ، واستمرت تسعى في المباحدة بين الماشقين . غير أن الإشارات الخفيفة التي تند عنها أحياناً لا تؤثر في أوتيلي ، لأن إدورد كان قد أقنعها بأن شرلوت مستهامة بالكابتين ، وأنها تريد من جانبها أن تحصل على طلاق ، لا يفكر في إنفاذه إلا بطريقة تتفق والكرامة وحسن الآداب .

أما أوتيلي ، وقد سندها شعورها ببراءتها في مسلكها نحو السمادة ، وهي قبلة كل آمالها ، فإنها لم تعد تحيا إلا من أجل إدورد . فثبتت قدمها في كل ما هو خير بفضل ما تحمته نحوه من حب ، وأقبلت على العمل بسرور جديد صادر عن وحيه ، وازدادت تفتحها لجميع الناس ، فأحست بحجة النعم على الأرض تقيم .

وعلى هذا النحو استمروا جميعاً يسايرون ركب الحياة ، كل وفق ما يهوى ، دون ما تفكير أو بشيء منه . ولاح كل شيء كأنه يتابع سيره المعتاد : كما يحدث في المواقف الخطيرة الرهيبة التي يكون فيها كل شيء هدفاً للفرار ، أن يتابع الناس مجرى الحياة وكأن لم يحدث شيء .

الفصل الرابع عشر

وصلت رسالة من الكونت إلى الكابتين ، أو بالأحرى رسالتان : إحداها قابلة للنشر وفيها إشارة إلى آفاق جميلة واسعة في المستقبل البعيد ؛ والأخرى تنطوي منذ الآن على عرض حاسم لمنصب هام في الإدارة والبلاط ، مع رتبة صاغ ، ومرتب ضخيم ومزايا أخر ، وهذه الرسالة لا يجب أن تذاع لاعتبارات خاصة . لهذا أنبأ الكابتين أصدقائه بنبا تلك

الآفاق الواسعة في الآجل ، وأخفى عنهم العرض العاجل .
 لكنه استمر مثابراً في أعماله الحالية وهياً اللازم - سرّاً - لكي
 يسير كل شيء في طريقه دون عائق أثناء تنفيذه . فأهمه آنذاك أن يعين
 أجلاً لكثير من الأعمال وأن يعجّل عيد ميلاد أوتيل باتعامها .

ومنذ ذلك الحين والصديقان يعملان سوياً بغيرة وحماسة ، وإن لم يكن
 هذا باتفاق صريح . فادوردد قد اغتبط لرؤية صندوق المال ممتلئاً ، بواسطة
 مبالغ حُصِّلَتْ مُعَجَّلَةً ؛ وأجذله أن يرى العمل كله يسير سيراً وَحِيّاً .
 ولقد كان الكابتن راغباً في صرفهم الآن عن تحويل الغدران الثلاثة
 إلى بحيرة . إذ كان من الواجب تقوية السد السفلى ، ورفع السدود
 الوسطى ، وكانت هذه مهمة جدية شاقة من عدة نواح . ولكن العاملين ،
 وقد كان كل منهما يساعد على الآخر ، قد بدأ فعلاً ؛ ولحسن الحظ وصل
 تلميذ قديم لصديقنا ، وهو مهندس معمارى شاب استطاع أن يتقدم بالعمل
 إما باستخدام صناع ماهرين أو بإعطاء الأعمال على هيئة مقاولات ، ووعده
 بأن يكون لهذا العمل رسوخ ودوام . وطاب قلب الكابتن سرّاً لأنهم لن
 يشعروا بغييبته ، إذ هو قد اتخذ لنفسه قاعدة أن لا يترك عملاً ناقصاً كلّف
 به قبل أن يرى أن محله شُغِلَ على وجه مناسب ؛ وكان يزدري هؤلاء الذين
 يلذ لهم أن يُشْهِروا الناس بارتحالهم فيبداؤا بإثارة الاضطراب في تلك
 الأعمال التي يديرونها ؛ إنهم أثرون جفافة غلاظ يسرهم أن يقضوا على
 الأعمال التي لن يتموها بأيديهم .

وهكذا استمر العمل دون إبطاء ولا انقطاع ، من أجل الاحتفال بعيد
 ميلاد أوتيل ، دون أن يُصرّحوا بهذا علناً . غير أن شرلوت ، وإن كانت
 بعيدة عن عواطف الغيرة ، فإنها رأت من الواجب ألا يكون هذا العيد حافلاً

نحنا . فإن شباب أوتيل وقلة يسارها ، وطبيعة صلتها بالأسرة لا تحوّل لها أن تظهر في هيئة ملكة احتفال . بل يجب أن يصدر كل شيء عن طبيعته وأن يسبب مفاجأة وسروراً طبيعياً .

فتم الاتفاق ضمناً على المناسبة : ففي ذلك اليوم تنصب قوائم بيت الزهرة ، دون أن يلوح أن هناك غرضاً آخر ، وبهذه المناسبة يمكن أن يعلن عن احتفال لأهالى القرية والأصدقاء على السواء .

بيد أن عاطفة إدورد لم تعرف بعدُ حداً . فلقد أراد أن يتملك معشوقته فلم يضع حداً لسخائيه وهداياه ووعوده . أما شرلوت فقد أشارت عليه باقتراحات متواضعة جداً تتعلق ببعض الهدايا التى أراد تقديمها إلى أوتيل في ذلك اليوم . لهذا تحدث في الأمر مع خادم غرفته الذى كان يعنى بخزانة ملابسه ، كما كان على اتصال دائم بالتجار وأهل الأزياء . فأوصى هذا الرجل ، الذى كان يعرف كيف يختار الهدايا الفاخرة ويقدمها كما يجب ، بأجل صندوق في المدينة ، منطى بالجلد المراكشى الأحمر ، ومزود بمسامير من الصلب ، ثم ملأ بهدايا جديدة به .

واقترح على إدورد اقتراحاً آخر ، فلقد كان في القصر قليل من السوارىخ النارية التى أهملت منذ زمن ولم تُنطلق ؛ وكان من الميسور زيادتها وتوسيعها . قاغتبط إدورد بهذه الفكرة ، ووعد الخادم بالإشراف على تنفيذها . وكان يجب أن يظل هذا الأمر سراً .

وقبل اقتراب ذلك اليوم أرصد الكابتن الأهبة لصيانة الأمن في ظرف كهذا يدعى فيه جمع كبير في مكان واحد . بل احتاط أيضاً لإبعاد المتسولين وغيرهم من القلقين الذين يمكن أن يعكروا صفو لذات عيد .

وإدورد من ناحيته قد شغل هو وأمين سره (خادم غرفته) بإعداد السواريج النارية ، فقدرا إطلاقها ناحية الغدير الأوسط قبالة أشجار البلوط الكبرى ؛ وأمامها مستجلس الجماعة تحت أشجار الدُّب ، كيما يكون في وسعها أن ترى المنظر على بعد مناسب من دون تعرض لخطر ، وأن تتعلى بانعكاساتها في الماء وبما يسبح فوق السطح منها وهو يحترق .

ولعذر أو لآخر أمر إدورد باقتلاع العوسج والحشائش والطحلب من تحت الدُّب ، فتبدت الأشجار في تمام روعتها وكال فتنها فوق السكان الوضيء النظيف . فأحس بهزة سرور كبرى . وقال لنفسه : « في مثل هذا الفصل غرستها . لكن كم من السنين مضت ؟ » وما كاد يعود إلى القصر حتى تصفح اليوميات القديمة التي كان والده يسجلها بنظام فائق ، خصوصاً وهو في الريف . بيد أنه لم يكن من الممكن أن يذكر هذا الفرس فيها ؛ لكن حادثاً منزلياً على جانب من الأهمية ، جرى في نفس اليوم ، وهو يذكره تمام التذكر ، لا بد أن يكون قد سُجل فيها . فتناول بضعة مجلدات ، وجدها تسجيل الحادث . وفي وسع المرء أن يقدر كم كانت دهشته وكم كان سروره ، حينما اكتشف أعجب اتفاق زمني : إذ وجد أن اليوم والسنة اللذين غرست فيهما هذه الأشجار هما بعينهما اليوم والسنة اللذان ولدت فيهما أوتيل .

الفصل الخامس عشر

وأخيراً تلاً الصبح الذي انتظره إدورد بصبر نافذ . وأقبل الضيوف أفواجا تلو أفواج ، لأن الدعوة قد أرسلت في نطاق واسع ، وكثير من

الناس الذين أهملوا حضور الاحتفال بوضع الحجر الأساسى - وقد كان احتفالاً عاد منه الجميع بأطيب الذكريات - لم يشاءوا أن يضيع هذا الاحتفال الثانى . وقبل الغداء ، لاح النجارون فى فناء القصر ، تسبقهم الموسيقى ، وهم يحملون إكليلهم الثمين المكون من أطواق عديدة من الأوراق والأزهار النسقة على هيئة طبقات يراقص بعضها فوق بعض . ثم أنشدوا تحيتهم والتمسوا من النسوة أن يقدن من مناديل حريرية وشرطاً من أجل الزينة المعتادة . وبينما كانت الجماعة تتناول طعام الغداء ، استمروا فى موكبهم الصاخب ؛ وبعد أن تلبثوا فى القرية ملياً ، حيث حصلوا من النسوة والفتيات على بعض الشرط أيضاً ، بلغوا أخيراً ، يصحبهم جمع حافل ، اليفاع الذى ارتفع عليه المنزل .

ودعت شرلوت الجماعة إلى المكوث قليلاً بعد الغداء ؛ فهى لم نشأ تسيير موكب رسمى منظم ؛ لهذا مشى الضيوف جماعات صغيرة بلا تنابع ولا نظام إلى المكان المعدّ دون جلبه ولا ضوضاء . وبقيت شرلوت فى المؤخرة هى وأوتيلى . لكن هذا لم يكن من شأنه أن يحقق مقصودها ، فإنه لما كانت الفتاة (أوتيلى) قد ظهرت فى المؤخرة فقد لاح أن الأبواق والدُفوف لم تكن تنتظر إلا مجيئها ، وكأن الاحتفال لم يكن ليبدأ إلا عند قدومها .

ولكى يزول عن المنزل مظهره الخشن فقد زين بالأنصان والأزهار فى فن وأناقة ، وفقاً لما أشار به الكتابتن . ومع هذا فإن إدورد ، على غير علم من الكتابتن ، قد دعا المهندس لرسم التاريخ على الواجهة بواسطة أزهار . ولقد كان هذا مقبولاً ، غير أن الكتابتن أتى فى الوقت المناسب للحيلولة دون تلؤؤ اسم أوتيلى على فواصل الواجهة ؛ فاستطاع بمهارة أن يمنع منه وأن يُنجس الحروف من الزهر بعد أن كانت قد أعيدت فعلاً .

ورفع التاج وتبدى من بعيد فى هذا الإقليم . ورفرفت الشرط
والمناديل العديدة الألوان وتلاعبت بها الرياح ؛ وتبدد الشطر الأكبر من
خطبة قصيرة أقيمت فى الهواء ؛ وقارب الاحتفال الرسمى نهايته ؛ وكان
الرقص بسبيل الابتداء ، فوق مكان أحيط بالأوراق ومُهد خير تمهيد ،
يقوم قبالة المنزل . واقتاد نجارُ شاب ، فى لباس العيد ، فتاة ريفية رقيقة
إلى إدورد ، والتمس من أوتيلى ، وكانت إلى جواره ، أن ترافقه . وسرعان
ما قلدهما الكثيرون . وأسرع إدورد باستبدال مرافقته . فأمسك بأوتيلى
ورقص معها رقصه الدائرية (الفَلْتِس) . وشارك شباب الجماعة فى سرور
ومرح الشعب فى رقصاته ، بينما استدار الكبار حول الرافضين .

وقبل أن يتفرق الشمل للتريض ، اتفقوا على الاجتماع ناحية الدُّلَب
عند مغيب الشمس . وكان البارون أول الواصلين ، فنظم كل شيء وتفاهم
مع خادم غرفته ، وقد كان عليه أن يسهر على التنفيذ وهو قائم على الناحية
الأخرى مع عامل السواريح .

بيد أن الكاتبن لم ينظر إلى هذه الإعدادات بعين الرضا والسرور ،
وشاء أن يصور لصديقه الازدحام الكبير المنتظر ؛ لكن إدورد سأله ،
بشيء من الحدة ، أن يدعه وحده يشرف على هذا الجزء من برنامج الاحتفال .
وها هو ذا الجمع قد احتشد فوق السدود التى قطع أعلاها وأزيلت
الحشائش منها فى الأماكن التى كانت الأرض فيها غير مهيّدة ولا مستوية .
وغابت الشمس ، وولد الشفق ، وفى انتظار زيادة الإظلام أديرت المربطات
على المجتمعين تحت الدُّلَب . وتبدى هذا المكان موفور الفتنة والجمال ،
وسرَّ القوم بفكره مكان تأمل بحيرة كبيرة من هذا الموضع ، بحيرة
تعلوها شيطان رائحة .

وكانت أمسيةٌ ساجيةٌ لا تملو فيها الريح ، بَشَّرت بِانْجَاحِ العيدِ الليلي ،
وإذا بصرخاتٍ مربعةٍ تتردد في الحال فجأةً : فقد أنهارت قطع ضخمة
من الأرض وانفصلت عن السد ؛ وشوهد كثير من الناس يُدفع بهم في
الماء ؛ وتداعت الأرض تحت ضغط الحشد وتدافعه ، وقد ازداد شيئاً
فشيئاً ؛ فقد شاء كلُّ أن يحظى بخير موضع ، ولم يستطع أحد بعدُ أن
يتقدم أو يتقهقر .

وهُرعَ الجمعُ للنظر أكثر منه العمل . وأيم الحق ، ماذا كان في
الوسع عمله حيث لم يكن من الميسور بلوغ المكان الذي وقع الحادث فيه ؟
وأقبل الكابتن ومعه رجال أشداء ، وأمر الجميعَ بالنزول من السد إلى ناحية
الشطآن ، كيما تتسع فرصة العمل لهؤلاء الذين حاولوا إنقاذ الفرقِ المساكين
من الماء . وها هم جميعاً أولاء قد استطاعوا بلوغ الشاطئ ، إما بمجهودهم
الخاصة أو بمعمونة الآخرين ، اللهم إلا فتى صغيراً حملته حركانه المتدافعة على
الابتعاد عن السد بدلاً من الاقتراب منه . ولاح أن قواه خاتته ، فلم يكن
يُشاهد منه أحياناً إلا قدم أو يد لا تزال تتراءى .

ولسوء الحظ كان الزورق في العُدوة الأخرى ، مليئاً بالسواريح . ولم
يكن في المستطاع تفريغ حمولته إلا ببطء ، فكان لا مناص من محاولة
إسعافه في التو . هنالك عزم الكابتن على النهوض بهذا الأمر ، نخلع ملابسه ،
وشخصت كل الأبصار إليه ، وبعث قوامه المَرِن العصبى الثقة في نفوس
الجميع ؛ غير أن هؤلاء أرسلوا صيحة دهشة واستغراب حيناً رأوه يلقي
بنفسه في الماء . فتابعت كلُّ النظرات هذا السباحَ الماهرَ الذي سرعان
ما ظفر بالفتى الصغير وعاد به إلى السد ، لكن لم يبد عليه أثر الحياة .

وبقوة المجاديف أُتِيَ بالزورق ، فصمده الكابتن ، واستعلم بدقة من

الأشخاص الحاضرين عما إذا كان الكل قد أُنقِدوا . ووصل الجراح وعُنى بالصبي الذي ظن الكل أنه مات . وهُرعت شرلوت سائلة الكابتن ألا يفكر بعدُ إلا في أمر نفسه ، وأن يعود إلى القصر لاستبدال ملابسه . فتردد إلى أن صرح أشخاص هادئون أذكىء رأوا الحادث عن قرب وأسرعوا هم أنفسهم بانتشال المساكين من الماء — صرحوا له بكل عرجة من الأيمان أن الجميع قد نَجَوْا .

وشاهدته شرلوت وهو يغدو إلى المنزل ؛ وأفكرت في أن الخمر والشاي وكل ما هو ضروري قد أغلق عليه بفتحاح ، وفي أن الناس في مثل هذه الأحوال يعملون كل شيء على عكس ما يجب . فَصَدَّت وسط الجماعة المشتتة وقد كانت هذه الجماعة لا تزال مائلة تحت أشجار الدُّلب ؛ ورأت إدورد مشغولاً باقناع كلِّ بالبقاء ، وقد أوشك على إعطاء الإشارة لإطلاق السواريح . فاقتربت منه وتوسلت إليه أن يصرف النظر عن أُلْهِيَةِ لن يكون هذا موضعها ولم يكن من المستطاع التمتع بها في تلك الساعة ؛ وذكرته بالعناية التي يجب بذلها للصبي المُنقَذ ولمُنقِذه .

فأجاب إدورد : « سيقوم الجراح بواجبه . فقد زُوِّد بكل شيء ، ولن يكون من شأن استعجالنا إلا مضايقته » .

غير أن شرلوت أصرَّت ، وأشارت إلى أوتيل ، فتهيأت هذه لمغادرة المكان تَوّاً . فأمسك إدورد بيدها وصاح : « لن نُنْهِى هذا اليوم في المستشفى . إن فيها من الخير ما يُأهِّلها لأن تكون من أخوات الإحسان . والذين يتبدون موتى ليسوا في حاجة إلينا كيما يستيقظوا ، كما أن الأحياء في غير حاجة إلينا كيما يحجفوا أنفسهم » .

فالتزمت شرلوت الصمت ومضت ، يتبعها الكثيرون ، وبتلوها

آخرون ، ولم يشأ أحد أن يكون آخر الزاهيين ، وقليلًا قليلًا تبدد الجمع .
ولم يبق إلا إدورد وأوتيلي وحدهما تحت الدُّلْب . لقد شاء أن يظل هاهنا
مهما كان الأمر ، على الرغم من شدة توسلاتها وحرارة تضرعاتها إليه أن
يعود معها إلى القصر .

وصاح : « كلا ، أوتيلي ! فإن الخارق للعادة لا يسلك السبل الممهدة
المعتادة . فإن هذا الحادث غير المتوقع الذى جرى هذا المساء قد وحد بيننا
بطريقة أسرع . إنك لى ، هكذا قلت لك من قبل وأقسمت مراراً ؛ ولسنا
نريد بعدُ أن نقسم به ولا أن نتفوّه : فهذا شئ قد تم الآن » .
وتقدم الزورق من المُدوّة الأخرى : لقد كان به خادم الغرفة أتى
يسأل ، بلهجة مضطربة ، عن مصير السوارىخ .

« أَطْلِقْهَا ! هكذا صاح فيه البارون . لقد أعدت من أجلك ، أى
أوتيلي ! وستكونين وحدك من يشاهدها . فاسمحي لى بالتمتع بمراقبتها
إلى جوارك » .

واتخذ مجلسه إلى جوارها ، بشئ من التحفظ الرقيق ، دون أن يَمَسَّهَا .
وانطلقت الشُّهُمان ، وترددت الطلقات ، وإصاعدت النجوم ،
واندفعت الأفاعى النارية وتلألأت ، وصَفَرَتِ الشُّمُوس : فى البدء منفردة
ومن بعد أزواجا ، ثم جماعات جماعات ، وفى كل مرة يزداد بريقها ، بالتوالى
أو السُكُل معا . وتابع إدورد — موَّله الفؤاد — منظر هذه الشُّعَل بعيون
راضية زاهية ؛ أما أوتيلي ، وقد تأثرت برقة ، فقد شعرت بقلق أولى من
أن تشعر بلذة أمام هذه النيران الصاخبة ، هذه البروق التى لم تكن تشتمل
إلا لتتلفن . فالت إلى إدورد فى استحياء ، وملأه هذا الميل ، وهذه الثقة ،
يقينا بأنها قد صارت له بكل كيانها .

وما تربع الليل عرشه حتى أشرق القمر ليضيء سبيل العاشقين وهما يعودان إلى القصر . ثم اعترض طريقهما رجل ، قبعته في يده ، سائلاً إحساناً ، لأنه أهمل في يوم العيد هذا . وقد أضاء القمر بحياه ، وتوسم فيه البارون ملامح السائل الثقيل . لكن لما كان مفعماً آنذاك بالسرور ، فقد عز عليه الغضب ، ولم يخطر بباله أن التسول قد منع في ذلك اليوم منعاً باتاً . ولم يقتش طويلاً في جيبه ، وأعطى المسكين قطعة من الذهب . لقد كان بوده أن يشيع السعادة في جميع الناس ، لأنه أحس بأن سعادته لم تكن حينئذ ذات حد ولا نهاية .

وفي القصر سار كل شيء على ما يرام . فهاجرة الجراح وسرعة الإسعاف ومعمونة شرلوت ، كل هذا قد تضافر على رد الصبي إلى الحياة ، وتفرق الضيوف ، إما لرؤية شيء من السواريح من بعيد ، أو ليأووا بعد هذا المنظر المضطرب إلى مخادعهم الوادعة .

والسكابتين ، بدوره ، شارك مشاركة فعالة في العناية اللازمة ، بعد أن أبدل ملابسه . وعاد السكون ، وصار وحيداً مع شرلوت . هنالك ، وبما للصدقة من ثقة وإخلاص ، صرح لها بأن رجليه قريب . وهي كانت قد عانت الكثير في المساء ، حتى إن هذا الخبر لم يؤثر فيها كثيراً . لقد رأت تقافى صديقها ، وهو ينقذ الآخرين ، ورأيتة ناجياً هو نفسه . فتبدت لها هذه الأحداث الغريبة كأنها تنذر بمستقبل خطير ، ولكنه ليس بانساً ولا مشئوماً .

كذلك أنسي إدورد ، وقد عاد مع أوتيل ، بنبا هذا الرحيل القريب ، وحدس أن شرلوت لا بد أن تكون قد علمت بالخبر قبله ، لكنه كان من الاشتغال بنفسه وبمشروعاته بحيث لم يشعر بإهانة من هذه الناحية .

بل بالعكس ، تلقى نبأ هذا المركز الجيد المحترم الذى سيوضع فيه الكابتن بسرور وشوق . لقد كانت آماله المستورة تسبق الحوادث بسرعة وحمية . وها هو ذا يتمثل اتحاده بشرلوت واتحاد نفسه بأوتيل . وما كان لهدية خيراً من هذه أن تحظى منه بالقبول فى هذا العيد .

لكن كم كانت دهشة الفتاة حينما دخلت مخدعها فشاهدت الصندوق الثمين فوق منضدتها ! وسرعان ما فتحتة ، فتبدى لها كل شيء محكم الحزم جيد التنسيق ، حتى إنها لم تكذب تجرؤ على نقل شيء من مكانه ، أو المساس به . فالوصلى والقصى (الباتستا) والحرير والشيلان والدنتلة كان ينافس بعضها بعضاً فى الدقة والأناقة والجمال . ولم ينبس الخلى . ففهمت تمام الفهم أن إدورد قد قصد إلى أن يهيء لها لباساً كاملاً من الرأس حتى القدمين ؛ بيد أنها وجدت كل شيء من النفاسة والندرة بحيث لم تجرؤ على الاعتقاد بأن هذا كله من أجلها .

الفصل السادس عشر

وفى الغد كان الكابتن قد ارتحل تاركاً لأصدقائه رسالة مليئة بشواهد شكرانه العميم . لقد كان ودّع شرلوت فى المساء السابق بكلمات وِداع قصار . فشعرتُ بأن هذا الانفصال سيكون إلى الأبد ، فاستسلمت : ذلك أن الرسالة الثانية من الكونت — وقد أطلع الكابتنُ شرلوتَ عليها — قد تحدثت عن إمكان إيجاد زواج للكابتن موفّق ؛ وعلى الرغم من أنه لم يُمر هذه المسألة أىّ اهتمام فإنها هى قد عدّت هذه المسألة ثابتة يقينية ، فكفت عنه نهائياً .

بيد أنها اعتقدت أن في وسعها أن تطالب الآخرين بالجهد الذي بذلته نفسها . فما كان غير مستحيل بالنسبة إليها يجب أن لا يكون مستحيلاً أيضاً بالنسبة إلى الآخرين . وتحت تأثير هذه الفكرة دخلت مع زوجها في حديث كان فيه من الصراحة والإخلاص بقدر ما كان يجب الانتهاء من المسألة إلى غير رجعة .

قالت له : « لقد غادرنا صديقنا ؛ وها نحن أولاء من جديد في مواجهة بعضنا بعضاً كما كنا من قبل ، ولا يتوقف إلا علينا أن نعود إلى ما كنا عليه من قبل تماماً »

ولكن إدورد ، الذي لم يكن يستمع إلا إلى ما يتعلق عاطفته . ظن أن هذه الكلمات ، من شرلوت يقصد بها الإشارة إلى حالة ترملمها ، وأنها تريد — وإن يكن ذلك بطريقة غامضة — منه أن يجعلها تؤمل في طلاق . لهذا أحاب باسمًا :

— ولم لا ؟ كل ما في الأمر أن نتفاهم .

غير أنه وجد نفسه واهماً ، حينما أضافت شرلوت قائلة : « أما فيما يتصل بأوتيلي ، فلنكن نضعها في وضع آخر ، فليس لنا إلا أن نختار إحدى خصلتين ، لأن أمامنا فرصتين لوضعها في مركز مرغوب بالنسبة إليها . فهي إما أن تعود إلى المدرسة الداخلية ، ما دامت بنتى قد استقرت عند خالتها ؛ وإما أن تقبل في بيت كبير ، كما تتمتع ، هي وابنة وحيدة ، بكل مزايا التربية الممتازة .

— ومع هذا ، هكذا قال إدورد بلهجة فيها الكثير من الهدوء ، فإن أوتيلي قد صارت طفلة مدللة وسط أصدقائها ، وسيكون من الصعب عليها أن تنعم في جماعة أخرى .

— لقد اتخذنا نحن جميعاً عادات مردولة ، هكذا قالت شرلوت ،

وأنت أولنا . لكن ها هي ذى لحظة تدعونا إلى التفكير ، وتنصحنا جديا بالتفكير في أكبر خير لجميع أعضاء جماعتنا الصغيرة ، وعدم رفض القيام ببعض التضحية .

فماد إدورد يقول : أقل ما في الأمر أنني لا أرى من العدل أن نضحى بأوتيلي ، وهذا ما سيحدث لو أُلقي بها الآن وسط أناس غرباء . إن نجم الكابتن السعيد قد سعى إليه هنا ؛ ففي وسعنا إذن أن ندعه يرحل في اطمئنان ، بل وبسرور . أما هي ، فمن ذا الذي يدرى أى مصير خبيء لها ؟ لماذا نتعجل نحن الأمور ؟

— إن المصير المقدر لنا واضح ، بهذا أجابت شرلوت وقد غلبها شيء من الانفعال . ولما كانت قد استقر عزمها على التفاهم معه نهائيا ، فقد أردفت : « إنك تحب أوتيلي ، وتعودها على حضرتك ووجودك . وإن الحب والعاطفة ليولدان وينموان أيضا لديها . فلماذا لا تصرح إذا بما تصرح كل ساعة تمر به وتكشف عنه ؟ أفلا نتحلى بشيء من الفطنة كما نسائل أنفسنا ماذا سيؤول إليه كل هذا ؟

فقال إدورد وقد استجمع قواه : على الرغم من إنه ليس في وسع المرء أن يجيب عن هذا السؤال في الحال ، فيمكنه على الأقل أن يقول إنه إذا كان علينا أن نختار انتظار ما سيأتي به الغد ، فما ذلك إلا حينما لا نستطيع أن نتنبأ يقيناً بنتائج المسألة .

فأجابت شرلوت : للتنبؤ بنتائج هذه المسألة التي نحن بصدددها ، لا حاجة إلى كبير حكمة : وعلى كل حال فيمكن أن يقال إننا لسنا من حداثة السن بالدرجة التي تجعلنا نخضى على غير هدى إلى حيث لا نريد ولا يجب علينا أن نذهب . ليس في استطاعة أحد أن يسهر على أمورنا بعد ، بل يجب

أن نكون أصدقاء أنفسنا ، والمهيمنين عليها . وما من إنسان ينتظر منا أن نقع في أشنع ضلال ، ولا أن نجد موضعاً للوم أو السخرية .

فقال ، وهو لا يدري كيف يرد على لهجة زوجته الصريحة المخلصة :
 « أتقدرين على لوى وتقريعى لأنى أهتم بسعادة أوتيل ؟ لا بسعادتها المستقبلية ، فهذه فوق متناول تقديرنا ، ولكن بسعادتنا الحاضرة ؟ تصورى لنفسك ، بكل صراحة ، وبدون وهم ، أن أوتيل قد انتزعت من منزلنا وألقى بها بين أحضان الغرباء ! . . . بالنسبة إلى على الأقل ، لا أشعر بأن عندى من القسوة ما يسمح لى بأن أفرض عليها مثل هذا التغيير » .

فرأت شرلوت بوضوح ، وراء تحفى زوجها وتوريقته ، ماذا كان عزمه . هنالك أحست بمقدار ما يفرق بينها وبينه . فصاحت منفعة :

— أيمكن أن تكون أوتيل سعيدة ، إذا فرقت بيننا ؟ إذا سلبتني زوجي ؟ إذا انتزعت أباً من أولاده ؟

— فيما يتصل بأبنائنا ، هكذا قال إدورد بابتسامة باردة ، كنت أعتقد أننا أعددنا كل شيء .

ثم أضاف بلمحة فيها شيء من الصداقة والود أكثر : « من ذا الذى سيذهب به الفكر إذاً إلى مثل هذه النتائج البعيدة » ؟

— هذه النتائج البعيدة تمس العاطفة عن قرب ، هكذا لاحظت شرلوت . لا ترفض إذاً النصيحة الصادقة والمؤنة التى أقدمها إليك معاً ، قبل أن يفوت الأوان . فى الأحوال العسيرة يجب على من يرى على نحو أوضح أن يعمل ويبذل العون . واليوم هذه حالى . فدعنى إذاً ، يا عزيزى إدورد ، يا أعز أعزائى ، دعنى أعمل . هل فى وسعك أن تطالب بأن أعزف فى الحال عن سعادتى المشروعة ، عن أعز حقوقى ، عنك أنت ؟

— من قال هذا ؟ هكذا عاد يقول في شيء من التلثم .

— أنت نفسك ! حينما تريد أن تحتفظ بأوتيل إلى جوارنا ، أفلا تعترف بهذا ، بكل ما لا بد أن ينشأ عنه ؟ لا أريد الإلحاح ، لكن إذا لم تستطع أن تكبح جماح نفسك ، فإنك لا تستطيع على الأقل أن تحدد نفسك طويلا .

فشعر إدورد بمبلغ ما في كلامها من صواب وسداد رأى . وإن الكلمة التي يتفوه بها المرء لخطيرة مريعة ، إذا عبرت في الحال عن كل ما استباحه المرء لنفسه طويلا في السر . ولكي يتخلص من الموقف قليلا أجاب : « لست أتبين بعدُ نيتك » .

— نيتي أن أوازن معك بين الاقتراحين . ولكل منهما مزاياه . فالدرسة الداخلية أكثر فائدة لأوتيل بالنسبة إلى الحال التي فيها أرى اليوم هذه الفتاة ؛ لكن الموقف الآخر ، وهو أعظم وأجل ، يبشر بما هو أفضل ، حينما أفكر فيما يجب أن تسكون عليه يوماً ما .
هنالك عرضت شرلوت بالتفصيل لزوجها حقيقة المراكزين ، وختمت بهذه الكلمات :

— وعندي أن منزل هذه السيدة أفضل لأسباب عدة ، أخص بالذكر منها أنني لا أريد أن أزيد في ميل ، أو بالأحرى عاطفة المعلم الشاب نحو أوتيل .

ولاح أن إدورد رافأها على رأيها ، لكن هذا كان من أجل كسب الوقت فحسب . وشرلوت من جانبها قد أرادت الوصول إلى شيء حاسم ، فانهزت اللحظة التي لم يواجهها فيها بمعارضة مباشرة ، وحددت رحيل ابنة أختها على أن يكون في الأيام القريبة العاجلة : وهي كانت قد هيأت كل

شئ في السر .

فاستولت الرعدة على نفس إدورد ، وُخِيلَ إليه أنه وقع في شرك خيانة ، وظن أن اللغة الرقيقة التي تحدثت بها زوجته كانت مقصودة مدبرة مصطنعة قد حُبِكَت أطرافها من أجل إبعاده نهائياً عن ينبوع سعادته . فتظاهر بأنه يدع المسألة كلها بين يديها ، ولكنه في الواقع قد يئست أمراً . فلكى يجد وقتاً للتنفس ، ويمنع الشقاء المالحق المائل ، الشقاء الذي سيسببه ابتعاد أوتيلي ، صمم على مغادرة القصر ؛ ولم يتم هذا دون أن ينبى شرلوت ، بعض النبأ ، وإن استطاع مع هذا أن يخدعها مُدّعياً أنه لا يريد أن يكون حاضراً رحيل أوتيلي ، بل إنه لا يريد منذ الآن أن يراها . وشرلوت ، التي ظنت أنها كسبت المعركة كلها ، مهتدة له كل السبل . فأمر بإعداد جياده ، وأصدر إلى خادم غرفته الأوامر اللازمة ، وأوضح المتاع الذي يريد أن يحمله معه ، وبين على أى نحو ستكون صحبته ؛ وأخيراً وحيثما كان على بتات الرحيل جلس إلى مكتبه ، وخط الرسالة التالية :

من إدورد إلى شرلوت

عزيزتى :

ليت شعري أنشفي من الداء الذى فاجأنا أم لا نشفي ؛ فليست أحس إلا بشيء واحد هو أن الواجب يقضى بأن أمنح نفسي ، بل نفسينا معاً ، هدنة ، كيلا نقع منذ الآن في حبال اليأس والقنوط . ومادمت أنا قد ضحيت ، فإننى أطالب بها . وهأنذا أغادر منزلى ولن أعود إليه إلا فى أحوال أكثر سعادة وهدوءاً . وستقطنين أنت به خلال تلك الفترة ، لكن ومعك

أوتيل . أريد أن أعلم أنها إلى جوارك ، لا عند قوم غرباء . فابذلي لها عنايتك ، وعاملها كما كنت تفعلين من قبل ، وإلى اليوم ، بل مع إحسان أكبر وزيادة في الرقة والحنان . وأنا أعدك ألا أسعى في إيجاد أية صلة سرية معها . بل دعيني زماناً أجهل فيه كيف تحمين : فسأظن أن كل شيء سيسير على ما نهوى . وتمثلي نفس الفكرة عني . لستُ أسألك إلا أمراً واحداً ، أسألك إياه بكل قوة وإلحاح ، وهو ألا تبذلي أي جهد أو محاولة لنقل أوتيل إلى أي مكان ، أولتعديل وضعها . فإن خرجت عن نطاق قصرك وبُستانك ، وُسُمت لغرباء ، صارت ملكاً لي ، وظفرت بها . لكن إذا احترمت عاطفتي وأمانتي وآمالي ، وإذا تملقت أوهامي وآمالي ، فلن أرفض الشفاء حينما يتقدم إليّ .

وهذه الكلمات الأخيرة إنما جرت من قلبه لا من قلبه . بل إنه حينما رآها مخطوطة على الورق ذَرَفَ مَرَّ العبرات . لقد كان عليه ، أيّاماً كانت الحال ، أن يزهد في السعادة ، بل في الشقاء ، الذي سيأتي به حبسه لأوتيل ! هنالك ، وهنالك فحسب ، أحس بمدى ما فعل . إنه سيبتعد وهو لا يدرى ماذا سيحدث عن هذا الفراق . إنه لن يستطيع على الأقل أن يحظى برؤيتها الآن . وأي أمل يمكن أن يداعبه مؤكداً له أنه سيراها يوماً ما ؟ لكن الرسالة قد سُطِّرت ، والخيول أمام الباب هَيَّئَتْ ، وكان يخشى في كل لحظة أن يلتقي بحبيبتته ، وأن يرى في الآف نفسه عزمه قد تلاشى وغار . فاستجمع كل قواه ، وقال لنفسه إنه يستطيع على كل حال أن يعود حينما يشاء ، وإن في ابتعاده لقرباً من هدف رغبته . وتمثل لنفسه ، على العكس من هذا ، كيف أن أوتيل — إذا بقى هو ولم يرحل — ستُضْطَرُّ

إلى مغادرة المنزل . نغم الرسالة وهبط الدرج بسرعة ، ووثب على صهوة جواده .

وحينما مر أمام الفندق ، أبصر تحت العريش السائل الذى أجزل له بالأمس الصدقة ، وهو يتناول الغداء بسرور . فهض وحياً البارون باحترام وتوقير . لقد رأى إدورد هذا الوجه نفسه فى اليوم السابق وهو يصطحب أوتيلى تحت ذراعه ؛ فذكره متأثلاً بأجل ساعة أمضاها فى محياه . فازداد ألمه عتواً ومرارة . فإن شعوره نحو ما هجره لم يكن له قبـل به ؛ فألقى بنظرة إلى السائل مرة أخرى . وقال من أعماق قلبه : « كم أنت جدير بأن تحسد على ما أنت فيه ! إن صدقة الأمس لا تزال تغذيك ؛ أما سعادتى بالأمس فإنها لم تعد بعد تغذيني » .

الفصل السابع عشر

هـرعت أوتيلى إلى النافذة فى اللحظة التى سمعت فيها صوت إنسان يرحل ممتطياً جواداً ، وكان فى سماعها بمسء أن ترى إدورد من الخلف . ودهشت كل الدهشة لأنه ارتحل دون أن يراها ، ودون أن يحيطها تحية الصباح . فاستولى عليها القلق ، وازداد إفكارها ، حينما أخذتها شملوت معها فى زهرة طويلة ، حدثها إبانها فى موضوعات شتى ، لكنها تجنبت عن قصد — كما يلوح — التفوه باسم زوجها . وازداد ألمها أكثر وأكثر حينما عادت ولم تجد على المائدة إلا أدوات طعام لاثنتين فحسب .

ليس فى وسعنا التخلى بلا أسف عن عادات تلوح تافهة ؛ لكننا نشعر بأفدح الألم لمثل هذا الحرمان حينما تقع فى أحوال خطيرة . لقد غاب إدورد

كما غاب الكابتن ؛ ولأول مرة منذ زمان طويل أمرت شرلوت هي نفسها بإعداد الغداء ، وشعرت أوتيلي بأنها طليحة سلب وحرمان ومهينة فقُـدَان . وجلسَت السيدتان الواحدة قبالة الأخرى : شرلوت تتحدث بلهجة كلها طبيعية عن المركز الجديد الذى شغله الكابتن وضعف الأمل فى رؤيته عن قريب ؛ أما عزاء أوتيلي الوحيد فكان أنها استطاعت أن تعتقد أن إدورد امتطى الجواد لكي يصطحب صديقَه بعضَ المسافة .

لكنهما حينما نهضا من المائدة رأيا تحت النافذة عربةَ سفر البارون ؛ ولما سألت شرلوت - بشئ من الضيق - عمن وضعها فى ذلك المكان أجيب بأنه خادم الغرفة هو الذى فعل لأنه يريد أن يحزم بعض المتاع . وكان على أوتيلي أن تستجمع كل قواها لتخفى دهشتها والتياعها .

ودخل خادم الغرفة وسأل عن أشياء أخرى : منها فنجان سيده وبعض الملاعق الفضية وأدوات أخرى تؤذن بالسفر الشاحط والغيبة الطويلة . فأجابته شرلوت بكل جفاف قائلة إنها لا تدري ماذا يعنى ، لأنه هو الذى كان يقوم على حراسة كل ما يتعلق بسيده من أدوات . فاعتذر هذا العايب الساكر الذى لم يكن يريد إلا أن يقول بضع كلمات للفتاة (أوتيلي) وأن يدعوها إلى خارج الغرفة متذرعاً بأية تملة ؛ اعتذر ولكنه أصر على سؤاله الذى كان بודהا هى أن تتقبله قبولاً حسناً ؛ فرفضت شرلوت ، مما اضطر خادم الغرفة إلى الانسحاب . وسارت المركبة .

كم كانت هذه اللحظة مرعبة رهيبة عند أوتيلي ! إنها لم تسمع شيئاً ولم تفهم فتيلة ، لكنها استطاعت أن تحس بأن إدورد قد انتزع منها إلى وقت طويل . فتأثرت شرلوت لحالها وتركها وحدها . ولئن نحاول نحن أن نصف أشجانها ولا عبراتها . لقد تقسّمتها المومُ وتوزّعت نفسها الفسكر .

فتضرعت إلى الله أن يعينها على قضاء ذلك اليوم وحده على الأقل .
لكنها تضرعت الأيام والليالي ، وحينما آب إليها رشدها لم تستطع أن
تعرّف نفسها .

لم تنصرف عنها دواعي العلة ، ولم تتخذ إلى التسليم سبيبا ؛ بيد أنها بعد
هذه الخسارة الفادحة كانت لا تزال تتخوّف أعظم الهول . وكان أول
قلقها ومخاوفها ، حينما عادت إلى نفسها ، أن يكون مصيرها أيضاً إلى الإبعاد
بعد رحيل إدورد والكابتن . وهى لم تعلم شيئاً عن تهديدات إدورد التى
ضمنت لها المقام إلى جوار شرلوت . غير أن البارونة استطاعت بمسلكها
بازائها أن تشيع في نفسها نوعاً من الطمأنينة . لقد سمعت في شغل الفتاة
المسكينة ، ولم تكن تفارقها إلا نادراً ، وفي شيء من الأسف . لقد كانت
تعرف جيداً أن الكلمات قليلة الأثر في وجدان راسخ مشبوب ؛ بيد أنها
كانت تعلم أيضاً ما للتفكير من سلطان وما للضمير من صولة ، ولم تتوان
عن التحدث معها عن موضوعات شتى .

فمثلاً كان من أكبر دواعي عزاء ابنة أختها أن تاتى عليها ، عن قصد
ولباقة ، تأملات وخواطر حكيمة ، من هذا النوع :

« ما أحر شكران هؤلاء الذين نعينهم برفقٍ على الخروج من المآزق
التي توقعهم العواطف فيها ! فنبادر إلى العمل في هذا الناحية بحماسة وسرور ،
كَمَا نَكْمِل ما تركه أصدقاؤنا ناقصا : بهذا نهى لأنفسنا أجل ظرف وخير
حال تنفق وساعة العودة والإياب ، وذلك بأن نستخدم اعتدالنا في ضبط
ما كان اندفاعهم وقلة اضطبارهم خليقين بإفساده وتحطيمه .

— فأجابت أوتيل : ما دمتِ يا خالتي تتحدثين عن الاعتدال ، فلا
أستطيع أن أكتمك أننى دهشت من سلوك الرجال المتهور ، خصوصاً في

شرب الخمر . ولكم شقَّ علىَّ وآلمنى أن أرى العقل الكامل والفتنة الراجحة والرفقة واللطف والإيناس كلّها تضيع وتذهب ، ولو لمدة ساعات قلائل ؛ وأن أشاهد ، بدلا من كل الخير الذى يمكن الرجل الممتاز أن يسديه ، ما يأتى به من شرور واضطراب وفساد . وكمن مرة أدى هذا إلى ارتكاب أعمال عنيفة !

وأُنتت شرلوت على هذه الحواطر ، لكنها لم تتابع الحديث ، لأنها أحست جيداً أن أوتيلى لم تُفكر آنذاك إلا فى إدورد الذى كان يطلق لنفسه العنان — لا عن عادة ، بل وفقاً للظروف وأكثر مما يجب — فى إهانة السرور والحديث والنشاط عنده باستخدام الخمر .

وإذا كانت كلمات شرلوت قد استطاعت أن تذكر ربيبتها بالرجال عامة وإدورد خاصة ، فإن الفتاة قد دهشت كل الدهشة من سماع شرلوت تتحدث عن زواج الكابتن عاجلا ، تتحدث عنه كشيء معروف ومفروغ منه مما أعطى المسألة وجهاً جديداً مخالفاً لما كانت تتصوره بسبب تأكيدات إدورد السابقة ، مما أدى بها إلى زيادة اهتمامها بكل كلمة وكل حركة وكل فعل ومسلك تقوم به شرلوت . لقد صارت بارعة نافذة البصيرة تحسن الظن والاتهام دون أن تدرى .

غير أن البارونة ، بما لها من نفوذ طبيعى فى الإدراك وسلامة نظرة ، تدخلت فى كل تفاصيل الشؤون المنزلية ، وبذلت فيها مهارتها الذكية ، مضطرة ابنة أختها إلى المشاركة فيها بمثابرة ونشاط . وقللت النفقات ، دون أن تقع فى كزازة مثيرة . ولما قلبت المسألة على كل وجوها نظرت إلى العواطف التى شبّت كأنها قسمة عادلة وحظ سعيد ، لأنهم لو تابعوا السير فى الطريق التى ولجوها لضاعوا بسهولة فى هاوية نفقات لا تنتهى ،

ولو تقدموا في هذا السبيل باستمرار ، دون أن ينتبهوا في الوقت المناسب ، لززعوا قسماً كبيراً من ثروتهم ، إن لم تضع كلها .

تركت الأعمال التي ابتدأت تسلك سبيلها ؛ فاستمرت في المنشآت التي أعدت لتكون أساساً للتجملات المقبلة . لكنها اقتصرت على هذا : إذ سيجد إدورد عند أوبته ما يكفيه ملاحى ومشاعل .

وكان نصيب المهندس المعمارى في هذه الأعمال والتصميمات فوق كل ثناء . ففي زمن قليل رأت البحيرة تتبدى أمامها والشطآن الجديدة مغطاة بالمزروعات والحشائش ، في أناقة وجمال تنوع . وفي البيت الجديد كان الشطر الأكبر من العمل قد انتهى ، وأعد كل ما هو لازم للمحافظة عليه ؛ ولم تتوقف شروعات إلا عند النقطة التي يمكن استئناف العمل فيها بسرور . وفي هذه المشاغل كلها ، كانت آمنة السرّب راضية البال . أما أوتيلى فلم تكن كذلك إلا في الظاهر فحسب ، لأنها لم تكن ترى في كل شيء إلا أعراضاً وشواهد تريد أن تستدل منها على قرب عودة إدورد أو بعدها . إذ لم يكن يعينها شيء غير هذا الخاطر .

لهذا نظرت بعين السرور إلى إجراء حشد من أجله كل أطفال القرية ، قصد منه السهر على نظافة البستان الذي وسعوه . ولقد خطرت هذه الفكرة من قبل ببال إدورد . فألبس الأولاد نوعاً من الزى اللطيف ارتدوه قبل المساء بعد أن اغتسلوا ورحضوا ثيابهم . وأودعت خزانة هذه الملابس في القصر ، ووكلت العناية بها إلى أعقل هؤلاء الأطفال وأحرصهم . وسلك هؤلاء مسلكين عن الإذعان والطاعة ، وقاموا بعملهم كأنه نوع من الاستعراض والمناورة . إنهم حينما كانوا يقبلون ومعهم مجارفهم ورفشهم ومشاطهم ومحافيرهم ومكانسهم ذات المراوح ،

ورائهم آخرون معهم السَّلال ليضعوا فيها الأحجار والحصى والحشائش الرديئة ؛ ويتلوهم فريق يجبر خلفه الأسطوانة الحديدية الكبيرة - كل هذا كان يقبدي موكباً جميلاً باسم ، وجد فيه المهندسُ سلسلةً بديعةً من الأعمال والحركات ، من أجل عمل إفريز لصفّة البستان . أما أوتيلي فإنها لم تر في هذا إلا نوعاً من الاستعراض قصد به إلى تحية السيد لدى عودته . وهذا ولد في نفسها الرغبة المُلحة في إعداد شيء من هذا القبيل عند وصوله . وكان القوم قد حاولوا حتى الآن أن يشجعوا الريفيات الفتيات على الخياطة والنسج والتطريز وما إليها من أعمال النساء . واستمرت هذه العادات الطيبة في تقدم منذ أن أصلح من أمر القرية وُجِّلت . كانت أوتيلي قد شاركت في هذه النواحي ، لكن هذا كان بطريقة عارضة غير منتظمة تحدوها الأهواء . أما الآن فقد رغبت في الاهتمام بهذه المسائل على نحو منتظم مُطرد . لكن ليس من الممكن إيجاد هيئة منتظمة من بنات صغار كما يمكن من فتیان صغار ؛ فاستمعت لصوت الحكمة فيها ، وبدون أن تتبين جيداً ما تفعل ، سمعت نحو شيء واحد هو أن توحى إلى كل واحدة من بناتها هؤلاء بالإخلاص لبيتها وأهلها وإخوتها وأخواتها .

وكل سعيها بالنجاح مع عدد كبير منهن . غير أن فتاة واحدة سَمِعوا كانت موضع الشكوى الدائمة ، قيل عنها إنها عارية عن المواهب ، ولم تشأ أن تعمل في البيت شيئاً . بيّدت أن أوتيلي لم تحنق على هذه الفتاة التي كانت تحمل لها ميلاً خاصاً متعلقة بشخصها ذاهبة غادية معها ، حيناً تسمح لها . هنالك كانت وافرة النشاط حمة الحياة لا يعرف إليها التعب سبيلاً . ولاح أن هذه الطفلة كانت تشعر بحاجة ملحة إلى التعلق بعملتها الجميلة (أوتيلي) . وفي البدء احتملت أوتيلي محبتها ، ثم جاء دورها فالت إليها ،

وأخيراً صاروا لا يفترقان ، وكانت نائتٌ تتبع معلمتها وسيدتها أينما حلت
وحيثما سارت .

وكثيراً ما كانت أوتيلي تغدو إلى البستان متملية بهذه الخضرة
الزاهية الزاهية . وكان موسم الفريز والكريز قد أوفى على الانتهاء ،
لكن نائتٌ وجدت بعد ما يلذها وتشهيه . أما الثمار الأخرى التي كانت
تعد بمحصول وافر في الخريف فقد كانت تعيد إلى البستان دائماً ذكرى
سيده ، وفي كل مرة كان دائماً يعبر عن ترجيه عودته . وكانت أوتيلي
تصني إلى الشيخ الطيب بسرور طافح . لقد كان يتقن مهنته ، يضاف إلى
هذا أنه كان دائب التحدث إليها عن إدورد .

وحيثما كشفت عن عميق سرورها لرؤية مثابر الربيع فد نجحت
كلها ، أجبها البستانى بلهجة يشوبها الهم :

— كل ما أتمناه أن يعود سيدنا الطيب فيجد فيه ما يلذه ويسره .
لو كان هنا هذا الخريف لرأى كم من الفصائل الثمينة لا يزال باقياً منذ عهد
السيد والده ، في حديقة القصر العتيقة . إن البستانيين اليوم ليسوا من
الثقة كما كان القدماء ، فلسنا نجد في الأثبات إلا أسماء جميلة : فنقوم بالتطعيم
والفرس والتنمية ، وحيثما تثمر أخيراً هذه المغارس ، نرى أن أمثال هذه
الأشجار لا تستحق مكاناً في البستان .

ولم يكن هذا الخادم الأمين يرى أوتيلي دون أن يسألها أخبار مولاه
ومتى يعود . ولما كانت عاجزة عن أن تنبئه بشيء ، أبان لها هذا الرجلُ
الساذج القلب — والألم في نفسه مكتوم — أنه يعتقد أنها لا تثق فيه ،
مما زاد في تألمها بشعورها بجهلها ، هذا الذي كانت أسئلته لها تثيرة في حدة
ومضض . ولكنها لم تستطع أن تتجنب هذه المغارس والمثابر . ذلك أن

ما بذراه سويا وغرساه كان حينئذ في تمام نضرتة ونماه : ولم يكن في حاجة إلى عناية أكبر مما تبذله نانت التي كانت دائماً تتعمده بالسُّقيا . وكم كان شعور أوتيلي وهي تنظر إلى الأزهار المتأخرة التي لم تكد تبدأ ، والتي تلاًلأ بهاؤها وجمالها من بعد معلنة حبها وشكرانها ، حينما يأتي يوم ميلاد إدورد الذي كثيراً ما داعبها أمل الاحتفال به ! لكن الأمل في هذا العيد لم يكن دائماً حاراً لديها : لأن الشك والهم كانا دائماً يتهاامسان صامتئين في نفس هذه الفتاة الطيبة الفؤاد .

إنها لم تستطع أن تعود إلى حالة الانسجام الحقيقي الصريح مع شرلوت . أجل ، لقد تغير موقف هاتين السيدتين تمام التغير . فلو أن كليهما عادت إلى الوضع القديم ، وسلكت سبيل الحياة المنتظمة لظفرت شرلوت بالنعيم الحاضر ولتفتح لها أفق جميل في المستقبل ؛ أما أوتيلي فكانت على العكس من هذا ستفقد كل شيء ، هكذا يمكن أن يقال . لقد وجدت في إدورد الحياة والنعيم ، وشعرت في وضعها الحالي أنها في هاوية الخلاء المحض والقفور الرهيب ، مما لم تكد تشعر بشيء منه قبل ولم تتوقعه . ذلك أن القلب الذي يسعى يشعر جيداً أن شيئاً يعوزه ؛ لكن القلب الذي فَقَدَ شيئاً فعلاً ، يشعر بحرمان حقيق ، والرغبة من شأنها أن تستحيل إلى سخط وقلق ؛ وإن قلب المرأة ، وقد تعود الانتظار والصبر ، ليستطيع أن يخرج من نطاقه ويصير فَعَّالاً ، فيعمل ويبذل وسعه لتحقيق شيء يؤدي إلى سعادته .

ما عَزَفَتْ أوتيلي عن إدورد ولا زَهَدَتْ فيه . وأني لها هذا ، على الرغم من أن شرلوت — مهما يكن من نفوذ بصيرتها — قد ساءها أن تعتقد — على عكس اقتناعها الحقيقي — أن هذا الزهد قد فُرِغ منه ، وخيل إليها بل أيقنت أن في الوسع إقامة صِلات صداقة هادئة فحسب بين

زوجها وابنة أختها ؟ لكن كم من مرة ، فى الليل ، جثت هذه الفتاة على ركبتيهما بعد أن أغلقت باب مخدعها ، جثت أمام الصندوق مفتوحاً وراحت تتأمل هدايا العيد التى لم تخرج منها بعد شيئاً ولم تعد أوتستخدم منها أيها ! وكم من مرة هُزعت الفتاة المسكينة ، منذ مطلع الشمس ، خارج المنزل الذى كانت تجد فى داخله قبل كل سعادتها ، هُزعت وغدت إلى الريف الضحيان الذى لم يكن قبلُ يتحدث إليها بشيء ولا تجد له لذة ولا معنى بل إنها لم تكن تقوى على المكوث على الأرض نفسها . لقد كانت تمش إلى الزورق ، وتقوده بواسطة المجداف ، حتى وسط البحيرة ، ثم تلتقط من جيبها وصفاً لرحلة ، وتدع نفسها تترجح فوق الأمواج المتأثرة ، وتقرأ ، حاملة بالبلاد البعيدة ، ناشدة فيها دائماً صديقها : لقد كانت تسكن قلب إدورد ، وهو الآخر كان دائماً يسكن قلب أوتيلى .

الفصل التاسع عشر

كان من المنتظر من ذلك الرجل الغريب الشيط الذى عرفناه من قبل ، ألا وهو متلر ، حينما تلقى نبأ العواصف التى هبت أخيراً على أصدقائه ، أن يشعر أنه مستعد لإظهار صداقته واستخدامها والإفادة بتجاربه ، على الرغم من أن أحد الطرفين لم يطلب منه بعد هذه المعونة . غير أنه وجد من الحكمة الانتظار قليلاً : لأنه كان يعلم حق العلم أن إيجاد الصالح بين الأشخاص المثقفين حينما يتنازعون أصعب منه بين الأشخاص غير المثقفين . لهذا ترك أصدقائه لأنفسهم مدة من الزمان ؛ وأخيراً حينما لم يستطع الاستمرار على تلك الحال ، هُرع فى طلب إدورد ، بعد أن استطاع اكتشاف آثاره .

أداه طريقه إلى واد جميل يقوم فيه ينبوع حى ثرّ ، حيناً يسير هادئاً
متمرججاً ، وحيناً آخر يغلى ويتوالب خلال البرارى المغطاة بالخضرة الرائعة
والظلال الوارفة . وعلى المنحدرات الرقيقة الميل تنبسط الحقول الخصبة
والمباقل الموفورة العناية . وكانت القرى قريباً بعضها من بعض ؛ وعلى
النظر كله مَسْحَة السجوّ والهدوء ، وما فيه من أنحاء وأصقاع ، إن لم
يكن فاتناً ، فقد كان كفيلاً يجعل الحياة عذبة ميسورة .

وترأت أمام عينه ضيعة مستكراة موفورة العناية ، فيها منزل أنيق
متواضع يقوم وسط الحداثق ، فاسترعى كلُّ هذا انتباهه ، وحدّس أن
هذا لا بد أن يكون مأوى إدورد . ولم يكن فى هذا الظن مخطئاً .

وكل ما نستطيع أن نقوله عن هذا الصديق المتوحد هو أنه فى عزالته
هذه قد استسلم تماماً لوجدانه المشبوب وأجال فى خاطره آلاف المشروعات
واقنات بعميد الأمانى والآمال . ولم يستطع أن يكتم نفسه أنه يريد أن
يرى أوتيل معه فى هذا المكان ، وأنه يود أن يقتادها ويجذبها إلى هذا
الملاذ . ولت شعري ماذا استباحه أيضاً لنفسه من تصورات بريئة وآئمة !
ثم استعرض خياله المضطرب كل الاحتمالات الممكنة . فإذا لم يكن له أن
يظفر بها هنا ، يظفر بها بطريق مشروع ، فهو يريد على الأقل أن يضمن لها
ملكية هذه الأرض . هنالك ستحمي لنفسها هادئة النفس مشتعلة الجنان
تظللها أطيايف السعادة ؛ بل حينما اقتاده خياله المعذب نفسه إلى مدى بعيد
خيل إليه أنه يراها تحيا هنا سعيدة مع شخص آخر غيره .

وعلى هذا النحو مضت أوقاته ، مترجّحة دائماً بين الخوف والرجاء ،
والدموع والهدوء ، والمشروعات والإعدادات والقنوط . ولما رأى متلرلم
يبدّ هشّ مطلقاً : بل كان يتوقع مجيئه منذ زمان طويل ، إذ كان مجيئه ساراً

له من بعض النواحي . ونظراً إلى أنه اعتقد أنه مرسل من قبل شرلوت ، فقد أعدَّ لهذا كل أنواع الاعتذار وألوان التخفيف ، بل واقترحات حاسمة ؛ لكن لما كان يأمل ، من ناحية أخرى ، أن يظفر منه ببعض من أنباء عن أوتيلي ، فإن متلر كان في نظره كأنه مبعوث من السماء .

لهذا استولى عليه الغم والاضطراب حينما علم أن صديقه الوافر الأدب لم يأت من قبل شرلوت ، وإنما من تلقاء نفسه . فانغلق مفتاح قلبه ، وتبدى في البدء أن الحديث غير ميسور ؛ غير أن كل من يتملكه الحب يشعر برغبة مُلحَّة في التعبير عما في نفسه وبث صديق له مكنون صدره . ولم يكن متلر جاهلاً لهذه الحال ، لهذا فإنه بعد تبادل بضع كلمات أراد أن يخرج هذه المرة عن دوره ، وأن يلعب دور كاتم سره بدلاً من أن يكون في دور الوسيط .

فلما أنحى بشئ، من اللوم على إدورد بسبب حياته المتوحدة هذه ، أجابه البارون :

— لست أدري كيف أمضى وقتي على نحو أفضل . فأنا دائماً في سُفُل شاغل بها ، وأنا دائماً أحياء في حضرتها . ولدى ميزة لا تصاب لها قيمة ، هي قدرتي على تصوير أين هي ، وإلى أين أذهب ، وأينما تتوقف ، وأين تسرع . وأتمثل لنفسى كيف تعمل أمامى على عاداتها ، وتؤدى دائماً كل ما تراه موافقاً لهوائى . لكننى لا أقف عند هذا . فكيف أكون سعيداً بعيداً عنها ؟ إن خيالى ليسعى بكل حماسة ونشاط ليصور لنفسه كل ما تعمله أوتيلي من أجل الاقتراب منى . وإنى لأكتب باسمها رسائل كلها رقة وألفة موجَّهة نحوى ؛ وأجيب عليها واحتفظ بكل هذه الأوراق معاً . لقد وعدت بأن لا أبذل أى سعى من أجل الاقتراب منها ، وسأكون عند

وعدى هذا ؛ لكن ماذا يحول بينها وبين أن تأتى إلى ها هنا ؟ أفعند شرلوت من القسوة ما يجعلها تفرض عليها وتقتضى منها الوعد والقسم ألا تكتب إلى ، وألا تبعث إلى بآنبائها ؟ هذا طبيعى ، هذا محتمل ؛ ومع هذا فإنى أراه شيئاً لا يمكن احتمالاً . إن كانت تحبى كما أعتقد وكما أعلم - فلماذا لا تقرر ، لماذا لا تخاطر بالفرار ، بالارتقاء فى أحضانى وبين ذراعى ؟ كثيراً ما أفكر فى نفسى أنها يجب أن تفعل هذا ، وهو فى وسعها . إنى إذا سمعت نائمة فى الغرفة المجاورة ، نظرت من جانب الباب ! أهى القادمة ؟ هكذا أخيل إلى نفسى ، وهكذا آمُل أن يكون - أوّاه ! حيناً أرى الممكن غير ميسور الحدوث ، أتخيل حدوث المستحيل . وفى الليل حينما استيقظ ، ويكون المصباح ملقياً نورا مترنحاً فى غرفتى ، يترأى لى أن وجهها ، ظلّها ، طيفاً من شخصها ، يمر أمامى ويتقدم إلى ويمسك بى ، لمدة لحظة واحدة على الأقل ، مما يؤكد لى - على نحو ما - أنها تفكر فى ، أنها لى ! لم تبق لى إلا متعة واحدة . حينما كنت إلى جوار أوتيلى ، لم أكن أحلم أبداً فيها ؛ أما الآن وقد بدت عنها ، فنحن مجتمعان سوياً فى أحلامى . ومن العجب أننى منذ أن عرفت بعض النسوة اللطيفات فى هذه المنطقة صارت تنبئ لى فى المنام ، وكأنها تقول لى : تستطيع أنت أن تنظر ها هنا وهناك وفى كل ناحية ، فإنك لن تجد مطلقاً أجمل منى ولا الطف . وعلى هذا النحو تبرز صورتها بكل أحلامى . وكل ما يحدث لى معها يختلط ويشتبك . فأحياناً نحن نوقّع عقداً : وهاهو ذا حظها وحظى ، واسمها واسمى ، يمجو أحدهما الآخر ويفنى فى صاحبه متعاقبين . وهذه التهاويل الشهوانية للخيال لا تخلو من الألم : فأحياناً تأنى أوتيلى فعلاً ما يحدثش فكرتى عنها ؛ هنالك أحس بمقدار حبي لها ، إذ ينالنى قلق لا يبلغ مداه التعبير .

وأونة أخرى تستثيرنى بطريقة تتنافى تماماً مع ما طبعتم عليه ، فتؤلمنى ؛
هناك تبدلُ صورتها فى الحال : فيستطيل وجهها الجميل الرشيق الملائكى .
وتستحيل إنساناً آخر ؛ لكن هذا لا يزيدنى إلا خبالاً وتعذيباً واضطراباً .
« لا تضحك ، أى متلر العزيز ، أو اضحك بالأحرى ، فليس منه
بأس . لست أخجل من هذا التعلق ، من هذا الميل الجنونى الأهرج ،
بل ليكن ! كلا ، إننى لم أحببُ بعدُ ؛ أما اليوم فأنا أشعر لأول مرة بمعنى
الحب وما هو الحب - حتى الآن لم يكن كل شئ فى حياتى إلا تمهيداً
واستهلالاً ، ألهية ، ووقتاً ضائعاً ماضياً - إلى اللحظة التى بدأت أعرفها
فيها ، والتى أحبتها فيها بكل قواى وبكامل نفسى . لقد لامونى - وإن لم
يكن ذاك فى وجهى - قائلين إننى أبى على شفا جرف هار وإننى أعبت فى
غالب أحوالى وأهزل : هذا ممكن ؛ لكنى لم أجد بعدُ الشئ الذى أستطيع
أن أظهر فيه فى مركز السيادة . ألا فليدلونى على إنسان عرف كيف
يحب خيراً منى !

« إنها هبة بائسة ، ليس فى هذا شك ، كلها آلام ومرارة . لكن
لا عليك ! فإننى أجدها طبيعية عندى ، بل هى جزء من نفسى لدرجة أنه
يبدو لى من الصعب أن أعزف عنها أبداً » .

بهذه الاعترافات المخلصة الحارة ، استطاع إدورد أن يُسرِّى عن
نفسه من غير شك . لكن كل قسمة من قسبات مركزه الشاذ تبدت أمام
ناظره على نحو فيه من التأثير ما جعله ينوء تحت عبء هذا النضال الأليم ،
فجرت منه العبرات الدافقة : لقد أشاعت هذه العبارات الرقة فى فؤاده .

أما متلر الذى لم يستطع أن يكذب حال تسرعه الطبيعى وقساوة
خُلُقهِ ، وكان من شأن هذا الانفجار الأليم لوجدان صاحبه أن أبعده عن

الغرض من رحلته هذه ، فإنه عَبرَ عن عدم موافقة إدورد على مسلكه بصراحة جافة قاسية قائلاً إن إدورد يجب أن يستجمع شجاعته ، ويجب أن يفكر فيما تقتضيه منه مكانته كرجل ، إذ يجدر به ألا ينسى أن الإنسان يبلغ درجة عليا من الشرف إن أظهر التجلد في البأساء واحتمل بهدوء ورزاة صولة اللأواء ، كيما يظفر بالتقدير والتوقير ويتخذة الناس نموذجاً عالياً .

ولما كان إدورد مليئاً بالعواطف الأليمة والمشاعر المصنّعة ، فإنه وجد هذه الكلمات خاوية عابثة . فصاح : « إن الرجل السعيد المطمئن يستطيع أن يتحدث كما يهوى ؛ لكنه سيسوخ من الخجل لو أنه رأى كيف أن هذا غير محتمل عند من يتألم . إنهم يطالبون بوجود صبر لا ينفد ، والناس السعداء يصرون على عدم الاعتراف بوجود ألم لا ينفد . أجل إن تمت أحوالها فيها يكون العزاء من شيمة الجبناء ، وفيها اليأس هو الواجب . وإن أحد اليونانيين المشهورين ، ممن يحسنون وصف الأبطال ، لا يجد حرجاً في أن يجعلهم ييكون ويذرفون العبرات في لوعة آلامهم . بل إنه يضع كقاعدة أن الرجال الممتازين يعرفون كيف ييكون . ألا بُعداً إن كان جاف القلب جاف العميون ! إنى لألعن السعداء الذين لا يرون في الشقى غير منظر يتلهون بمشاهدته . إنهم يريدون منه ، كي يحظى بتصفيقهم ، أن يلتزم سَمَتاً نبيلاً إبان أقسى آلام البدن والروح ، ولكي يهتفوا له في اللحظة التي تفيض روحه فيها ، يجب عليه أن يموت تحت أنظارهم في هدوء ، كالمُجالد القديم . عزيزي متل ، إنى أشكر لك زيارتك ؛ ولكنك ستقدم لى دليلاً عظيماً على صداقتك لى إذا غدوت تراض في البستان وخلال الريف . وسنلتقى . وسأعمل ما فى وسعى كيما أكون هادئاً أقرب ما أكون إليك .

غير أن متلر فَصَّلَ أن يلجأ إلى التنازل والترضى على قطع حديث لم يكن في وسعه استثنائه بسهولة . وإدورد من ناحيته كان مستعداً لموالة الحديث محاولاً أن يوجهه نحو خدمة غرضه . فاستأنف الحديث قائلاً :

— وأيم الحق أن مثل هذه الخواطر والمناقشات لن تؤدي إلى أى شيء ؛ ومع هذا فقد استطعت خلال هذه الأحاديث أن أثوب إلى نفسى ؛ وانتهيت إلى تقدير ما يجب على فعله ، وإلى ما استقر عزمى عليه . إننى أرى حياتى الحاضرة وتلك المقبلة يتبديان أمام ناظرى . وليس لى إلا أن أختار بين الشقاء والنعيم . أيها الرجل الممتاز ، أعلن طلاقنا ، فهو لا بد منه ، بل هو قد تحقق فعلاً . هات لى موافقة شرلوت . ولست أريد التوسع فى الأسباب التى تحملنى على الاعتقاد بأن من الممكن الحصول على هذه الموافقة . هيا ، صديق العزيز ، اعمل جهدك كيما نكون جميعاً فى سلام ! اجعلنا سعداء !

فالتزم متلر الصمت والسكون . فاستمر إدورد :

— إن مصرى مرتبط بمصير أوتيل ارتباطاً لا يمكن انفصامه ، ولن نتحطم . انظر هذه الزجاجة ! لقد نقشت أرقامنا عليها ؛ وقد ألقى بها فى الهواء أحد الصحاب المرحين ؛ وليس لأحد بعد أن يشرب فيها ، وكان من المنتظر أن تتحطم فوق الأرض الصخرية ، لكنها بقيت معلقة فى الهواء . ولقد استخلصتها بشمن فادح وإنى لأشرب فيها كل يوم منذ ذلك الحين ، كيما أقنع نفسى بأن المُقَدَّ التى كَوَّنها القدر لن تُحلَّ أبداً :

— يا لشقائى ! هكذا صاح متلر ، أى صبرٍ يعوزنى مع أصدقائى ! يجب أن أجد التطيُّر حتى فى هذا المكان ، التطير الذى أبغضه كأقبح شيء يمكن أن يوجد عند الناس . إننا نلعب بالأمشاط والخيال والأحلام ، ونهب

أهمية لأنفه أحوال الحياة . لكن حينما تصير الحياة نفسها جِداً ، وبضطرب كلُّ شيء حولنا وُيرْعِد ، حينئذ تزيد هذه الأشباحُ من هول العاصفة . فقال إدورد : في مضطرب الحياة هذا ، وبين المخاوف والرجاء ، دع للقلب الجريح نجماً مخلصاً يستطيع أن يستشرف بعيونه إليه ، حتى لو لم يكن عليه أن يوجه مجراه وفقاً له .

فأجاب متلر : بودى لو قبلت هذا ، لو كان وراءه رجاء ؛ لكنى لاحظت دائماً أن الإنسان لا يحفل مطلقاً بالشواهد والمخايل التي تنذره ؛ إنما يتجه الانتباه إلى ما منها يتملق الهوى ويغرى المرام ، ومن أجلها وحدها يكون الإيمان حاراً قوياً .

ولما رأى متلر نفسه قد أُفْضِيَ بها إلى هذه المناطق الغامضة التي كان فيها دائماً يشعر بأنه في غير مكانه فينتابه القلق كلما أمد في إقامته — لما رأى هذا أرعى سمعه لتوسلات إدورد الذي ألح عليه في الذهاب إلى شرلوت . وأيم الحق ، ماذا كان في وسعه أن يعارض به البارون في تلك اللحظة ؟ لم يبق لديه إلا أن يكسب الوقت ويلاحظ الأحوال النفسية التي يوجد فيها السيدان . فلقد كان هذا هو الحلّ الوحيد ، حتى من وجهة نظره هو .

فأسرع بالذهاب إلى شرلوت ، فوجدها على عادتها من الهدوء واطمئنان البال — وهى قد شاءت عن طيب خاطر أن تقص عليه نبأ ما حدث ؛ لأن أحاديث إدورد لم تنبئ متلر بشيء غير النتائج ، دون المقدمات . فراح متلر من ناحيته يعالج الموضوع بحذر واحتياط ، ولم يستنج لنفسه ، ولا حتى عرضاً ، أن يتفوه بكلمة الطلاق . لهذا كم كانت دهشته وذهوله — وهو على الأفكار التي كان يحملها في نفسه — وكم كان سروره حينما قالت له شرلوت أخيراً ، بعد كل هذه الأمور الأليمة :

— يجب أن أعتقد ، وأن آمُل أن يُسوَّى كل شيء ، وأن يقترب إدورد منى . كيف لا وأنا أُرَجى أن أكون أمّا ؟
— هل سمعتُ جيداً ما قلتيه ؟ هكذا صاح متلر .
— تماماً ، بهذا أجابت شرلوت .

— بُورك هذا النبأ ألف بركة ! هكذا استأنف حديثه ضامّاً يديه .
إننى على علمٍ بقوة هذه الحجة وسلطانها على قلب الزوج . وكم من مرة شاهدت أن هذا كان كافياً للإسراع فى الزواج أو العزم عليه أو إصلاحه !
إن مثل هذا الأمل ينتج من الأثر أ كثر مما تنتجه آلاف الكلمات ؛ والواقع أن هذا خير رجاء نستطيع التعلق به .

وتابع قائلاً : « ومع هذا ، ففيمّا يتصل بى ، قد كان كل شيء باعثاً على عدم الرضا . لكن مادام الأمر على هذا النحو ، فليس لدى ما أفاخر به . واهتمامى لاحق له فى شكرانك . إن مثلى مثل صديق الطبيب الذى كانت كل معالجاته موفقة ناجحة حينما يعالج مجاناً وإحساناً ، لكنه كان نادراً ما ينجح فى علاج الأغنياء الذى يجزلون له الدفع . فلحسن الحظ سوّيت الأمور من تلقاء نفسها ، لأن مجهوداتى ونصائحى كانت ستذهب سدى » .
فسألته شرلوت أن يحمل هذا النبأ إلى إدورد ، وأن يحمل أيضاً رسالة ستكتبها إليه ، وأن يرى ماذا يجب عمله وإصلاحه . لكن لم يشأ موافقتها ، وصاح : «عمل كل شيء ؛ وفى استطاعة أى إنسان أن يحمل رسالتك كما أحملها أنا . وخليق بى الآن أن أحمل أقداى إلى حيث الحاجة إلىّ ألزم . ولن أعود إلا من أجل تهنئتك ، سأعود من أجل التعميد » .
وفى هذه المدة — كما فى مرات أخرى غيرها — لم تكن شرلوت راضية عن مسلك متلر . فإن مزاجه الحادّ أحياناً ما يُسدى الخير ، لكن

تسرع واندفاعه كثيراً ما سببا إخفاقا . إذ ليس تمت إنسان يفوقه في الخضوع لتأثير اللحظة العابرة الحاضرة .

فبعث شرلوت برسول إلى إدورد ، استقبله هذا في شيء من الجزع . فربما كانت الرسالة رفضاً أو موافقة . فتردد طويلا في فضلها ، وكم كانت دهشته واضطرابه وذهوله حينما وصل إلى هذه الكلمات وهو يقرأه ، وهي كلمات ختمت بها الرسالة :

« تذكر تلك الليلة التي زرت فيها - كعاشق - زوجتك تلك الزيارة المغامرة ؛ وجذبته بقوة لا تقاوم إلى فؤادك ؛ وضغطت عليها بين ذراعيك كأنها معشوقة أو خطيبي . فَلُنُسَبِّحْ ، في هذه الظروف الغريبة ، بحمد هذه الهبة التي بعثتها إلينا السماء التي شئت أن تقيم بيننا رابطة جديدة ، في اللحظة التي أصبح فيها نعيم حياتنا مهدداً بالزوال والفناء » .

ويشق على المرء أن يصف ما كان يجري آنذاك في نفس إدورد . ففي مثل هذه المواقف الأليمة تنتهي العادات القديمة والميول الماضية بأن تنشق من جديد لقتل الوقت وملء الحياة . هنالك يصير القنص والحرب بالنسبة إلى النبيل موارد للسلوى لا تتخلف . لقد اشتاق إدورد إلى الخطر الخارجي ، كما يحدث توازناً مع الخطر الداخلي ؛ لقد تشوق إلى الموت ، لأن الحياة أصبحت تهدد بأن تصبح غير محتملة ولا مقبولة ، بل لقد كان عزاءً عنده أن يتمثل نفسه ، وقد زال عن الوجود ، وبهذا نفسه يهد السبيل أمام سعادة من يؤثرهم بالحب . ولم يضع أحد عقبة في سبيل مراده لأنه أبقى على قراره مكتوماً . وكتب وصيته في شكلها القانوني . وكم أرضى نفسه أن يكون في وسعه أن يوصي بالضيعة المستكراة الجميلة لأوتيلي . وكفل مصير شرلوت ، والطفل الذي تحمله في بطنها والكاتبين ، والخدم . وساعد على

تحقيق عزمه هذا أن الحرب قد بدأت منذ قليل . لقد سبّب له رؤساء
وضعاء متاعب عدة إبان شبابه ، وكان ذلك السبب في تركه العسكرية ؛
أما اليوم فهو سعيد بالخدمة تحت إمرة قائد يمكن أن يقال عنه إن « الموت
تحت قيادته محتمل والنصر مؤكد » .

وما علمت أوتيلى بسر شرلوت — وقد أصابها الذهول كما أصاب
إدورد ، بل وأكثر — حتى انطوت على نفسها . لقد انتهى كل شيء
بالنسبة إليها . لارجاء لديها بعد ولا اشتها . وستهيء لنا « يومياتها » —
التي نرى أن نقدم إلى القارئ بضع صفحات منها — أن تبين ما كان
يجرى في أعماق نفسها .

القِسمُ السَّاني

الفصل الأول

كثيراً ما نصادف في الحياة العادية أشياء أَلِفْنَا أَنْ نَنعمَها في الملاحم بأنها من نسج خيال الشاعر ، ونعني بها أن نرى أحياناً الشخصيات الرئيسية تتباعد وتحتفي ويزول ما لها من أثر ، وسرعان ما يشغل مكانها شخص أو آخر ممن لم يلفتوا النظر من قبل ، باذلاً كل نشاطه ، مما يثير بدوره انتباهنا وشوقنا ، بل ويحملنا على تقديره وإزجاء المديح إليه .

وعلى هذا النحو حدث بعد رحيل الكابتن والبارون أن ازدادت شخصية المهندس في الظهور يوماً بعد يوم . فعليه وحده توقف توجيه أعمال عدة وتنفيذها ، وقد تبدى في أداء عمله دقيقتاً ماهراً مثابراً . وأسدَى في الآن نفسه كثيراً من الخدمات إلى السيدتين ، وعرف كيف يرفّه عنهما في ساعات الصمت والملال . وكان يكفي حضوره لإشاعة الثقة والعطف .

لقد كان شاباً جميلاً ، بكل ما لهذه الكلمات من معنى ؛ فارح القوام ، أقرب إلى الإفراط في الطول ؛ وكان متواضعاً في غير تراؤيل ولا انقباض ، سريع التواصل في غير ثقل ولا عَباة . وكان يأخذ على عاتقه القيام بكل ما يتطلب العناية والمشقة ، يتحمّله بسرور وطيب خاطر ؛ ولما كان ماهراً في الحساب ، فسرعان ما أُشْرِك في شئون المنزل ، وكان له في كل شيء أثر ممدوح . وكان يوكل إليه عادةً استقبالُ الغرباء ، وكان يحسن صَرْفَ الزيارات غير المتوقّعة ، أو على الأقل يهيئ السيدتين لها ، إلى حد أنها لم تكن مضجرة لها .

وذات يومٍ أوقعه أحد القانونيين في عناء . فقد كان موفداً من قِبَل سيد من الجيران ليتحدث في مسألة لم تكن في الواقع ذات أهمية كبيرة ،

لكنها أحدثت في نفس شرلوت أثراً عميقاً . وخليق بنا أن نرى هذه المسألة ، لأنها أعطت الدافع للعديد من الأشياء التي كانت بدون هذا ستظل في سبات وقتاً طويلاً .

لم ننسَ بعدُ أن شرلوت قد أزمعت تبديل حال المقبرة . فنُقلت كل الأضرحة ، وُصِفَتْ على طول الجدار وحول أساس الكنيسة ومُهِّدَت الأرض . وفيما عدا طريق طويل يفضي إلى الكنيسة وعلى طول البناء إلى الباب الصغير في الناحية الأخرى ، بُذرت التربة كلها بأنواع مختلفة من البرسيم كانت خضرتها وأزهارها بساطاً كأجل ما يكون الحمْل . وكان على القبور الجديدة أن ترتب على نظام معلوم ، وبعد هذا تسوّى الأرض وتلقى فيها البذور . ولم يكن أحد يشكّ في أن هذا التنظيم يهيئ للذين يفتدون إلى الكنيسة ، منظرًا جميلاً باسمًا نبيلًا في أيام الآحاد والأعياد . وراعى الكنيسة نفسه ، وهو رجل متقدم في السن ، متشبث بالمعادات القديمة ، بعد أن كان في البدء غير راضٍ تمامًا عن هذا الإجراء ، انتهى باغتباطه به ، حينما أتى مثل فيلمون يستريح مع بوقيسه^(١) تحت الزيزفون العتيق خلف المنزل ، فُسرَّ إذ رأى أمامه — بدلًا من أضرحة غير مستوية — بساطًا جميلًا مُفَوَّفاً ، سيفيد منزله من ناحية أخرى ، لأن شرلوت قد ضمنت لبيت الراعى التمتع باستغلال الأرض .

يبد أن بعض أعضاء الناحية قد ساء لهم رفع العلامات الدالة على

(١) بوقيس هي امرأة مجوز من فريچيا . كانت تعي حياة الكفاف مع زوجها فيلمون في كوخ حقير . وفي أثناء رحلة جويتر ومركير متخفيين في آسيا ، بلغوا هذا الكوخ ، فأصابا من أهله خير ضيافة ، حتى إن جويتر سر من هذا الكرم إلى حد أنه كافأهما بأن أحال كوخهما إلى معبد ، وأقام بوقيس وفيلمون كهنة له ؛ وعاشا في أسعد حال حتى بلغا من الكبر عتياً ، وماتا في وقت واحد وفاقاً لرغبتهما إلى جويتر حتى لا يحزن أحدهما لفقده الآخر . وتحول بدناهما إلى شجر أمام باب المعبد .

الأماكن التي رقد فيها أجدادهم ، وبهذا مُحيت ذكراهم : والواقع أن الشواهد المحفوظة قد عُنيت ببيان حقيقة الشخص المدفون ، لكنها لم تبين في أى مكان دُفن ، وكانت معرفة المكان هي الأهم في نظر كثير من الناس . فقد كان هذا رأى إحدى أسر الجيرة التي احتفظت لنفسها منذ سنوات عدة بمكان في هذا المرقد المشترك ، وفي مقابل هذا أقامت مؤسسة صغيرة لصالح الكنيسة . وقد أتى القانونى الشاب مُوفداً لإلغاء المؤسسة ، معلناً أنه لن يدفع لها بعدُ شئٌ ، لأن الشرط الذى به تم الدفع لها حتى الآن قد اُخلَّ به من جانب أحد المتعاقدين ، ولم يُحسب أىُّ حساب لكل الآراء والمعارضات . ولما كانت شرلوت هي الفاعلة الأصلية لهذا التغير ، فقد أرادت أن تتحدث بنفسها إلى ذلك الشاب الذى عرض حيثيات موكله بحماسة ، في غير تكبر ولا معجرفة ، مثيراً عند أصدقائنا ألواناً من الأفكار الجادة الخطيرة .

قال ، بعد استهلال قصير ، عرف كيف يبرر به إلحاحه : « هؤلاء أنتم ترون أن أصغر الناس وأكبرهم حريص على تعيين المكان الذى رقد فيه أجداده . إن الفلاح المسكين الذى يدفن ابنه ليجد نوعاً من العزاء في إقامة صليب هش من الخشب فوق قبره ، وتزيينه بأكليل ، كيما يحتفظ على الأقل بالذكرى طوال أمله ، حتى لو عفى الزمان على هذه العلامة كما يُعفى على أحزانه . أما الموسرون فيستبدلون بهذه الصليبان الخشبية صليباناً من الحديد يصونونها ويحمونها بشتى الوسائل ، مما يؤدي إلى بقائها طويلاً . لكن لما كانت هذه الصليبان نفسها ستفتحي بالذئور والفناء ، فإن الأغنياء لا يفوتهم أن يقيموا حجراً ، يعمدُ بالبقاء طوال عدة أجيال ، ويستطيع الأخلاف في الأجيال التالية أن يصلحوه ويمجدوه . غير أن هذا الحجر ليس هو ما يسترعى انتباهنا : إنما هو ما انطوى تحته ، وما وُكِّل إلى التراب . فالناس لا تعنيهم

الذكرى بقدر ما يعنيه الشخص نفسه ؛ والأمرا ليس أمر ذكرى ، بل أمر حضور . وإنى لأفضل عناق ميت عزيز على القبر منه على شاهده : لأن هذا ليس فى ذاته بذى قيمة ظاهرة ؛ لكن الأزواج والأهل والأصدقاء لابد لهم أن يلتفتوا حوله كلواء يضم شملهم ، حتى بعد موتهم ؛ ويجب أن يحتفظ الحى بحقه فى إبعاد الغرباء وأهل السوء عمن أحبه وهو يرقد فى هذا المكان . لهذا فإنى أؤكد إذاً أن موكلي له كل الحق فى سحب المبلغ الذى يدفعه المؤسسة ؛ وهو بهذا يظهر كثير من روح الإنصاف ، لأن الضرر الذى أصاب أفراد الأسرة هو من ذلك النوع الذى لا يمكن التفكير فى أى تعويض عنه . لقد فقدوا المتعة العذبة الحزينة ، متعة حمل قربان جنازى لموتاهم الأعزاء ، فقدوا الأمل فى أن يرقدوا يوماً إلى جوارهم .

— فأجابت شرلوت : ليس لهذا الأمر كل تلك الأهمية ، التى تحملنا على الدخول فى متاعب قضية . إننى أبعد من أن أكون آسفة على ما فعلت ، لدرجة أنى سأعوض الكنيسة بطيب خاطر عن المنفعة التى فقدتها . لكن يجب على أن أصارحك بأن حججك لم تُقنعنى مطلقاً . فإن الشعور الصافى بالمساواة العليا الكلية ، على الأقل بعد الموت ، يبدو لى أبعث على الرضا من ذلك الاستمرار التحكمى العنيد لأشخاصنا وعلاقاتنا وصلاتنا الاجتماعية . وأنت ماذا ترى فى هذا ؟ هكذا وجهت شرلوت الخطاب إلى المهندس .

فأجاب : « لست أود فى مثل هذه المسألة أن أناقش أو أدلى بحكم . ولتسمحنى لى بأن أعبر فى تواضع عما يمس فنى وطريقة تفكيرى عن قرب ، ما دمنا لا نملك من السعادة ما يسمح لنا بأن نضم إلى صدورنا بقايا أحبائنا المطمورة فى إجمانة ، وليس لدينا من الثراء ولا الصفاء ما يحول لنا الاحتفاظ بها فى حى من الفساد داخل نواويس نفخة واسعة ، بل لا نجد مكاناً حتى فى الكنائس لنا ولأهلنا ، وأننا نطرد خارجاً فى الفضاء الفسيح — ما دام

الأمر كله على هذا النحو فلدينا جميعاً ما يحملنا على الموافقة على ما فعلتيه يا سيدتي البارونة . إن أبناء الأبروشية حينما يرقدون جنباً إلى جنب ، وإنما يرقدون وسط أهلهم وبين ظهراً نبيهم ، وما دام مصيرنا جميعاً إلى التراب ، فلا شيء أقرب إلى الطبيعة وأنسب من تسوية كل الأكتاف التي أقيمت بغير نظام ولا تدبير ، وتهدمت شيئاً فشيئاً ، ومن تخفيف عبء التراب عن الجميع ببسط الغطاء عليهم أجمعين .

فقلت أوتيلي : إذاً لا بد أن يفنى كل شيء إلى غير رجعة ، دون الإبقاء على أقل علامة للذكرى ، ودون أن تبدو للذاكرة أية إشارة .

— كلا ، هكذا استأنف المهندس ، ليس الواجب التخلي عن الذكرى وإنما عن المكان . إن المهندس والنحات يعينهم تماماً ما ينتظره من فنونهم ومن أيديهم من بقاء وجودهم واستمراره ، لهذا أود أن أرى آثاراً جيدة التصميم متقنة الصنعة ، لا متناثرة متفرقة حيثما اتفق بل مقامة في مكان يمكنهم فيه أن يأملوا البقاء . وما دام القديسون والعظماء أنفسهم يصدفون عن امتياز دفنهم في الكنائس ، فيجب على الأقل أن توضع في هذه الأبنية أو في أبهاء جميلة حول المقابر آثارٌ ونقوشٌ . وهناك آلاف الأشكال التي يمكن أن تعمل لها ، وآلاف الأنواع من التزيين الصالحة لتوشيتها .

فقلت شرلوت : أنت تقول إن الفنانين أثرياء بموارد فنونهم إلى هذا الحد ! خبرني إذاً لماذا لا يخرجون أبداً عن شكل المسلة الصغيرة والعمود المقطوع والإجانة الرُفّاتية ؟ وبدلاً من آلاف الابتكارات التي تشيد بها لم أشاهد مطلقاً غير آلاف التكرارات .

— لعل الأمر على هذا النحو عندنا ، بهذا أجاب المهندس ؛ لكن الحال ليست كذلك في كل البلدان . ويلوح بوجه عام أن العاطفة والتطبيق المناسبين هما شيء خاص . وفي مثل هذه الحالة خصوصاً توجد بعض

الصعوبات ؛ فيجب في الموضوعات الجدية إشاعة نوع من السحر ، وفي الموضوعات الأليمة عدم إيجاد أثر أليم . أما فيما يتصل بمشروعات الآثار من كل الأنواع ، فقد جمعت عدداً وافراً منها ، وسأوافيك بها عند الحاجة ، لكن أجل أثر هو دائماً صورة الإنسان نفسه . فهي تعطى فكرة عما كان ، خيراً من أى شيء آخر ؛ وهى أحسن نص يمكن أن تضاف إليه قسّمات نادرة أو عديدة . لكن يجب صنع هذا العمل حينما يكون الإنسان فى أجل سنوات عمره ، وهذا عادة هو ما يهمله الناس . فلا أحد يفكر فى الاحتفاظ بالأشكال الحية ، ولو حدث هذا فإنه يتم بطريقة غير كافية ولا وافية . هنالك يسرع الإنسان بعمل تمثال من الجبس للميت ؛ ويوضع هذا القناع فوق كتلة حجرية ، وهذا يسمونه تمثالا نصفيا . وما أندر ما ينبجج المرء فى إشاعة الحياة بقوة فيه !

فأجابت شرلوت :

لقد عثرت — وربما من غير علم ولا قصد — على فكرتى الحقيقية . فإن صورة الإنسان شيء مستقل قائم بذاته : أينما وُجِدَتْ ، وُجِدَتْ لنفسها ، ولن نسألها أن تعين لنا مكان الدفن . لكن ، أَيْخُلُقُ بى أن أصارحك بشعور غريب ؟ إننى أنفر من الصور نفسها نوعاً من النفور . إنها تلوح لى دائماً كأنها توجه إلى لوماً خفياً . إنها تذكر بشيء بعيد ، شيء لم يعد بعد موجوداً حاضراً ، وتذكرنى بمقدار ما هنالك من مشقة فى تكريم ما هو باق على نحو ملائم . لو أفكرنا فى عدد الناس الذين رأيناهم وعرفناهم ، ولو صارحنا أنفسنا بضآلتنا بالنسبة إليهم ، وفى نظرهم ، وبضآلتهم فى نظرنا ، فبماذا نشعر آنذاك ؟ نحن نلتقى بالرجل العبقري دون أن نتحدث وإياه ، وبالعالم دون أن نتعلم فى صحبته ، والرحالة من دون أن

نفيد من تجاربه ، والرجل العاطفي من دون أن نقول له شيئاً يتملق عواطفه ؛ ومن الأليم أن هذا لا يحدث مع من نلتقى بهم بطريقة عابرة وخدمهم : فإن الجماعات والأسر تسلك نفس المسلك نحو أعز أبنائها ، والمدن نحو خيرة مواطنيها ، والشعوب نحو أكرم أمرائها ، والأمم نحو رجالها الصيِّد الممتازين .

« لقد سمعت أحداً يتساءل لماذا يذكر الناس محاسن الموتي بسخاء ، ومحاسن الأحياء بنوع من التحفظ ؟ وأجيب عليه : بأننا لا نخشى شيئاً من الأولين ، بينما الآخرون يمكن أن نلتقى بهم يوماً في طريقنا . وهذا هو الطابع النفى في عنايتنا بذكري الآخرين : إنه ليس غالباً إلا تسلية أثره ، بينما الواجب أن نمدّ شيئاً جدياً مقدساً أن نتمسّ دائماً النشاط والحياة في علاقاتنا مع الباقين على قيد الحياة » .

الفصل الثانى

وفى الغد غدا أصدقائنا — وقد هزتهم هذه المسألة وما أثارته من أحاديث — إلى المقبرة ، وأبدى المهندس بعض الأفكار الجيدة من أجل تزيينها وتجميلها . لكن عنايته كان يجب أن تمتد أيضاً إلى الكنيسة ، لأن هذا البناء قد استغرق انتباهه منذ اليوم الأول .

لقد أنشئت منذ عدة قرون ؛ وكانت وفقاً للذوق والطراز الألمانيّين ، مشيِّدة تبعاً لنسب جيدة ، ومزينة بطريقة ماهرة بارعة . وفى الوسع الاعتراف بسهولة بأن مهندس الدير المجاور قد لذّ له أن يبرز كل ملكاته فى إقامة هذا البناء أيضاً ، الذى وإن كان أقل حجماً فإنه أحدث أثراً ممتعاً رائماً ، على الرغم من أن التغييرات التى أُجريت فى التنظيم الداخلى ،

وفقاً للمذهب البروتستنتى ، كانت كفيلة بأن تُفقد المعبد شيئاً من جلاله الهادىء .

وظفر المهندس من شرلوت دون عناء بمبلغ متواضع ، اقترح أن يعيد بواسطته إصلاح الجزء الخارجى والداخلى ، لى يردّها إلى طرازها الأول ، وأن يؤمّ بينه وبين المقبرة الممتدة أمام الكنيسة . وعمل هو نفسه بكل مهارة وحِدْق ، واحتفظ ببعض العمال ، ممن كانوا لا يزالون يشتغلون ببناء الصُفّة ، من أجل إتمام ذلك العمل الجليل .

وكان لزاماً إذاً زيارة البناء بكل ملحقاته وتوابه ؛ ولم كانت دهشة المهندس وسروره حينما اكتشف معبداً جانبيّاً صغيراً فات الناظرين ، كان بارع الهندسة خفيفاً ، ذا ترتيبات جميلة أنيقة . وكان يشتمل على بقايا قطع منحوتة وصور تنسب إلى المذهب القديم (الكاثوليكية) الذى يحسن التمييز بين مختلف الأعياد بواسطة الصور والأجهزة القديمة العديدة ، ويحتفل بكل منها على نحو خاص .

ولم يتمالك المهندس من إدخال المعبد فى الحال ضمن مشروعه ، وأن يعيد ذلك المكان الضيق بكل عناية ؛ حتى يعود كثر من آثار القرون الماضية يتفق وذوقها . وفكر فى تزيين الأماكن الحالية وفقاً لهواه ، واغتنب كل الاعتباط باستخدام ملكته فى التصوير : لكنه جعل هذا الأمر سرّاً بالنسبة إلى مضيفه .

وقبل كل شيء أرى السيدتين ، كما وعد ، النسخ المختلفة والمُجمّلات التى للمقبر القديمة ، والأواني وغيرها من الأشياء الماثلة . ولما انتقل الحديث إلى أضرحة الشعوب الشمالية بما فيها من بساطة ، أراها مجموعة الأسلحة والأدوات المختلفة التى وُجدت فيها . وهو كان قد رتب كل هذه الأشياء

لى خير ترتيب وأيسره للحمل ووضعها فى أدراج ذات عيون ، وعلى ألواح مشقوقة مكسوة بالجوخ ، حتى إن هذه الأمتعة العتيقة الجديدة قد اتخذت بفضل عنايته مظهر الأناقة وأصبحت العيون تنوإ إليها بسرور ، كماهى الحال فى صناديق تاجر الأزياء الجديدة . ولما بدأ يعرض كنوزه ، وكانت الوحدة تدعو إلى الملاهى والتسلية ، عمل على أن يظهر قسما منها كل مساء ، وكان أغلبها من أصل ألمانى : مُخَلَّفَات ونقود وأختام وما إليها . وكل هذه الأشياء تعود بالخيال إلى المهود القديمة ؛ ولما تَوَجَّج التسلية بعرض النماذج الأولى للطباعة والنقش على الخشب والنحاس — وبهذه الروح تبدت الكنيسة نفسها كأنها تتقهقر فى الماضى يوماً بعد يوم ، بواسطة الرسوم وبقية التزيينات — وصلت الحال بالمرء منهم أن يسأله هل هو يحيا حقاً فى العصر الحديث ، وعمما إذا لم يكن حُلماً أن يجد نفسه منذ الآن وسط عادات وأخلاق ومعاملات واعتقادات مختلفة كل الاختلاف .

ولما تهيات النفوس على هذا النحو أحدثت حافظة أوراق كانت آخر ما أتى به المهندس ، أحسن الأثر . أجل إنها لم تكن تشتمل إلا على صور رسمت رسماً بسيطاً ، لكن طبعت على النماذج الأصلية حتى إنها احتفظت تماماً بطابعها القديم . وكل كانت فتنها فى نفوس سيدتنا ! وفى كل هذه الصور تكشف أصفى شعور ، وتبدى طابع من النبيل أو على الأقل من الإحسان ظاهر . فكان يقرأ على كل الوجوه التأمل السعيد ، وعبادة كائن أعلى ، والتسليم الوديع فى الحب والرجاء ، وكانت تنبض بهذا كل الحركات والإشارات . فالشيخ الأ صلح ، والطفل ذو الشعر المعقوص ، والفقى المتوثب والرجل الجاد ، والقديس الطاهر ، والمَلَك الناشر أجنحته ، كلها لاحت سميعة ترفل فى سرور برى ، وتنعم برجاء ورع . وعلى أنفه الأفعال سياء

الحياة السماوية ، وتبنت خدمة الله كأنها الرسالة الطبيعية لكل في الحياة .
وكان الجميع يتأملون هذا العالم كأنه عصر ذهبي انقضى ، أو جنة مفقودة .
ولعل أو تبلى كانت وحدها التي استطاعت أن تشعر بأنها في عالم أليف لها ،
عالم من جنسها .

ومن ذا الذي كان يستطيع أن يرفض عروض المهندس ، حينما اقترح ،
بمناسبة هذه الأشكال والصور المثالية ، أن يرسم المساحات الموجودة بين عروق
قباب المعبد ، وبهذا يربط ذكره بالمكان الذي أحسن فيه استقباله !
وعرض رأيه في هذه المسألة بشيء من الحزن ، لأنه رأى جيداً ، من شواهد
الحال ، أن مقامه في مثل هذه الجماعة الممتازة لا يمكن أن يستمر طويلاً ،
بل لعله لابد أن ينتهي وشيكاً .

وفضلاً عن هذا فإن هذه الأيام التي تمتلئ بالأحداث قد سببت كثيراً
من الأحاديث الجديدة ؛ وإننا لننتهز هذه الفرصة كيما نقبض بضع مقتطفات من
« يوميات » أوتيلي مما ينتسب إلى تلك الفترة . ولسنا نجد وسيلة للانتقال
خيراً من تشبيهه بخاطر ببالنا ونحن نتصفح هذه المجموعة العزيزة .

فالناس يتحدثون عن عادة غريبة متبعة في البحرية الإنجليزية . فكل
حبال البحرية الملكية ، من أغلظها حتى أرفعها ، قد فُتِلت على نحو يجعل
خيوطاً أحمر يخرقها كلها ، ولا يمكن فصله دون حلها جميعاً ؛ مما يسمح
بمعرفة أن أصغر الأجزاء ينتسب أيضاً إلى العرش . وبالمثل ، يسرى في
« يوميات » أوتيلي خيط غرام وحنان ، يربط الكُل ويعززه بطابع خاص .
وعن هذا الطريق تصير هذه الملاحظات والتأملات والحواطر والأمثال
المستتارة ، وبقية الأشياء التي نجد فيها ملاءمة لمن تكتبها ، ذات أهمية
خاصة لديها . وكل فقرة اخترناها واقتبسناها ستقدم على هذا الدليل الحاسم .

من يوميات أوتيلي

أغرب خاطر يحول بفكر الإنسان حينما يستشرف إلى ما وراء هذه الحياة هو الرقاد يوماً ما إلى جوار من أحببهم . « أن يُضَمَّ المرء إلى صحابه » : هذا تعبير بالغ التأثير !

هناك آثار وتذكارات من عدة أنواع تذكرنا بالموتى والفائنين . لكن لا شيء منها يفوق الصورة . فالتحدث إلى صورة عزيزة ، حتى لو لم يكن التشابه كاملاً ، فيه نوع من الفتنة والإغراء ، كما أنه من المفرد أحياناً أن يتجادل الإنسان مع صديق . إذ يشعر المرء على نحو لذيذ بأنه اثنان ، ومع هذا فالانفصال ليس من المستطاع .

أحياناً ما يتحدث الإنسان مع شخص حاضر وكأنه يتحدث إلى صورة . فليس من الضروري أن يتحدث أو يتطلع إلينا ، أو يهتم بنا : ومع هذا فتحن نراه ونشعر بصلاتنا به ؛ بل إن هذه الصّلات يمكن أيضاً أن تنمو وتزيد ، دون أن يعمل المرء شيئاً في هذا السبيل ، ودون أن يحس بشيء مما حدث ، إلى درجة أنه لا يكون في نظرنا إلا مجرد صورة .

لا يمكن المرء أن يرضى عن صورة الأشخاص الذين نعرفهم ؛ لهذا فإني رثيت دائماً لحال الرسامين الذين يشتغلون بهذا النوع . من النادر أن يطلب المرء المستحيل من الناس ، لكن هذا هو بعينه ما تقتضيه من هؤلاء الفنانين . نريد منهم أن يُدْخِلُوا في رسمهم علاقات كُـلِّ الأشخاص المرسومين وما بينه وبينهم من حب أو كراهية . ولا يجب عليهم أن يمثلوا الشخص كما يرونه ، بل كما يمكن كُـلّاً أن يراه . لذا لا أدهش من كون هؤلاء

الفنانين يصيرون شيئاً فشيئاً عنيدين هوائيين غير مكترئين ولا مبالين : وما كان لهذا الأمر من ضرر لولا أن نتيجته أن يزهد المرء في امتلاك صورة كثير من الأشخاص الأغتراء .

ليس من شك في أن مجموعة المهندس : هذه الأسلحة وهذه الأدوات القديمة التي دفنت مع الجثة في المقابر الكبيرة وتحت الأحجار الضخمة ، تدل دلالة قاطعة على مقدار عدم فائدة الاختبارات التي يتخذها الناس لصيانة شخصهم بعد الموت . وما أقل اتفاقنا مع أنفسنا ! .. لقد اعترف المهندس بأنه فتح بيده قبور الأسلاف هذه ، ومع هذا فهو يستمر على الاهتمام بإقامة التماثيل والآثار من أجل الأخلاف .

لكن لماذا نأخذ الأمور هذا المأخذ القاسى ؟ أفكل ما نعمله نعمله للخلود ؟ أفلا نرتدى ثيابنا في الصباح لنخلعها في المساء ؟ ألا نقوم بالأسفار لنعود إلى حيث كنا ؟ فلماذا لا نأمل في الرقاد إلى جوار أهلنا وصحبنا ، حتى لو لم يكن ذلك إلا لمدة قرن من الزمان ؟!

حينما يرى المرء كل أحجار الأضرحة هاتيك مطمورة في التراب ، أو تُعَفَّى عليها أقدام الخلصين بل وتنهار الكنائس نفسها فوق قبورهم ، حينما يرى المرء هذا كله يمكنه دائماً أن يتصور الحياة بعد الموت على أنها حياة ثانية ، يدخلها المرء بصورة أو نقش ، وفيها يبقى أطول مما يبقى في حياة الأحياء ؛ لكن هذه الصورة ، وهذه الحياة الثانية ، ستفنى إن عاجلاً أو آجلاً . إن الزمان لا يسمح بأن تسلب حقوقه عند الآثار أكثر منه عند الناس .

الفصل الثالث

ما أعذب الاشتغال بالأشياء التي لا نعرفها إلا معرفة ناقصة ! وليس
لإنسان أن يلوم الهاوى الذى يتعلق بفن لن يتعلمه أبداً ، ولا الفنان الذى
يتجاوز حدود فنه فيلذ له أن يقوم بجولة فى الميادين المجاورة .

بهذا الشعور العادل كان المهندس قد تهيأ لرسم المعبد . وكانت الألوان
مُعَدَّة ، والمقاييس قد أُخِذت ، والرسم التمهيدى قد خُطَّط : وهو لم يدع
الابتكار ، بل يتعلق بمجملاته ؛ وكان همه الوحيد أن يُحسن توزيع الأشكال
الجالسة والطائرة ، وأن يُعمل منها لهذا المكان زينةً جيدةً الذوق .

نُصِبَت القوائم وتقدم العمل ؛ ولما كانت بعض الأجزاء مما يثير
الاستطلاع قد تم إنشاؤها ، فإن الفنان لم يكن فى وسعه أن يفض من
زيارات شلوت وأوتيل له . وكانت صور الملائكة تفيض كلها حياة ،
والأقنشة المتماوجة التى تنفصل عن زرقة سماوية تفتن العيون ، بينما كان مظهرها
الساكن الورع يهيب بالقلب أن ينطوى على نفسه ويتأمل ، ويدعو النفس
إلى الرقة والحنان .

صَعِدَت السيدتان على القوائم ؛ ولم تكذ أوتيل تبصر مقدار ما فى سير
العمل من سهولة ويُسر ودقة ، كأنه بالفرجار ، حتى لاحت ثمار دراستها
الأولى كأنها نمت فى الحال وانبعثت ؛ فأخذت لوح الألوان والريشة ،
ووفقاً للإرشادات التى قدمت إليها ، خططت قماشاً عديد الثنيات ،
بكل مهارة وصفاء .

ولما رأتها شلوت تشتغل بشيء وتسرى عن نفسها على نحو ما ، سرها
ما شاهدت ، فتركت الهاوِيين يواصلان عملهما ، وابتعدت لى تفرغ

لأفكارها الخاصة ، وتناقل نفسها الحديث عن الأفكار والهموم التي لا تستطيع أن تفضي بها إلى أحد .

وإذا كان التافهون من الناس يثيرون فينا ابتسامة الشفقة ، حينما نشاهد المصايقات الصغيرة في الحياة اليومية تثير في نفوسهم قلقاً محموماً ، فإننا نتأمل باحترام هذا القلب النبيل الذي يبذر فيه جرثومة مصير كبير ويُضطر إلى الانتظار حتى النهاية ، انتظار أن تنمو هذه الجرثومة ، دون أن يجرؤ أو يقدر على التعميل بما لا بد أن ينشأ عنها من خير أو من شر .

إن إدورد بعد أن تلقى في عزلته رسالة شرلوت ، رد عليها بطريقة تم عن الصداقة والعطف ، لكن بلهجة أقرب إلى الجد والتحفظ منها إلى الألفة والتعاطف . وبعد زمان قصير اختفى ، ولم تستطع زوجته أن تكتشف ما آل إليه أمره . وأخيراً شاهدت بالصدفة اسمه في الجرائد ، مذكوراً بالتمييز ، بين الضباط الذين برزوا في مسألة هامة . فعرفت آنئذ أى طريق سلك ؛ واستطاعت أن تتبين أنه نجا من مخاطر كبيرة ؛ لكنها في الآن نفسه اقتنعت بأنه لا بد سيسي إلى ما هو أكبر منها ، واستنتجت من هذا بكثير من اليقين أنه من العسير على كل حال أن يحال بينه وبين الاندفاع إلى أبعد الأطراف . فشغلها هذه المخاوف في صمت ، وتواردت عليها في غير انقطاع ، ومهما قلبت الأمر على وجوهه ، فإنها لم تستطع أن تكتشف فيه ما يبعث في نفسها الطمأنينة .

أما أوتيل التي لم تحس شيئاً من هذا كله فقد أقبلت على عملها بحماسة وحماسة ، واستطاعت بسهولة أن تظفر من شرلوت بالإذن لها بمواصلته بانتظام . هنالك تقدمت بسرعة ، وسرعان ما ملأ الأزرع السماوى بسكان ممتازين . وبهذا التمرين المتصل ظفر فنّانانا ، في الصور الأخيرة ، بحرية في

الرسم أوسع . فجاءت أحسن كثيراً . والوجوه التى وُكل إلى المهندس وحده رسمها تبدت شيئاً فشيئاً ذات طابع خاص يستلقت النظر بشكل واضح : وقليلًا قليلًا شابهت كلُّها وجه أوتيلى . فإن حضرة هذا الإنسان الجميل لا بد أن تكون قد أحدثت أثرًا عميقًا فى نفس ذلك الشاب الذى لم يكن قد ظفر بعد ، لا فى الطبيعة ولا فى الفن ، بأى نموذج سياء ، حتى إن كل شيء انتقل — من غير شعور — من العين إلى اليد ، دون فقدان شيء ، وأخيرًا تضافرت العين مع اليد فى العمل على وفاق كامل : وبالجملّة ، نجح أحد الوجوه الأخيرة نجاحًا كاملاً ، إلى حد أن المرء يخيل إليه أن أوتيلى نفسها ماثلة تلقى من علياء سمائها بنظراتها على الأرض .

وتمت القُبّة ؛ وكان رأى أن تترك الجدران عارية ، إنما تغطى فقط بطبقة سمراء فاتحة ، عليها تبرز الأعمدة الرقيقة وزخارف النحت بواسطة لون أغمق ؛ لكن كما يحدث فى مثل هذه الأحوال من أن شيئًا يقود دائمًا إلى آخر ، فقد قر العزم على أن ترسم على الجدران أيضًا أكاليل من الأزهار والثمار ، من شأنها — على نحو ما — أن توحد ما بين الأرض والسما . وفى هذا أحست أوتيلى بأنها بنت مجدها . وكانت البساتين خير نموذج تحتذيه ، وعلى الرغم من أن هذه الزخارف قد عولجت ببراء واسع ، فإن العمل قد تم قبل الألوان المقدّر له .

ومع هذا فقد لاح كل شيء متبدى الخشونة والإهمال : فالتقوّم كانت مختلطة ، والألواح متناثرة بعضها فوق بعض ، والأرضية غير مستوية ، قد زاد من تشويهاها مختلف الألوان التى نشرت عليها . فسأل المهندس السيدتين أن يدعاه ثمانية أيام لا يدخلان فيها المعبد . وأخيرًا فى أُمسية جميلة دعاها للمجيء كلاً من ناحية ؛ ولكنه سألها أن يعفياه من مصاحبتها ، وانصرف .

— مهما يكن من الدهشة التي أوقعنا فيها حينما خرج ، هكذا قالت شرلوت — ، فليست لدى الآن أية رغبة في الذهاب إلى المعبد . فكافي نفسك وحدها هذه المهمة ، وأبليثني نبأ ما سترين . وليس من شك في أنه عمل عملاً جميلاً ؛ وسأنعم به بواسطة وصفك أولاً وبالعيان ثانياً . وكانت أوتيلي تعلم جيداً كيف أن شرلوت تلتزم الحذر في كثير من الأشياء ، وتتجنب كل الانفعالات ، ولا تريد خصوصاً أن تقع في دهشة ؛ لهذا سلكت سبيلها وحدها في الحال ، وبغير إرادة منها تفقدت المهندس بعيونها . لكنه لم يظهر : ولعله قد اختفى في ركن ما . فدخلت المعبد ووجدته مفتوحاً . وكان قد تم منذ زمان طويل ، ونُظف وكُرس . فتقدمت ناحية باب الكابلية ، الذي انفتح بسهولة على الرغم من أنه كان ثقيلاً مزوداً بالبرز ، وسمح لها ، في مكان كانت تعرفه ، برؤية مشهد لم يخطر لها على بال .

فن النافذة الوحيدة العالية كان يساقط نور قائم ، اختلط في جمال بأصباغ متنوعة هي أصباغ الزجاج الملون ، مما أعطى الكل لوناً غريباً ، وأحدث في النفس أثراً من نوع خاص تماماً . وزادت زخارف الأرضية من جمال القبة والجوانب ، وقد كانت الأرضية مكونة من طوب ذي شكل خاص مرصوف وفقاً لنموذج جميل ومترابط معاً بواسطة طلاء من الجبس . وهذه المربعات ، هي والزجاج الملون ، قد أعدها المهندس سراً ، وكفاه وقت قصير لترتيب كل شيء . وحسب حساباً للجalous : فبين أثاث الكنيسة العتيق كانت توجد بعض مقاعد الجوقة أنيقة النحت ، فأُسندت إلى الجدران التي تحيط بها على نحو ملائم .

نعمت أوتيلي بالأجزاء المعروفة لها وقد تبدت أمامها الآن كأنها مجموع

جديد . وقفت حيناً ، وغدت وراحت ، وتأملت وشاهدت ؛ وأخيراً جلست على أحد المقاعد ، ورفعت عينيها إلى القبة ثم أجالتهما فيما حولها ، فلاح لها أنها موجودة وأنها غير موجودة ، أنها تشعر ولا تشعر ، وأن كل ما رآته على وشك أن يزول أمامها ، وأنها هي ستزول أمام نظر نفسها . ولم تخرج الفتاة عن أحلامها إلا حينما غادرت الشمسُ النافذة التي كانت ترسل عليها فيضاً من النور حتى ذلك الحين . ثم دأبت إلى القصر .

ولم تسكن نفسها أى زمن غريب جرت لها فيه تلك المفاجأة . لقد كان عشية عيد ميلاد إدورد ، وهي كانت قد أمّلت أن تحتفل به على نحو آخر مختلف تماماً . لكن كم صار كل شيء مزداناً من أجل هذا العيد ! الآن قد تفتحت كل أزهار الحريف الجميلة ، ولم يقتطفها أحد بعد . إن أزهار عباد الشمس هذه لتدير وجهها دائماً قِبَل السماء ، وهذا الأسطير يفيض عيونهُ بتواضع نحو الأرض ، وتلك التي ضُفرت على هيئة أكلیل قد استخدمت كمنادج لتزيين مكان ، إن لم يكن له أن يبقى دائماً نزوة فنان ، وإذا كان لا بد من تكريسه لمنفعة ما ، فإنه يلوح أنه لا يليق إلا أن يكون مقبرة مشتركة .

ثم تذكرت بأى نشاط صاحب تم الاحتفال بعيد ميلادها بفضل إدورد ؛ فأفكرت في البيت الجديد ، الذي اتَّعَدَتْ تحت سقفه على كثير من أسباب السرور ؛ وكيف كانت الشَّهْمَان النارية تتلأأ تحت سمعها وبصرها ؛ وكلما ازداد شعورها بوحدةها ازداد انشغال خيالها ، لكن هذا لم يزد وحدتها إلا وحشة وكآبة . إنها لم تعد تستند بعدُ إلى ذراع إدورد ، ولم تعد تأمل بعد في أن تجد فيه يوماً سندها وعمادها .

من يوميات أوتيلي

يجب أن أسجل خاطر فنان شاب : الأمر عند الفنان التجسيمي شأنه شأن الصانع : فلا بد من الاعتراف بكل يقين بأن الإنسان لا يكون أقل مملكا لشيء منه لما ينتسب إليه حقا . إن أعماله تهجره ، كما تهجر الطيور الأوكار التي ولدت فيها .

ومن هذه الناحية يكون مركز المهندس غريبا كل الغرابة . فكم مرة يستخدم كل عبقريته وكل تعشقه للفن ، لإقامة أبنية يجب أن يخرج نفسه منها ! إن مساكن الملوك لتدين له بروعتها وجلالها ، ولا يسمح له بالتمتع بخير ما فيها ؛ وهو في المعابد يرسم خط تحديد يفصل بينه وبين قدس الأقداس ؛ وليس له بعد أن يطأ الدرجات التي وضعها من أجل احتفال تهذيبي ، شأنه شأن الصانع الذي لا يستطيع أن يتعبد معرض القربان المقدس الذي رتب هو جواهره ومبناه إلا من بعيد . إن المهندس حينما يقدم مفتاح القصر إنما يسلم إلى الفن كل المتع واللاذائد ، دون أن يشارك هو فيها بأدنى نصيب . وعلى هذا ، أفلا يجب على الفن إذا أن يتباعد عن الفنان شيئا فشيئا ، اللهم إلا إذا لم يرد العمل الفعل على منشئه كالابن البار ؟ وأى تشجيع لا بد للفن أن يجده في نفسه ، حينما كان يلذ له ألا يشتغل إلا بالأعمال العامة ، بما ينتسب إلى كل الناس وبالتالي إلى الفنان نفسه !

كانت لدى الشعوب القديمة فكرة قاسية ، يمكن أن تبدو رهيبة . لقد كانوا يتخيلون أجدادهم جالسين على عروش في داخل كهوف ضخمة يتحدثون في صمت ؛ فإذا أتاهم عضو جديد جدير بالتقدير ، وقفوا

له وانحنوا، إكراما لوفادته . وبالأمس ، حينما جلست في الكابينة ، ورأيت قبالة مقعدى المنحوت مقاعد أخرى عديدة ، مصفوفة من حولى ، تبدت لى تلك الفكرة جميلة سارة . « لماذا لا تستطيعين أن تظلى جالسة ؟ هكذا قلت لنفسى ؛ ابقى جالسة ، صامته ، متأملة ، لزمان طويل ، طويل ، حتى اليوم الذى يأتى فيه أصدقاؤك ، فتنهضين واقفة لمرآهم ، وبتحية صادقة ، تشيرين إليهم بالمكان الذى ينتظرهم ؟ إن الألواح الزجاجية الملوثة لتجعل من النور أصيلا كاليا ، ولا بد أن يضع أحد الناس مصباحا دائما كيلا يدع الليل مستغرقا فى ظلام شامل » .

فى أى مكان شئت أن توجد به بخيل إليك دائما أنك تبصر وترى . إننى أعتقد أن المرء يحلم لا لشيء إلا لكيلا يتوقف الإبصار والرؤية . فمن الممكن أن يحدث أن ينبثق النور الباطن مرة من داخل نفوسنا ، بحيث لا يكون غير ضروريا لنا .

العام بسبيل الزوال ؛ والريح تمر فوق القش ، ولا تجد بعد شيئا تهزه ؛ والحبوب الحمراء لهذه الأشجار الفارعة تبدو هى وحدها التى تريد أن تذكرنا ببعض الأفكار الباسمة ، كما أن الضربات الموزونة للدراس فى الحقل تثير فينا فكرة أن الغذاء والحياة كامنان بوفرة فى السفينة المحصورة .

الفصل الرابع

بعد أمثال هذه الأحداث ، وبمسد أن نفدت مشاعر بطلان الشئون الإنسانية فى كل أعماقها ، كم كان تأثر أوتيل حينما علمت (ولم يكن من الممكن إخفاؤه عنها طويلا) أن إدورد قد أسلم نفسه لعواصف الحرب !

وا أسفاه ! لقد انسأقت وراء كل ما عسى أن يثيره هذا من تأملات وخواطر وأفكار . لكن لحسن حظ الطبيعة الإنسانية أنها ليست قادرة إلا على مقدار محدود من الألم . وما يزيد عنه يقتلها أو يدعها غير مكترثة . وهناك مواقف يختلط فيها الخوف والرجاء ، يوازن كل منهما الآخر ويفنيان في فقدان للشعور غامض . وإن لم يكن الأمر على هذا النحو ، فكيف نحتمل أن يكون أعز الناس لدينا بعيدين عنا مستهدفين لأخطار متصلة ، ومع هذا ننسى في أعمالنا في الحياة اليومية !؟

يلوح إذاً أن ملاكا حارساً قد عُني بالسهر على أوتيل ، بأن أتى لها فجأة ، في مأواها الهادئ الذي قبعت فيه وحيدة عاطلة من الأعمال ، بجيش جرار سبب لها خارجياً القيام بكثير من الأعمال التي انتزعت نفسها منها ، وفي الآن نفسه أيقظ فيها الشعور بقواها الخاصة .

فلوسيانه ، ابنة شرلوت ، لم تسكد تغادر مدرستها حتى دخلت المجتمع ؛ ولم تسكد يراها الناس في بيت عمتها ، محفوفة بجماعة عديدة ، حتى أرضت رغبتها في الإغراء ، وسرعان ما شعر شاب واسع الثراء برغبة حارة في امتلاكها . وقد كان يساره العظيم يعطيه الحق في امتلاك خيار كل شيء ، ولم يُلحْ أن شيئاً عاد ينقصه بعد إلا الزوجة الكاملة التي لا بد أن تثير في الناس الحسد ، كما يثير هذا غيره مما لديه من الأشياء .

وهذه مسألة كثيراً ما شغلت شرلوت حتى ذلك الحين ، فكرست لها كل أفكارها ، وكانت كل رسائلها تدور من حولها ، اللهم إلا تلك التي كانت لا تزال تكتبها كيما تظفر بأخباره عن إدورد . لهذا فإن أوتيل قد أصبحت في الأيام الأخيرة في وُحدة أشد إيمحاشا عما قبل . أجل ، إنها كانت تعلم أنهم ينتظرون لوسيانه ؛ وهي قد أعدت في المنزل كل ما يلزم ، لكن

لم يكن من المتوقع أن تكون الزيارة قرية كل ذلك القرب . وهم شاءوا أيضاً أن يكتبوا ويتفاهموا ويتفقوا على التفاصيل ، لكن العاصفة هبت فجأة على القصر وعلى أوتيلي معا .

قدم الوصائف والخدم في عربة ومعهم الحقائق والصناديق . حتى ليخيل إلى المرء أنه يرى في البيت أسرتين من السادة أو ثلاثا . وعما قليل أقبل الضيوف أنفسهم : العمة الكبرى ومعها لوسيانة وبعض صديقاتها ، والخطيب نفسه ومعه حاشية وافرة . وامتلاء الدهليز بالمتاع والحقائب والعِياب . وكان لابد من كثير من المشقة لتمييز كل هذه الأمتعة والصناديق ؛ ولم يقف الحل والتفريغ والجر . وزاد في هذه المتاعب انهمار مطر دافق . أما أوتيلي فقد قابلت هذا الاضطراب الصاخب بنشاط مُتَزَن هادئ ؛ وتبدت نصاعتها ومهارتها بكل جلاء ؛ وفي وقت قصير وضعت كل شيء في مكانه ورتبته . واتخذ كل مسكنا طيبا رافها يتفق وهواه ، وُخِيْل إليه أنه ينعم بخدمة ممتازة ، لأنه لم يُمنع من خدمة نفسه بنفسه .

وبعد هذه الرحلة الشاقة كل المشقة ، كان كلُّ يود أن يحظى بشيء من الراحة ، وكان يود الخطيب أن يقترب من سماته ، كما يحدثها عن مشاعره وطيب نواياه ؛ لكن لوسيانة لم تُطِيق الهدوء .

ووفقاً لمشيئتها ، ظفرت أخيراً بجواد : وكان خطيبها يملك من الخيول أنواعاً نفمة ، وكان لابد من استخدامه في الحال . فلم تكن رداءة الجو والرياح والمطر والأنواء عقبات في ذلك السبيل : ولاح أن المرء منهم لا يحيا إلا لبيتل ثم يتجفف بعد . وإذا شاء للوسيانة هواها أن تخرج ماشية على قدميها ، فإنها لم تكن تحسب حساباً لثيابها ولحذاءها . وأرادت زيارة المنشآت التي سمعت عنها حديثاً طويلاً . وما كان غير ميسور لها ارتياده على الجواد ،

كانت ترتاده على قدميها . وبعد قليل كانت قد رأت كل شيء وقدرته . وإن شخصاً له مثل مالها من حرارة وحمية لا يتيسر له احتمال المعارضة بسهولة . وكُم شكت الجماعة منها في هذا القصر ، خصوصاً الوصيفات اللاتي كُنن لا يفرُغن من الغسيل والكي والخياطة والرفو .

وما كاد القصر وما حوله يستنفد حب استطلاعها ، حتى وجدت نفسها مضطرة إلى القيام بزيارات في كل المنطقة المجاورة . ولما كانت تسرع في سيرها كل الإسراع ، إما على الجواد ، أو في العربة ، فإن المنطقة قد امتدت إلى مدى بعيد . وأقبلت على القصر وفود زاخرة من الناس الذي قدِموا للزيارة ، ولكي يضمن وجودهم ، حُدِّدت أيام للاستقبال .

وبينما كانت شرلوت مشغولة هي وعمتها ومدير أعمال الخطيب بوضع شروط العقد ، وبينما كانت أوتيلي تحسن الإشراف على كل شيء وتدير كل ما يُحتاج إليه وسط هذا التدافع الكبير (وهي قد عبأت القناصين والبستانيين والصيادين والتجار) — كانت لوسيانه تتبدى دائماً كأنها نجم مذهب متوقد يجر وراءه ذنباً طويلاً مسترسلاً . وسرعان ما بدت لها أسباب التسلية العادية للجماعة تافهة خالية من كل طعم . وقليلاً ما كانت تترك للأشخاص الكبار شيئاً من الراحة عند منضدة اللعب . وكل من كان لا يزال قادراً على التحرك (ومن ذا الذي لا ينساق وراء مضايقاتها الفاتنة !) كان لابد له من المشاركة ، إن لم يكن في الرقص ، فعلى الأقل في هذه الألعاب المتوولة بالمراهنات والمقوبات والمكائد . وحتى لو لم يكن لكل هذه التسليلات ، وما يتلوها من فداء الرهائن ، من موضوع غيرها ، فإن أحداً ، وخصوصاً الرجال ، مهما يكن من طبعه وخلقه لا يمكن أن ينسحب منها دون أن يظفر بشيء . بل لقد نجحت أيضاً في إغراء بعض المُسنِّين ذوى المسكاة المرموقة ، وذلك

باحترافها بأيام أعيادهم أو ميلادهم بعد أن تكون قد وقفت على أمرها .
وعرفت بمهارة عجيبية كيف تقنع كل إنسان - بما تشمله من عطف -
بأنه المفضل عندها الأثير لديها ، وهذا ضعف كان أكبر الجماعة سنًا أولى
الناس بأن يلوموا أنفسهم عليه .

ويبدو أن خطة لوسيانه هي أن تأسر قلوب الرجال البارزين الذين
ينعمون بالسكانة أو الجاه أو الشهرة أو أية ميزة أخرى ، وأن تُذل الحكمة
والفطنة وأن تجعل حتى أكثر الناس تحفظاً طوعاً أهوائها العاصفة . ولم
يضع نصيب الشباب من هذا ؛ فلقد كان لكل لحظة ويومه وساعته التي فيها
تعرف كيف تغريه وتأسره . وبعد قليل لاحظ المهندس : لكنه كان
يحمل ، تحت شعره الجُفال الأسود ، سياء البراءة الكاملة ؛ فكان ينتحي
جانباً ، وعليه مسحة البساطة والهدوء ؛ وكان يجيب عن كل الأسئلة بأجوبة
موجزة حكيمة ، دون أن يبدي استعداداً للزيادة والاستزادة ، حتى إنها
قررت في النهاية - عن حَقِّ يمازجه المكر - أن تجعل منه مرةً بطل
اليوم وأن تدرجه من بين حاشيتها .

وهي لم تحضر كل هذا المتاع معها وبعد وصولها عبثاً : فإنها قد أرصدت
أهْبَتَهَا لتبديل زينتها باستمرار إلى غير نهاية . ففضلاً عن أنها كان يلذ لها
أن تقوم كل يوم بثلاث زينات أو أربع وأن تظهر دائماً ، من الصباح حتى
المساء ، بأثواب جديدة ، فإنها كانت تبدو في الأثناء في ثياب تنكرية على
هيئة فلاحه أو امرأة صياد أو جنية أو بائعة أزهار ؛ ولم تستحى من التنكر
في زى امرأة عجوز ، كما يتبدى وجهها الشاب أكثر نضارة تحت عُصابتها ؛
والواقع أنها كانت تمزج بين الخيال والواقع على نحو يجعل المرء يعتقد أنه
على صلة قربي ومخالفة مع أنسدين نهر الزاله . بيد أنها كانت تستخدم هذه

التسكرات لناظر المحاكاة ورقصاتها ، وفيها كانت تكشف عن قدرتها على التعبير عن مختلف الأشخاص ومحاكاتهم . وهي كانت قد صرّنت فارساً من حاشيتها على أن يصاحب حركاتها بيمض الألحان الضرورية يوقعها على البيان ذى المفاتيح . وكانت بضع كلمات قليلة تكتبها للتوافق ، وسرعان ما ينسجهان .

وذات يوم أثناء استراحة فى رقص وافر الحركة سئلت ، بإيعاز خفيٍّ منها — لكن كأن الأمر مفاجأة — أن تمثل منظرًا من ذلك النوع ، فبدأ الاضطراب عليها والدهشة ، وعلى غير عاداتها اضطرت السائلين إلى الإلحاح . ولاح منها التردد ، تاركة الخيار للجعاعة ، سائلة موضوعاً ، شأنها شأن كل مُصرّجٍ ؛ وأخيراً قام الفارس الذى كان يسايرها على البيان ، والذى ربما دبرت الأمر وإياه ، وبدأ يعزف لحنا جنازياً ودعاها إلى تمثيل أرتيميسيه^(١) وهو دور أقتنته كل الإتيقان . ثم أبدت موافقتها ، وبعدغيبية قصيرة تبدت ، على ألحان اللحن الجنازى الحزينة ونغماته المؤثرة ، فى ثياب الأرملة المسكينة ، بخطوات موزونة ، تحمل إجحاة بين ذراعيها . ومن خلفها كانت تحمل لوحة سوداء كبيرة ، وفى مقلمة من الذهب قصعة من الطباشير جيدة الصنع .

(١) هى ملكة كايا (هى مقاطعة فى جنوب أيونا وشرقى وشمال البحر الإيبارى وغربى أفريقيا الصغرى فى آسيا الصغرى) ، وهى ابنة هيكتاتوموس ملك كايا أو هليكارناسوس . تزوجت أخاها موسولس الشهير بوسامته وجاهه . وقد بلغ من حبها لزوجها أنها — حين مات — شربت رماده فى شرابها بعد أن أحرق بدنه ، وأقامت تمثالا لذكراه عدّة من بين عجائب الدنيا السبع لما فيه من نغامة وجلالة . وأطلقت على هذا التمثال اسم «موسوليوم» ، وهو اسم أطلق من بعد على كل ضريح فخم . ودعت كل الأدياء فى عصرها وعينت جوائز ثمينة لمن يقول خير مرثية فى زوجها ، ولم يُعبد أى عزاء فى صرفها عن حزنها على زوجها ، فانت من الغم بعد سنتين من وفاته .

ثم همست في أذن أحد أتباعها وعابديها يضع كلمات ، فانطلق لفوره يسأل المهندس ويلج عليه ، ويدفع به على نحوٍ ما ، إلى داخل الحلقة ، إلى حد أنه اضطر إلى أن يرسم ، بوصفه فناناً ، مقبرة موسول ، دون أن يقتصر على دور الدخيل ، بل لعب درواً جدياً في هذا التمثيل . وعلى الرغم مما بدا عليه من اضطراب (لأن ثوبه الضيق الحديث كان في مفارقة بارزة مع الأقمعة والكريب والهُدَّاب والشراريب وألوان الزينة والتيجان) ، فقد ظل مالكا لسلطان نفسه ، مما زاد في روعة النظر . وبكل جدٍّ ووقار وقف أمام اللوحة الكبرى التي كان يحملها خادمان ، ورسم بكل عناية ودقة مقبرة كانت أنسب أن تكون - والحق يقال - لملك لمباردى منها لحاكم كاريّا ، لكن كان في نسبها من الجمال وفي أجزائها من دقة الذوق ، وفي زخارفها من الحذق والبراعة ما جعلها تلذ الأعين حين بُدِئ فيها وتثير الإعجاب حين تمامها .

وطوال هذا الوقت كله لم يكذبدير وجهه ناحية الملكة ، إذ وجّه كل انتباهه إلى عمله ؛ وأخيراً حينما انحى أمامها ، وأفهمها أنه أنفذ أوامرها ، قدّمت هي إليه الإجابة ، مُبديّة رغبتها في أن تراها مرسومة في أعلى التمثال . فامتثل لكن عن أسف ، لأن هذه الإجابة لم تكن على انسجام مع مُجمله . وهكذا شعرت لوسيانة بأنها تخلصت من حَرَجها . فهي لم تقصد مطلقاً إلى أن تطلب إليه رسماً دقيقاً : فلو أنه اقتصر على أن يرسم بصورة إجمالية وبيعض ضربات من قلمه موضوعاً عليه مسحة تمثال ، فقد كان هذا أكثر ملائمة لمقاصدها وأغراضها . ولكن مسلك المهندس أوقع بها - على العكس من هذا - في حيرة لا مخرج منها . والواقع أنها على الرغم من أنها حاولت أن تدخل كثيراً من التنوع في آلامها ، وأوامرها وإرشاداتها ، وفي

المدايح التي أسبغتها على العمل وهو يتقدم قليلا قليلا ؛ وعلى الرغم من أنها كانت أحيانا تحدث للفنان بعض العاكسات ، لكي تدخل في منظر معه ، فإنه قد أبدى من البرود ما حملها مرارا على اللجوء إلى إيجانتها تضغطها على قلبها ، وترفع عينها إلى السماء . ولما كان المرء في مثل هذه المواقف يبالغ كثيرا ، انتهت بأن كانت أشبه بأرملة من أفسوس منها بملكة كاريا . واستطال المنظر ؛ ولم يدر الفارس الصابر العازف على البيان ذي الفاتيح إلى أية تنغيمات عليه أن ينتقل ؛ وحمد السماء حينما رأى الإجانة واقفة على الهرم . ولما أرادت الملكة أن تمبر عن شكرائها ، إنتقل — دون وعي — إلى نغمة فرحة ، إن أفقدت التمثيل طابعه ، فإنها أشاعت الطرب في الجماعة . وامتد السرور إلى لوسيانة لتهنئتها بحرارة على براعة محاكاتها ، وإلى المهندس على رسمه الجميل الرشيق .

وتوجه إليه بالحديث خصوصا خطيب لوسيانة .

قال له : « يؤسفني ألا يبقى هذا العمل طويلا . ألا فلتسمح لي على الأقل أن آمر بحمله إلى غرفتي ، وأنا أحادثك في شأنه » .

فأجاب المهندس : « إن كان هذا يسرك ، فسأطلعك على رسوم متقنة لأمثال هذه التماثيل ، التي ليس هذا إلا مجالا سريعا عارضا لأحدها » .

ولم تكن أوتيلي غير بعيدة ، فتقدمت وقالت للمهندس :

— لا تنس أن تطلع السيد البارون على محافظ أوراقك ، وبهذه المناسبة أقول إنه مُحِب للفنون ولما هو قديم . وإني لآمل أن تزيد معرفة كل منكم بالآخر .

وحضرت لوسيانة وسألت عما يتحدثون بشأنه . فقال البارون : عن مجموعة آثار يملكها السيد ، وسيتفضل بإطلاعنا عليها يوما ما .

— فليطلعنا عليها فوراً ؟ — هكذا صاحت لوسيانة — أليس صحيحاً يا سيدى أنك ستحضرها إلينا فى الحال ؟ هكذا أضافت بصوت مُلَاطِف ، وهى تمسك بيديه علامة صداقة .

فأجاب : يبدو لى أن هذا ليس وقته مطلقاً .

— لماذا ؟ — قالت لوسيانة بلهجة آمرة — أترفض أن تمتثل لأوامر ملكتك ؟ » .

— لا تكن عنيداً ! هكذا قالت له أوتيلى بصوت خافت .

ففضى المهندس ، بعد أن أحنى رأسه ، انحناءة لم تكن رفضاً ولا قبولاً . ولم يكذب يخرج حتى شرعت لوسيانة فى العدو فى البهو مع كلب سلوقى . — آه ! كم أنا تَعِسَة ! هكذا قالت حينما اصطدمت بأمرها مصادفة . لم أُحْضِرْ معى نَسْناسى ، فقد صرفونى عن هذا ؛ ولكنه كسل خَوَلْنَا هو الذى حرمنى من هذه اللذة . وعلى كل حال فإننى سآمر باستحضاره ، وسيذهب واحد لتفقدته . آه لو كنت أستطيع أن أُرِيه مجرد صورته ، إذأ لكنت راضية . ولن أنسى أن آمر برسمه ، ولن يفارقنى أبداً .

— لعل لى ما يفريك ، هكذا قالت شرلوت ؛ فسآمر بإحضار مجلد من المكتبة ملىء بأغرب أشكال النسانيس .

فصاحت لوسيانة صيحة السرور ، وأحضر المجلد الكبير . ولذ لوسيانة كثيراً منظرُ هذه الحيوانات المخيفة الشبيهة بالإنسان ، والتي زاد الفنان فى طابعها الإنسانى . ووجدت لذة غريبة فى أن تفقد فى كل من هذه الحيوانات مشابهاً لأشخاص معروفين .

— ألا يشبه هذا خالى ؟ — هكذا صاحت بغير شفقة — ؛ وذاك

أولا يشبه م . ن تاجر الأزياء الجديدة ؟ وذلك الآخر ، وجه القسيس

س . . . ؟ وهذا ألا يحاكي . . . فلاناً . . . تماماً ؟ الواقع أن القردة هم غير المعقولين^(١) الحقيقيين ، ولا أفهم إمكان استبعادهم من المجتمعات الراقية . وهي قد قالت هذا وسط مجتمع راق ، ولم ير أحد في هذا ضيراً . فقد تملكهم عادة السماح لهواها بكثير من الأمور ، حتى إنهم كانوا يهتملون كل ما يصدر عنها من مخالف للآداب .

وخلال ذلك الوقت كانت أوتيل تتحدث إلى الخِطَّيب . وكانت تأمل أن يعود المهندس عما قليل ، وأن تحاْص مجموعته ، وهي جادة مليئة بالذوق الجماعية من كل هذه القردة . وفي تلك الأثناء كانت تحدث البارون ، متنقلة بين موضوعات شتى . لكن المهندس تأخر كثيراً ، وأخيراً حينما ظهر ضاع وسط الجماعة ، دون أن يُحْضِر شيئاً ، ودون أن يبدو عليه أنه طُلب إليه شيء . فبقيت أوتيل لحظة . . . أقول ساخطة مُحَنِّقة لا تحير جواباً ؟ إنها قد توجهت إليه بسؤالها بطريقة ودية ؛ وسرها أن تهيب للخِطَّيب ساعة طيبة ، وقد كان يبدو عليه أنه غير راض عن مسلك لوسيانه ، على الرغم من فرط حبه لها إلى غير حد .

وأخلت القردة مكانها لأكلة خفيفة . واستمرت ألعاب الجماعة والرقص نفسه وحديث خلا من كل لذة ، والسمي الباطل وراء لذة ذاهبة ، كل هذا استمر هذه المرة ، كما هي العادة ، إلى ما بعد منتصف الليل : لأن لوسيانه

(١) « غير المعقولين » Incroyables هم طائفة من الشباب — إبان حكومة الإدارة في فرنسا ١٧٩٥ — ١٧٩٩ — الذين كانوا يظهرون كثيراً من التصنع في ثيابهم وحركاتهم وعاداتهم ولغتهم ، بحيث كانوا يحذفون منها حرف الراء . وقد جاءهم هذا اللقب من اللازمة التي كانت لهم ، وهي تكرر هذه العبارة : « هذا غير معقول ، بصرفي » C'est incroyable, ma parole, d'honneur ، يردونها بكل مناسبة وغير مناسبة .

كانت قد اعتادت ألا تستطيع القيام ولا النيام .
ونحن لا نجد في هذه الفترة إلا قليلا من الأحداث المسجلة في
يوميات أوتيلي ؛ وفي مقابل هذا نرى كثيراً من الأمثال والحكم المتصلة
بالحياة أو المنترعة منها . لكن لما كان الجزء الأكبر منها لا يلوح أنه من
ثمار أفكارها الخاصة ، فمن المحتمل أن يكون أحدهم قد أعارها مخطوطاً
اقتبست منه ما يلائمها . ومن السهل على المرء أن يتبين ، بواسطة الحيط
الأمر ، بعض الأفكار الخاصة ، المنترعة من ينبوعها الباطن .

من يوميات أوتيلي

يلذ لنا أن نمتد بأبصارنا إلى المستقبل ، لأننا نريد أن ندير على هوانا
— بالأمانى الخفية — مختلف الأحوال التي تسبح في صدورنا .

من الصعب على المرء أن يجد نفسه في جماعة حافلة دون أن يصور
لنفسه أن الصدفة التي تجمع كل هؤلاء لا بد أيضاً أن تعيد إلينا أصدقاءنا .

عبثاً يحاول المرء أن يعيش في خلوة ، فسرعان ما يصبح ، قبل أن
يعرف ، مديناً أو دائئاً .

لو قابلنا إنساناً يدين لنا بالشكران ، تخطر ببالنا في الحال هذه الفكرة .
لكن كم مرة يمكننا فيها أن نلتقي بهؤلاء الذين ندين لهم نحن به ، دون أن
يخطر هذا ببالنا !

الإفشاء بمكنون النفس إلى الآخرين ميل طبيعي فينا ؛ وتلقى ما يفشى
به إلينا على النحو الذي يقدم إلينا ، هو نوع من التهذيب .

لو عرف المرء مقدار إساءته فهم الآخريـن لما أطال الحديث إليهم .

إذا كان الإنسان يبدّل كثيراً في أقوال الآخريـن حين يرددها ، فما ذلك إلا لأنه لم يفهمها .

من يستأثر في المجلس طويلاً بالحديث دون أن يتملق السامعيـن يُـثيرُ النفور .

كل قول يُتَفَوَّه به يثير الفكرة المعارضة .

المعارضة والملق يحمل كلاهما الحديث ممجوجاً .

خير الجماعات جماعة يسود بين أعضائها التقدير الهادئ .

لا شيء في الدنيا يُـحسِّن تصويرَ الناس بطبائع نفوسهم خيراً من الأشياء التي يسخرون منها .

المُضِحُّك ينشأ عن تباين معنوي ، مُزج على نحو لا تجرح معه الحواس .

الشهواني يضحك غالباً حينما لا يكون ثمث للضحك مجال : فأى موضوع استثاره ، يكشف عن طيب مزاجه .

الرجل المَرِح يكاد يجد في كل شيء ما يُضِحِّك ، أما العاقل فيكاد أن لا يجد شيئاً .

أنكروا على رجل مُسِين مغازلته الفتيات ، فأجاب : « هذه هي الوسيلة

الوحيدة لتجديد الشباب ، وذلك أمل الكل » .

يمرض المرء نفسه للاملام على نقائصه ، ويعرضها للعقاب ويتحمل بسببها كثيراً من الأشياء في صبر ؛ لكنه يقلق إذا وجب عليه التخلص منها .

بعض النقائص ضرورى لوجود الفرد . وكم يسوؤنا أن نرى أصدقاءنا القدماء ينخلصون من بعض الغرائب .

يقال عمن يفعل على خلاف طبعه وعاداته : « عما قليل سيموت » .

آية نقائص يجب علينا الاحتفاظ بها ، بل وتربيتها فينا وإعماؤها ؟ تلك التى تتملق الآخرين أولى من أن تجرحهم .

ليست الوجدانات إلا فضائل أو رذائل غوى فيها .

إن وجداناتنا طيور من الفونقس^(١) حقيقية : إذا احترق القديم منها سرعان ما يولد الجديد من رماده .

الوجدانات الكبرى أمراض ميثوس منها : من يقدر على علاجها لا يفعل إلا أن يجعلها بالغة الخطورة .

الوجدان يحتاج ويهدأ بالاعتراف . ولعل الاعتدال لا يُطلب فى شيء قدر ما يطلب فى الثقة والتحفظ فى صلاتنا بمن نحبهم .

(١) الفونقس أو الفنقس أو عنقاء مُغرِب هو طائر خرافى يعيش دهرأطويلا فى صحراء العرب على ماورد فى الأساطير ؛ ويحرق نفسه فى شعلة نار ، ثم يُبحث من الرماذ من جديد .

الفصل الخامس

على هذا النحو كانت لوسيانة تملك على أصدقائها أنفاسهم دائماً ، فكانوا يحيون في دوامة من اللذات . وازدادت حاشيتها يوماً بعد يوم ، إما لأن حميتها كانت تستثير البعض وتغريه ، أو لأنها كانت تعرف كيف تجتذب البعض الآخر بما فيها من لطف وأريحية نفس . لقد كانت ظُهرة بؤوْحاً بما في صدرها إلى أعلى درجة . ولما كان حنان عمتها وخَطيبها قد أفرغ عليها آلاف الأشياء الجميلة الثمينة دفعة واحدة ، فقد لاحت كأنها لا تملك لنفسها شيئاً ، ولا تعرف قيمة الثروات التي تكسدت من حولها . فلم تتردد لحظة واحدة في أن تتنازل عن شال ثمين ، لتضعه على كتفي سيدة بدت في نظرها متواضعة الملبس جداً إذا ما قورنت بالأخريات . وكانت تقوم بهذه الأشياء ببراعة ومرح جعلاً أحداً لا يستطيع أن يرفض هداياها . وكان أحد أتباعها يحمل دائماً كيساً ، ومهمته أن يستعلم ، في الأماكن التي يقدون إليها ، عن الأشخاص المسنين والمعجزة ، لتخفيف آلامهم ، مؤقتاً على الأقل . وعن هذا الطريق نالت في المنطقة كلها شهرة بالإحسان كانت أحياناً مصدر مضايقة لها ، لأنها اجتذبت إليها جمعاً ثقيلاً من المعوزين والمحتاجين .

لكن لم يساهم شيء في زيادة شهرتها أكثر من سلوكها المُفْرِط نحو شاب بائس كان يتجنب المجتمع ، لأنه مع جماله وحسن تكوينه قد فقد يده اليمنى في معركة توجته بالمجد والشرف . فأثار هذا التشويه في نفسه يأساً بلغ حداً جعله يتألم من كون كل شخص جديد يعرفه يتساءل دائماً عن سر شقائه ، فكان يفضل الاستتار عن عيون الناس ، مُسليماً نفسه إلى

القراءة والدرس ، قاطعاً بهذا كل صلة تربط بينه وبين المجتمع .
 بيد أن هذا الشاب لم يبق مجهولاً لدى لوسيانة . وكان لا بد له أن يظهر أولاً في دائرة صغيرة ، ثم في أكبر منها ، وأخيراً في أكبر المجتمعات .
 وهي قد استخدمت معه من التلطف ما لم تستخدم مثله مع أحد من قبل ،
 فاستطاعت بفضل اجتنبائها إياه أن يجد نوعاً من العذوبة والراحة في عاهته .
 لقد كانت على المائدة تجلسه إلى جوارها ، وتقطع له الماء كل حتى إنه لم
 يكن في حاجة إلى استخدام أداة غير الشوكة . وإن فصل بينها وبينه في
 الجلوس أناس أكبر سناً أو أعلى مرتبة كانت تبسط أيضاً عنايتها إليه على
 طول المائدة ، وكان على احتفاء الخدم أن يعوض عما لا تستطيع فعله
 لبُعدها . وانتهت بأن شجعت على الكتابة بيده اليسرى ، وكان عليه أن
 يوجه كل هذه المحاولات إليها : وهكذا كانت — عن قريب أو عن بعيد —
 على اتصال دائم به . فاستحال الشاب خلقاً آخر ؛ ومن ذلك الحين دخل
 فعلاً في حياة جديدة .

وقد يتبادر إلى الظن أن هذا النحو من السلوك لا بد أن يُسَخِّط
 الخَطِيب ، لكن ما حدث كان على العكس . فقد وجد لوسيانة خليفة
 بكل إطرء على القيام بكل هذه الجهود . وزاد من طمأنينته بمقدار ما كان
 يعرف من مزاجها وميلها إلى إبعاد كل ما قد يبدو له مصدرراً لأقل خطر —
 ميلاً لا يخلو من المبالغة . لقد كانت تحب أن تكون في ألفة ومودة مع
 الجميع ، حسبما تهواه ؛ وكان الكل معرضاً لأن يهاجم أو يضرب أو أن
 يشاكس على أى نحو من جانب لوسيانة ، لكن لم يكن لأحد أن يسمح
 لنفسه بأن يرد عليها بالمثل ؛ بل لم يكن أحد يجرؤ على أن يلمسها ، ولا أن
 يستبيح لنفسه معها أقل ما تستبيحه هي لنفسها معه . وهكذا وضعت

الجميع في أضيق حدود التواضع ، تلك الحدود التي لاح أنها هي التي كانت دائماً تخرج عنها .

وعلى العموم ، قد كان يخيّل إلى المرء أنها جعلت لنفسها كقاعدة أن تتعرض هي الأخرى للوم والمديح ، والرضا عنها والغضب . لأنها إذا كانت تشاقُّ الناس بذكرها لمعاليهم ، دون أن تُعَيِّن من هذا أحداً . فإنها لم تكن تزور أحداً في الجيرة ، ولم تكن تلقى في أى مكان حفاوة بها وبمحاشيتها في القصور ومنازل الريف ، إلا وتكشف عند عودتها من مقدار استعدادها — بأقوالها الخالية من كل اتران — لرؤية جميع الصلات بين الناس من جانبها المُضْحِك . فهو لاء ثلاثة أخوة جاوزوا سن الزواج لا شيء إلا لأن كلاً منهم رفض — من باب الأدب ليس إلا — أن يتزوج قبل أخيه ؛ وتلك فتاة صغيرة قد اقترنت بزواج عجوز يَفْسَن ؛ وفي مكان آخر حدث العكس : فقد اقترن شاب مَرِح بهير كَوَلة ثقيلة ؛ وفي بيت ما لا يخطو المرء خطوة حتى يعثر بطفل ؛ وفي آخر لا نكاد نجد دياراً ، على الرغم من وجود عدد وافر من الناس ، لأن الأطفال يُموزونه ؛ وهؤلاء الأزواج ليس لهم إلا أن يُدَفَنوا بسرعة ، كما يُرى إنسان في البيت يضحك ، إذ ليس لهم ورثة مباثرون ؛ وهذان الزوجان الآخران يحسن بهما السفر والتجوال ، لأن البيت لا يسير جيداً . ولم يقتصر حديثها على الأشخاص ، بل امتد أيضاً إلى الأشياء والأبنية والأثاث والأواني ؛ وكانت البُسْط والسجاجيد خصوصاً هي التي تثير تأملاتها الساخرة ، ابتداءً من أنعم السجاد القديم حتى أحدث الورق ، ومن أجل صور الأسرة حتى أُنْفَه النقوش الجديدة ، كل هذا كانت تمرّقه ، بل تحطمه بسخريتها القاتلة ، إلى حد أن

المرء ليدھش متسائلا : هل بقى بعد من سخریتھا شیء فى كل المنطقة المحیطة على بعد خمسة أمیال ؟ !

ومن العدل أن یقال إنه ربما لم یكن فى هذا المیل إلى التحقیر أدنى خسة وشر ، فإن الحاجة إلى الضحك یمكن كثيراً أن تستثیره ؛ إلا أن لوسیانه قد كشفت فى علاقاتھا مع أوتیللى عن شراسة حقا . فنشاط هذه الفتاة الهادى المتصل الذى كان موضعاً للشناء والتنويه من الجميع لم یثر فى نفس بنت خالتها إلا الاحتقار ؛ ولما تحدث القوم عن العناية التى توجھھا أوتیللى إلى البساتین والمثابىر بدأت لوسیانه بالسخرية منها وتظاهرت بالدهشة من عدم رؤیتھا أزهاراً ولا ثماراً (ناسية أن الوقت كان منتصف الشتاء) ؛ ثم أمرت بإحضار مقدار وافر من الخضرة والأعصان التى تنمو فیھا أصغر البراعم ، وأسرفت فى استهلاكھا لتزین الأبهاء والمائدة كل يوم ، إلى درجة أن البستانی وأوتیللى قد حزنا أبلغ الحزن لرؤية آمالھا فى السنة الماضية وربما لوقت طویل قد تبددت .

وقلیلا ما تركت لوسیانه أوتیللى تنفرغ للأعمال المنزلیة التى كانت تلذھا إلى حد بعيد ، بل كانت مضطرة إلى حضور أدوار اللذات ، وسباق المركبات الزاحفة ، وشهود الرقص الذى كان یقام فى الجيرة : فھى تستطيع أن تتحمل الثلج والبرد والایالى العاصفة ، مادام الكثيرون من الناس لم یموتوا منها . غیر أن الفتاة الرقیقة (أوتیللى) أصابھا من جراء هذا آلام قاسية ، دون أن تكسب لوسیانه من وراء هذا شیئا : فالواقع أنه على الرغم من أن أوتیللى كانت تلبس ثیاباً بالغة البساطة ، فإنھا كانت أجمل الجميع ، على الأقل فى نظر الرجال . فجاذبیته العذبة قد جمعت الكل من حولھا ، سواء أوجدت فى هذه الأبھام الفسیحة فى المكان الأول أم الآخر منها .

بل إن الحطّيب نفسه كان كثيراً ما يتحدث إليها كلما سأها النصيحة والمعونة في مسألة تشغله .

وهو قد عقد مع المهندس معرفة وتُقى فقد فُحص مجموعته من الأشياء النادرة، وتحدث إليه طويلاً في تاريخ الفن ؛ وفي مناسبات أخرى ، وعلى الأخص عند زيارة الكابّلة ، عرف كيف يقدر مواهبه . والبازون كان شاباً وكان غنياً ، وكان يهوى جمع التحف ويريد البناء ، وكان ذوقه مُرَهَفاً ومعارفه قليلة النور ؛ فخيّل إليه أنه وجد في المهندس الرجل الذي يستطيع معه أن يحقق أكثر من غرض . وهو قد تحدث من قبل مع خطّيباه عن هذا المشروع ، فأيدته بجرارة ، وأعجبت أيما إعجاب بهذا الاقتراح ، ولكن لعل هذا كان بالأحرى بدافع رغبته في أن تسلب أوتيل هذا الشاب الذي خيّل إليها أنها لاحظت لديه ميلاً إلى ابنة خالتها ، أولى من أن يكون من أجل الانتفاع بمواهب هذا الفنان في تحقيق مقاصدها . والواقع أنه على الرغم من أنه ظهر مليئاً بالنشاط في الأعياد التي اقترحتها لوسيانه ، وأنه أبدى كثيراً من الجهود والذكاء في تلك أو تلك من الاستعدادات ، كانت تعتقد هي في داخل نفسها أنها تعرف الأشياء خيراً منه ؛ ولما كانت اختراعاتها عادية ، فإن مهارة خادم غرفة ذكي كانت كافية لتنفيذها بمقدار ما تكفي مهارة أكبر فنان . فخيالها لم يكن يستطيع أن يذهب إلى أبعد من مذبح تقوم عليه القرايين ، ومن تتويج يتم إما على رأس من الجبس أو رأس حية ، حينما تريد أن تتوجه بتحيةة عيد إلى أحد الناس ، إما بمناسبة عيد زواجه أو عيد ميلاده .

واستطاعت أوتيل أن تدلى إلى الحطّيب بأدق المعلومات عن الصلات القائمة بين المهندس ومضيفيه . وهي كانت تعلم أن شرلوت قد عنيت من قبل أن تهبط له مركزاً : لأنه لو لم تأت هذه الجماعة ، لكان الشاب قد

ارتحل في الحال بعد إتمام السكابة ، لأن كل الأبنية كان مقدراً لها أن تتوقف إبان الشتاء . فكان من المرموق إليه إذاً أن يستخدَم هذا الفنان الصَّناع ويشجع بواسطة حامٍ جديد

ولقد كانت العلاقات بين أوتيلي وبين المهندس على أتم ما يكون من البراءة . فجلس هذا الشاب المُسجَّد اللطيف قد شاق أوتيلي وسرّها ، كما لو كانت في صحبة أخٍ أكبر . وعواطفها نحوه لم تذهب إلى أبعد من العطف الهادئ الساكن القليل الغرور الذي توحى به القرابة . فقلبها لم يكن فيه مكان لأحد بعدد ، لأنه كان عامراً كله بحب إدورد ، والله وحده ، العالم بكل شيء النافذ في كل مكان ، هو الذي كان يمكن أن يشاركه فيه .

ومع هذا فإنه كلما تقدم الشتاء وازدادت العواصف وتعطلت الطرقات ، تبدى من الفتنة قضاءُ هذا الفصل المدهم في مثل هذه الصُّحبة البديعة . ثم إنه حدث بعد فترات قصيرة أن الزيارات قد غمرت القصر من حين إلى حين . فجاء الضباط أفواجاً من الحاميات البعيدة ؛ ومن كان منهم مهذب الطباع كان يلقي خيراً استقبالاً ؛ أما الآخرون فكانوا عبثاً على الجماعة . ولم يخل الزائرين أيضاً من أشخاص مدنيين . وأخيراً رؤى الكونت والبارونة ذات يوم قادمين عليهم على حين غيرة .

ولاح أن حضورها قد أوجد نوعاً من البلاط الحقيقي . فالناس الممتازون بمكانتهم وأدبهم أحاطوا بالكونت ؛ والسيدات قد عاملن البارونة بما يليق بمقامها . ولم يطل الوقت على الدهشة من رؤيتهم معاً وسعيدين : فقد عرف القوم أن زوج الكونت قد توفيت ، وأنه سيمقد أواصر جديدة ، طالما تسمح التقاليد والعرف بذلك . وتذكرت أوتيلي زيارتهما الأولى وكل كلمة قيلت عن الزواج والطلاق ، والارتباط والانفصال ، والرجاء والانتظار

والزهد والحرمان . وهما هذان الشخصان اللذان لم يكن باب الرجاء أمامهما مفتوحاً قد صار الآن أمامها يلسان السعادة المأمولة ، فلم تمالك أن زفرت من قلبها زفرة حارة .

ولم تكد لوسيانة تعلم أن الكونت يمشق الموسيقى حتى نظمت حفلة موسيقية واقترحت أن تغنى فيها بمصاحبة قيثاره ، فأجيبته إلى طلبها . وهى كانت تعزف عليها بطريقة لا بأس بها ، وكان صوتها مقبولا : أما عن الكلمات فإنها لم تكن تُفهم إلا بدرجة قليلة ، هى تلك المعتادة حينما تغنى الألمانية جميلةً بمسيرة قيثاره . ومع هذا فقد كان الجميع يؤكدون أنها غنّت بكثير من التعبير والتأثير . وكان فى وسعها أن تكون راضية عن التصفيقات الصاخبة التى ظفرت بها ؛ لكنها أساءت التقدير هذه المرة إلى درجة غريبة . فقد كان فى الجماعة شاعر أمّلت أن تأسره هو خصوصاً ، لأنها كانت تود منه أن يوجه إليها بعض قصائد من شعره . ورغبةً فى تحقيق هذا الأمل لم تغنّ طوال تلك الليلة تقريبا إلا من أغانيه . وكان كغيره من الحاضرين مهذباً رقيقاً معها ، لكنها أمّلت فى أكثر من هذا ، ونهته مراراً إلى غايتها هذه ، دون أن تستطيع الظفر منه بأكثر مما فعل . وأخيراً وقد غلبها القلق وجهت إليه واحداً من مُحَبِّبِها كما يعرف رأيه ، وعما إذا لم يكن قد أخذ بسماع أغانيه الجيدة تُغنى على هذا النحو الممتاز . « أغانى ؟ هكذا قال مدهوشاً . اسمح لى ، سيدى ، أن أقول إننى لم أسمع إلا حروفاً صائتة ، بل وهذه أيضاً لم أسمعها كلها . لكن لا ضير . فن واجبى أن أشهد بشكرانى على مثل هذه النية الطيبة » . فالتزم صاحبها الصمت ، واحتفظ بما سمع لنفسه ؛ وحاول الشاعر أن يخرج من المأزق ببعض من التحيات الجوفاء . غير أن لوسيانة أوضحت له رغبتها فى أن تظفر

منه أيضا ببعض الأشعار المنظومة من أجلها . ولولا ما سيكون في الأمر من إخلال بالشرف ، لكانت قد قَدِّمَتْ إليه حروف الهجاء ليؤلف منها كما يهوى أنشودة مديح فيها على أية نعمة كانت . لكن لم يقدر لها أن تخرج من هذه المغامرة دون أن تعاني بعض المهانة : فقد عرفت بعد قليل أن الشاعر قد نظم على لحن محبوب من أوتيلي أشعاراً عذبة جاوزت حد الجمالة . وحاولت لوسيانة الإلقاء ، شأنها شأن لداتها من الأشخاص الذين يخلطون دائماً بين ما هو نافع لهم وما هو ضار . والحق أن ذاكرتها كانت قوية ، لكن إلقاءها كان خالياً من الفهم ، وفيه اندفاع من غير حماسة ولا وجدان . فألقت أغاني وأقاصيص وقطعاً أخرى صالحة للإلقاء . وهي من ناحية أخرى كانت قد اتخذت هذه العادة البائسة ، عادة مصاحبة الإلقاء بحركات وإشارات ، وعن هذا الطريق كان النوع المُلحَمي والغنائي مخلوطاً بينه وبين النوع المسرحي بطريقة فاسدة بدلاً من أن يوصل ما بينه وبينهما .

واستطاع السكونت بعد قليل بما له من ذكاء نافذ أن يتبين حال الجماعة : ميولها وعواطفها وأذواقها ؛ وفكر في أن يشير على لوسيانة بنوع جديد من التمثيل يصلح لها فيما يبدو ، وهي فكرة لسنا ندرى أخطأ فيها أم أصاب .

قال : « أرى هنا أشخاصاً عديدين حَسَنِي التكوين ، ومنهم كثيرون يعرفون من غير شك كيف يقلدون الحركات والمواقف المؤثرة المصورة . ألم تحاول يوماً أن تمثلى اللوحات المشهورة ؟ إن هذه المحاكاة تقتضى فعلاً بعضاً من الإعدادات الشاقّة ، لكن لها سحراً لا يوصف » . وسرعان ما فطنت لوسيانة إلى أنها في هذا النوع ستجد نفسها في

مكانها الطبيعي . فإن لها في قوامها الفارع وقسماتها الجميلة ومحياها المنتظم المعبر معاً وغداؤها السمرء ، وجيدها الأنيق — إن لها من هذا كله ما يجعلها قد خلقت لتكون نموذجاً ولو عرفت إلى جانب هذا أنها أجمل في السكون منها في الحركة ، لأنها في هذه الحالة الأخيرة كانت تصدر عنها حركات يعوزها الضبط والرشاقة ، لكأن قد انصرفت بكل نفسها إلى هذا النوع من النحت الطبيعي .

فتفقد القوم رسوم لوحات مشهورة . فاختاروا أولاً لوحة بليساريوس لفان ديك . فكان لابد من رجل فارع كامل التكوين متقدم في السن لتمثيل ذلك القائد الأعلى وهو جالس ؛ وكان على المهندس أن يمثل المحارب الواقف أمامه مع تعبير يدل على الحزن والعطف ، والواقع أن المهندس كان يشبهه بعض الشيء . ولوسيانه من ناحيتها قد اختارت — في شيء من التواضع — المرأة الشابة المائلة في أعماق اللوحة وهي تعدُّ في راحتها المنبسطة الصدقة الوفيرة التي تخرجها من صندوق نقودها ، بينما تلوح امرأة عجوز كأنها تصرفها عن فعلتها هذه بحجة أنها ضافية المعروف جزيلة العطاء . ولم ينسوا أيضاً تمثيل امرأة أخرى تتصدق على هذا الشيخ العجوز (بليساريوس) .

واستفرغ القومُ وسعهم بكل جدرٍ في هذه اللوحة وغيرها أيضاً . وأسدَى الكونت بعض النصائح الخاصة بالترتيبات اللازمة إلى المهندس الذي سرعان ما أقام مسرحاً لهذا الغرض وبذل العناية اللازمة للاضائة . وكان العمل قائماً على قدم وساق حينما تبين لهم أن مثل هذا العمل يقتضى نفقات باهظة وأنه يعوزهم من أجله الكثير من الأشياء الضرورية التي لا توجد في الريف في الشتاء . غير أن لوسيانه عملت على تذليل كل صعوبة

بأن قطعت كل ما في خزانة ملابسها تقريباً قطعاً قطعاً ، من أجل إيجاد الملابس المختلفة التي رسمها الفنانون على ما يتفق وأهواءهم .
وأخيراً عُرض المنظر ذات مساء أمام جمع حافل أرضاه . وشحذ من الانتظار تقديم موسيقى حاد . وافتتح بليسا ريوس المنظر . وكانت المواقف من الدقة ، والألوان من حسن التوزيع ، والإضاءة من براعة التوجيه إلى حد جعل الحاضرين يخيّل إليهم أنهم أُسرى بهم إلى عالم آخر . اللهم إلا أن حضور الواقع بدلا من الظاهر قد أحدث أثراً أليماً لا يدري المرءُ كنهه .

وأسدلت الستارة ؛ لكنّها رفِعت أكثر من مرة وفقاً لطلب الحاضرين . وتحلل التمثيل فاصل موسيقى سرّ الجماعة التي أريد مفاجئتها بلوحة من طراز أعلى هي لوحة بوسان المشهورة : إِسْتَر أمام أحشوريش . وفي هذه المرة كان دور لوسيانة بارزا . فكشفت عن كل فتنها في شخص المُغنى عليها ؛ وأحسنّت في اختيار النسوة اللاتي سيُحطّن بها ويُمكن ، فاخترتهن فتيات رائعات الجمال فائنات التكوين ، لكن لم تكن منهن واحدة يمكن أن تقارن على أي وجه بها . واستبعدت أوتيلي من هذه اللوحة كما استبعدت من غيرها . ولتمثيل الملك ، وهو يشبه چوپتر ، وضعت لوسيانة على العرش الذهبي أقوى الحاضرين وأجلهم إلى حد أن هذه اللوحة قد بلغت من السّكّال مرتبة لا تُداني

واختيرت لوحة التأنيب الأبوي لبرُج كلوحة نائثة : ومن منا لا يعرف الرسم الممتاز الذي عمله رسامنا فيله لهذه اللوحة ؟ والد ، فارس نبيل جالس ساقاً على ساق ، وبلوح أنه يوجه كلمات قاسية إلى ابنته الواقفة أمامه ؛ وهي فتاة ذات قوام بديع ، قد تدثرت بفستان الأبيض الواسع

الثنايا ، ولا تُرى إلا من الخلف ، ومع هذا فإن وُضْعَهَا تؤذن بأنها تغالب نفسها . لكن التأنيب ليس حاداً ولا مُهيناً : كما يبدو من وجه الوالد وحركاته . أما الأم فيلوح أنها تخفى شيئاً من الحيرة والاضطراب ، لأنها تتأمل في زجاجة خمر كانت بسبيل تجرعها .

وفي هذه الفرصة كان لابد للوسيانة أن تظهر في كل بهائها : ففدأرها المصفوفة ، وشكل رأسها وجيدها وأكتافها كانت كلها ذات جمال لا يبلغ مداه التعبير ، وقوامها الذي كانت ثيابها المصرية ذات الاتجاه القديم تخفى منه الكثير ، هذا القوام الرشيق الفارع الخفيف كان يرسم في الثياب ذات الطراز العتيق على خير نحو ؛ وعنى المهندس من ناحيته بترتيب ثنايا السَّتان الأبيض الواسعة بأناقة طبيعية ، إلى حد أن هذه المحاكاة الحية كانت من غير شك أسمى من الأصل مما أحدث سحراً في الجميع على السواء . حتى إن القوم لم يفتروا عن طلب إعادة اللوحة ؛ وبلفت الرغبة — وهي رغبة كلها طبيعية — في رؤية مثل هذه الشخصية الجميلة حداً جعل أحد المُدكِّهين يصيح في قلقه : « أدري ، إن سمحت ! » وهي عبارة كثيراً ما تكتب في أسفل الصفحة . ولقيت هذه الصيحة موافقة من الجميع . لكن الممثلين كانوا من العلم بمظمة ما فعلوه ، ومن صدق النفوذ إلى معنى هذه اللوحة إلى حد الرضوخ لهذه الصيحة العامة . وبقيت الفتاة — في موقف اضطراب — ساكنة ، دون أن تُرى النَّظَّارة تعبیر وجهها ؛ وظل الوالد جالساً ، في موقف من يقوم بالتأنيب ، ولم ترفع الأم بصرها ولا أنفها إلى ما فوق الزجاجة الشفافة التي تظاهرت بالشرب منها دون أن ينقص ما فيها من خمر .

وكم يطول بنا الكلام كثيراً لو تحدثنا أيضاً عن التمثيليات الصغيرة التي اختيرت لها مناظر نُزِّلَ وأسواق هولندية !

وارتحل الكونت والبارونة ، واعيدَين بالعودة في الأسابيع الأولى من زواجهما القريب . وأمكّت شرلوت ، بعد شهرين من التعب ، في أن تتخلص من بقية الجماعة . وقد كانت على ثقة بأن ابنتها ستكون سعيدة ، حينما تهدأ النشوة التي أثارها في نفسها كوثُها خطيبي وفتاة ، لأن الزوج يعتقد في نفسه أنه أسعد الناس بهذا الزواج . فإلى جانب اليسار الوفير والطبع المعتدل ، بدا أنه يُزهِى كثيراً بامتلاكه زوجاً لا بد أن تنال رضا الجميع . ولقد كان من خواص طبعه أنه كان يعزو كل شيء إليها ، وإلى نفسه عن طريقها هي وحدها ، حتى إنه كان يألم إذا قَدِمَ قادم ولم يوجه كل انتباهه إليها أولاً ، أو إذا جذبته مناقب البارون — كما يحدث غالباً مع الرجال المتقدمين في السن — فسمى لتوطيد الصلة بينه وبين البارون دون أن يحفل كثيراً بخطيباه . وتم الاتفاق مع المهندس على أن يلحق بالبارون في السنة الجديدة ويقضى معه الكرنفال في المدينة ، حيث لوسيانه تأمل في المتعة الكبرى باللوحات المتقنة الترتيب ، وبكثير من الأشياء الأخرى ؛ خصوصاً أن عمتها وخطيبها لاح أنهما لا يحفلان بأية نفقات تقتضيها لذائذها .

وكان لا بد إذاً من الافتراق ، غير أن هذا لا يتيسر إتمامه بالطريقة العادية . وتعال صرخات السخرية الموجهة ضد شرلوت ، لأن الزاد الذي ادخرته للشتاء كان — فيما قيل — قد أوشك على النفاد . هنالك صاح السيد الذي مثّل بليساريوس وكان واسع الثراء ، صاح في شيء من الرعونة وقد جذبته مفاتيح لوسيانه فكان يحتفل لها منذ وقت طويل — : « هيه ، لنعمل على الطريقة البولندية ! نعالوا فكلوُنِي بدوري ، وهكذا إلى تمام الحلقة ! »

— ليكن كما تقول ! » بهذا أجابته لوسيانه .

وفي الغد حُزِمَت الأمتعة وانقض الرُّكْب على ضيعة أخرى ، وجدوا فيها المكان فسيحاً ، لكن اللذائذ والنظام لم يكونا على ما يرام ، مما أحدث بعض المضايقات التي سَرَّت لوسيانه في البدء كثيراً . وصارت الحياة من يوم إلى يوم أكثر جنوناً وأعلى صَخْباً . ونظمت رحلات قَنَص تجميى في الثلج العميق وكل ما يمكن تخيله من صعب عزيز المنال . ولم يجروء السيدات على التهرب منها شأنهن شأن الرجال . وعلى هذا النحو ظلوا بين قَنَص وركوب على الجياد وجرى بالمرزقات وصَخْب ورحلات ، وتنقل من قصر إلى قصر حتى بلغوا مقرَّ الإمارة . هنالك أعطت أنباءُ مسرات القصر والمدينة للنفوس اتجاهاً مختلفاً ، وجَرَّت لوسيانه - برغمها - هي ومن معها إلى دَوَّامة جديدة ، سبقتها إليها عممتها .

من يوميات أوتيلي

الناس يُؤْخَذون في الدنيا بما يظهرون عليه ، لكن لا بد من الظهور على نحوٍ ما . فاحتمال الثَّقَلَاء أيسر من احتمال التافهين .
يمكن فرض كل شيء على المجتمع اللهم إلا ما له عواقب .

لا نحسن العلم بالناس إن أتوا هم إلينا ؛ بل لا بد أن نذهب نحن إليهم كيما نعلم حقيقتهم .

أرى طبيعياً أن نجد كثيراً مما يلام عليه لدى هؤلاء الذين يأتون لزيارتنا ، وأن نحكم عليهم بقليل من الرحمة حالوا يرحلون : لأن لنا الحق ، على نحو ما ، في أن نقيسهم بمقياسنا . بل إن العادلين الحكماء من الناس يشق عليهم هم أنفسهم أن يمتنعوا ، في مثل هذه الحالة ، عن التقدير الصارم والنقد القاسى .

أما إذا كان الأمر على العكس فكنا نحن الزائرين لهم ، ورأيانهم في محيطهم وعاداتهم ومركزهم الضروري الذي لا مفر لهم منه ، وشاهدنا كيف يعملون في هذا الوسط أو يتكيفون وإياه ، فإنه يكون من الجنون والخُرق وسوء النية أن نجد مضحكا ما يجب أن يبدو محترماً من أكثر من وجه .

ما نطلق عليه اسم السلوك وحسن المعاملة يجب أن يجعلنا نظفر بما لا نستطيع الظفر به إلا بالقوة ، أو حتى لا نقوى على الحصول عليه بها .
بجالة النساء مصدر حسن المعاملة وسراوة الأخلاق .

كيف يمكن قيام الخلق والعبقريّة الخاصة بالإنسان إلى جانب إجادة فن السلوك مع الناس في الحياة ؟!

يجب أن يكون الخلق قد سما أولاً بفضل فن السلوك . كل الناس يحبون ما يميز بشرط ألا يكون ذلك مُضْجِراً ثقيلاً .

لا أحد عنده من الميزان في الحياة عامة ، وفي العلاقات الاجتماعية أكثر مما للرجل العسكري المصقول .

أما العسكريون الأجلاف فيظلون على الأقل في نطاق طبعهم ، وكما أنه توجد نزعة إلى الخير دائماً تقريباً وراء القوة ، فيمكن المرء التفاهم معهم أيضاً ، حيناً تقتضى الحال .

لا أحد أ كُف ظلاً من ثقل مدني (غير عسكري) ، فالفروض الرقة فيه ، لأنه لا يعمل في عمل خشن غليظ .

حين نعيش في وسط أشخاص مرهفي الإحساس بآداب اللياقة ، نتألم لهم إذا حدث ما يخالفها . وهذا هو ما أشعر به نحو شرلوت ومن أجلها ، حينما يهتز إنسان فوق كرسيه أمامها ، لأنها تتألم من هذا ألمًا يبلغ حد الموت .

لو عرف الإنسان أن النساء يفقدن في الحال الرغبة في النظر إليه والتحدث معه إذا دخل على مجلس أنس وعلى أنفه عوينات ، لما فعل هذا .
المؤانسة التي تقوم مقام الاحترام هي دائماً مدعاة للضحك والسخرية .
وما من إنسان سيمعيد لبس قبعته حالما ينتهي من تحية الجماعة ، لو أنه عرف كيف أن هذا يبدو مضحكا .

ليس ثمت شاهد خارجي على الأدب لا يتضمن معنى أخلاقياً عميقاً .
والتربية الحقة تنحصر في إظهار الشاهد والمعنى معاً .
المعاملات مراآة يطبع فيها كُلُّ صورته .

للقلب آداب على صلة وثقى بالعطف . ومن هذا ينبوع تفيض أيسر
آداب المعاملات .

الخضوع الإرادى أجمل حال ، وكيف يتيسر دون عطف ؟

لا نكون أكثر بُعداً عن الغاية من رغباتنا إلا في اللحظة التي يحيل إلينا فيها أننا امتلكنها الهدف المرغوب .

لا إنسان أسوأ عبودية من ذلك الذي يمتقصد في نفسه أنه حر دون أن يكونه .

يكفى المرء أن يصرح بأنه حر كما يشعر في الحال بأنه خاضع : أما إذا تجاسر المرء على التصريح بأنه خاضع فإنه لا يشعر بأنه حر .

خير وسيلة للنجاة ضد المناقب الكبرى لشخص آخر هي العطف والحنان .

ما أتمس حال رجل ممتاز يتظاهر له الحق والجهال !

يقال إن المرء لا يكون بطلا في نظر خادم غرفته . والعملة الوحيدة في هذا هي أن البطل لا يمكن أن يقدَّرهُ إلا البطل . لكن من المحتمل أن يعرف خادم الغرفة كيف يقدَّر مَنْ على شاكلته .

أكبر عزاء للوضاعة والتفاهة أن العبقرى ليس خالداً .

عظاء الناس ينتسبون إلى عصرهم في ناحية من نواحي الضعف .

الناس يُصوِّرون عادةً أخطر مما هم بالفعل .

الحق والعقلاء كلاهما غير ضار : فالخطر أكبر مع أنصاف الحق وأنصاف العقلاء .

الفنون أسلم طريق للأنزواء عن الناس والدنيا ، وهي في نفس الآن أسلم طريق للاتحاد وإياهم .

نحن في حاجة إلى الفنان حتى في أوج السعادة وفي هاوية الشقاء على السواء .

الفن يعنى بما هو صعب وجيد .

من رؤية الصعب يُنفَّذ يُسر ، تأتي فكرة المستحيل .

تزداد الصعوبات كلما اقتربنا من الهدف — البَذْر أَقْلُ مشقة من الحصاد .

الفصل السادس

كانت الزيارة التي تلقتها شرلوت مصدراً لكثير من المضايقات ، لكنها تعوّضت منها بما تيسر لها من الحكم على ابتها بكل دقة ، من حيث مقدار العون الذي ظفرت به من معرفة الدنيا والحياة العالية . ولم تكن هذه أول مرة تلتقي فيها بمثل هذا الخلق الفريد ، لكنها لم تره واضحاً كما كان في هذه المرة . بيد أن التجربة علمتها أن الحياة ومختلف الأحداث والروابط الأسرية يمكن أن تُنسى عند هؤلاء الأشخاص نضوجاً فائتاً محبوباً : فتقل الأثرة ، ويتخذ النشاطُ الصاحبُ اتجاهها إيجابياً . وكانت شرلوت على استعدادٍ لأن ترى بعين الرضا ما عسى من الأشياء يحدث أراً بغيضاً في الآخرين ، شأنها شأن الأهل الذين يليق بهم دائماً أن يأملوا ، بينما القُرباء لا يريدون إلا التمتع ، أو على الأقل لا يبنغون أن يُثقل عليهم أحدٌ من الناس .

بيد أن شرلوت بعد رحيل ابتها كان لديها ما يسبب ألمها على نحو خاص غير مُتوقع ، نظراً إلى أنها خلّفت من ورائها آثاراً بغيضة ، لا يعود أكثرها إلى ما كان في سلوكها مما يستحق الملام بقدر ما يعود إلى أشياء كان يمكن أن تُرى 'جديرة بالثناء' . لقد بدا أن لوسيانة قد اتخذت لنفسها كقانون أن تكون مريحة مع المرحين ، حزينه مع الحزانى ؛ ولكي تطلق العنان لروح المناقضة كانت أحياناً تُحزن المرحين وتُفرح الحزانى .

فكانت في كل أسرة تزورها تحيط خُبراً بالمرضى والعجزة الذين لا يستطيعون الظهور في المجتمعات ، فتزورهم في مخادعهم ، وتطبّ لهم ، وترغمهم على تناول أدوية قوية مأخوذة من صيدلية السّفَر التي تصاحبها أينما ارتحلت . وكان العلاج - كما هو متوقع - حيناً صائب النتيجة وأخرى فاسدها ، حسبما تقضى الصدفة ويشاء الاتفاق .

وكانت تمارس هذا اللون من الإحسان في شئ من التسوة الحقيقية ، ولم يفلح شئ في جعلها تقلع عنه ، لأنها كانت مقتنعة تمام الاقتناع بأنها تسلك السبيل القويم . لكنها كانت سيئة الحظ في محاولتها علاج مرض ممنوى ، وكان هذا مصدراً لكثير من الهموم عند شرلوت ، لأن المسألة قد صارت ذات ذبول ومُضغّة في كل الأفواه . أما هي فلم تعرف عنها شيئاً إلا بعد ارتحال لوسيانه . وكان على أوتيلي التي صحبت لوسيانه في هذه النزهة أن تطلع شرلوت على تفاصيل هذا الحادث .

ذلك أن فتاة من أسرة محترمة شاء لها سوء طالعها أن تكون السبب في موت أختها الصغرى ، فأثر في نفسها هذا الحادث إلى حد لم تستطع معه أن تُشفى ولا أن تجد عنه العزاء . فكانت تحيا وحيدة في مخدعها ، في سُفل وهدوء ، غير قادرة على احتمال رؤية أهلها ، إلا إذا جاءوا فرادى : لأنها إن رأت جمعاً منهم سرعان ما تظن أنهم يفكرون فيما بينهم في أمرها وحالها . أما إذا كان القادم شخصاً واحداً ، فإنها تملك نفسها وتستطيع التحدث معه طوال عدة ساعات .

عرفت لوسيانه هذه المسألة ، فأملت في نفسها أن تأتي بمعجزة في هذا المنزل حيناً نفدو إليه ، كما تردّ الفتاة إلى المجتمع . وسلكت في هذه المناسبة مسلكاً أكثر حيطة وحذراً من المعتاد ؛ فعرفت كيف تدخل وحدها على

المریضة ، وفيما يبدو استطاعت أن تظهر بثقتها بواسطة الموسيقى . لكنها في النهاية أخطأت وُخِدرَعَتْ عن نفسها : فقد شاءت ذات مساء أن تثير انفعالا في الخواطر ، فحَرَّت الفتاة الجميلة الشاحبة وأدخلتها فجأة على جماعة راقية حافلة ، بعد أن ظنت أنها هیأت الفتاة تهیئة كافية . وكان من الممكن أن تُفلح هذه الحيلة لو لم يسلك الحاضرون ، بدافع الاستطلاع والقلق — مسلکاً ينطوی على الخُرْق والحماقة ، بأن تجمعوا حول المریضة ثم تجنبوها بعدُ ، وأثاروا فيها الهیاج والاضطراب ، وهم يتهايمسون ويسرون الكلام إلى الآذان . فلم تستطع أعصابها الرقيقة أن تحتمل هذا المنظر ، ففرت مذعورة وهي تصرخ صرخات مریة ، كأنما الجزع تولاه أمام وحش رهیب یُلقي بالوعید والتهديد . وسرى الخوف إلى الجماعة فقتشت . وكانت أوتیلی من بین الأشخاص الذين عادوا بالفتاة إلى مخدعها وقد أصابها كامل الإغماء .

غير أن لوسيان ، على عادتها ، وجهت لوماً عنيفاً إلى الجماعة ، دون أن تفكر مطلقاً في أنها هي وحدها السبب في كل هذا الشر الذي حدث ، ودون أن يحملها هذا الإخفاق وغيره على الإقلاع عن تجاربها .

ومن ذلك الحین وحال الفتاة تزداد سوءاً ؛ فقد تقدم الداء بخطوات واسعة جعلت أهلها لا يستطيعون الإبقاء على الفتاة المسكينة لديهم ، فاضطروا إلى إيداعها المستشفى . ولم يبق أمام شرلوت إلا أن تسمى لتخفيف الألم الذي سببته ابناتها لدى هذه الأسرة ، فسلكت نحوها مسلکاً ينطوی على كل عطف وحنان . وهذا الحادث قد ترك في نفس أوتیلی أثراً عميقاً . وزاد من تأثرها لحال تلك الفتاة المسكينة أنها كانت مقتنعة — كما قالت هذا بصراحة لشرلوت نفسها — بأن المریضة كانت ستظفر بالشفاء لو

كان العلاج قد جاء ملائماً .

ولما كان الإنسان حينما يعود بالذاكرة إلى الماضي يحلوه أن يكثر من الحديث عن الأشياء الأليمة أكثر منه عن الأشياء السارة ، فقد انتهى حبل الكلام إلى مشاجرة خفيفة جرت بين أوتيلي والمهندس ، في نفس المساء الذي رفض فيه أن يُبيّن مجموعته على الرغم من الرجاء الودى الذى وجهته هى إليه ، وهذا الرفض قد حملته في قلبها باستمرار ، لسبب ليست تدريه . لكنه كان شعوراً عادلاً : فما تطلبه فتاة مثلها يجب ألا يرفضه فتى كالمهندس . لكنه انتحل أعذاراً فيها بعض الوجهة ، رداً على اللوم الخفيف الذى وجهته إليه عابرةً .

قال لها : « لو عرفتِ بأية خشونة وجلافة يعامل كثير من الناس - حتى المهذبين منهم - روائع الفن ، لبسطتِ عذرى في عدم إظهار روائى أمام ذلك الحشد من الناس . فما منهم أحد يعرف كيف يمسك بالذالية من طرفها ؛ وإنهم ليمتحنسون بأصابعهم أجل النقوش وأنصع السطوح ؛ ويُردّدون بين السبابة والإبهام أرقّ القِطْع ، وكأنّ تقدير جمال الأشكال يتم على هذا النحو . وبدلاً من أن يقدر الواحد منهم أن الورقة الكبيرة يجب أن تُمسك بكِلتا اليدين ، يمسك بيده واحدة الصورة التى لانصاب لها قيمة ، والرسم الوحيد ، ومثله مثل السياسى المدعى الذى يمسك بالجريدة طاوياً أوراقها مبدياً مع هذا رأيه مقدماً في الأحداث الجارية . وما من أحد يقدر أنه لو فعل عشرون شخصاً - الواحد بعد الآخر - هذه الفعلة مع أثر فنى ، فإن الشخص الحادى والعشرين لن يجد شيئاً ذا قيمة ليراه بعداً »

- أو لم أبدي أنا نفسى إليك بمضاً من هذه المخاوف ؟ هكذا قالت له الفتاة . أو لم يحدث لى أن ألتفتُ - دون وعى منى - بعضاً من كنوزك ؟

— أبدأ ! بهذا أجاب المهندس ، أبدأ ! هذا مستحيل عليك : فإن
الشعور باللياقة مغرور في طبعك .

فأردفت قائلة : على كل حال لا ضير من إدخال فصل صريح عن الطريقة
التي يجب سلوكها في دهايز الآثار الفنية والمتاحف ، فصل يكتب في متون
آداب السلوك بعد الفصول التي فيها آداب المائدة .

فقال : « لا شك أن في مثل هذا ما يشجع الحراس والهواة على عرض
كنوزهم » .

كانت أوتيلي قد غفرت له منذ زمان طويل ؛ لكن نظراً إلى أنه بدا
متأثراً بهذا الملام ، ولم ين عن الاحتجاج بأنه يسره كثيراً أن يعرض
مجموعته وأن يجامل أصدقاءه ، فإن أوتيلي أدركت أنها جرحت رقة شعوره ،
وأحست على نحو ما بأنها مدينة له . لهذا لم تستطع أن ترفض بصراحة
فضلاً سألها إياه إثر هذا الحديث ، على الرغم من أنها وقد أفكرت في الحال
لم تعرف كيف يمكنها أن تلبى رغبته .

أما هذه الرغبات فإليك بيانها . لقد جرح أبلغ جرح حينما رأى
غيرة لوسيانه تباعد ابنة خالتها عن تمثيل اللوحات ؛ كما لاحظ من ناحية
أخرى — آسفًا -- أن شرلوت بسبب انحراف مزاجها لم تستطع حضور
هذه التسلية الرائعة إلا غراراً . فلم يشأ هو الاحتمال دون أن يقدم شاهد
عرفانه بالجميل بأن نظم — لشرف الواحد ولتسلية الأخرى — حفلة تمثيلية
أجل كثيراً من الحفلات السابقة . ولعل باعثاً خفياً أن يكون قد انضاف
أيضاً ، دون شعور منه : هو أنه كان يشقُّ على نفسه أن يغادر ذلك المنزل ؛
إنه لم يقو على تحمل فراق أوتيلي التي كانت نظرتها العذبة الساجية هي الشيء
الوحيد الذي أشاع الحياة في كيانه طوال تلك الأيام الأخيرة .

واقتربت حفلات عيد الميلاد ؛ وسرعان ما تبين أن هذه المحاكيات للوحات على هيئة نحت بارز إنما تعود في أصلها إلى ما يطلق عليه اسم « البريسيپه » ومناظر التقوى التي كانت تكرر ، في تلك الأزمان المقدسة ، للأم الإلهية (مرسيم) وابنها ، وهي تتلقى آيات الطاعة والخضوع من الرعاة أولاً والملوك من بعد .

وأدرك تماماً إمكان تمثيل مثل هذه اللوحة . فظفروا بطفل جميل نضير ؛ ولم يعوزهم الرعاة ، ولا الراعيات : لكن لم يكن من الممكن عمل شيء بدون أوتيل . فقد هيأها الفتى (المهندس) لتمثيل دور أم الإله (مرسيم) ، فإن رفضت فلا شك في فشل المشروع كله . حارت أوتيل في هذا الاقتراح ، فطلبت إليه أن يعرضه على خالتها . فأعطت شرلوت الإذن بكل ارتياح ، بل أنها هدأت من مخاوف ابنة أختها التي ترددت في تمثيل هذه الشخصية المقدسة . وواصل المهندس العمل بالليل وبالنهـار ليكون كل شيء مُعَدّاً عشية ليلة الميلاد .

أجل واصل العمل بالليل والنهار ، بكل ما لهذه الكلمة من معنى . وهو لم يكن في حاجة إلى كثير من الأشياء ، وكان حضور أوتيل كافياً ليكون له عزاء وسلاوى . إنه كان حينما يعمل من أجلها ، لا يشعر بحاجة إلى النوم ؛ وإذا اشتغل في سبيلها ، خيّل إليه كأنه يستطيع الاستغناء عن الغذاء . لهذا تم كل شيء وتهيأ لعشية العيد . كما استطاع أيضاً أن يؤلف موسيقى عذبة تعزف بألات النفخ التي ستعزف استهلالاً وتهيئ النفوس للجو المطلوب . فلما رفعت الستارة أحست شرلوت بمفاجأة حقيقية . فإن اللوحة التي عُرضت أمامها كانت قد أُظهِرت من قبل مراراً إلى درجة أن المرء لا يكاد ينتظر منها تأثيراً جديداً . لكن الحقيقة ، ها هنا ، كانت لها في

الصورة مزايًا خاصة . وكان المنظر كله في الظلام أولى منه في الأصيل ، ومع هذا فلم يَبْدُ أى جزء مختلطاً غير واضح . واستطاع الفنان أن يحقق الفكرة الرائعة ، فكرة جعل النور كله ينبعث من الطفل ، وذلك بواسطة جهاز إضاءة مبتكر ، تستر الأشكال الموضوعية في القسم الأمامي ، تلك التي لم تكن تتلقى غير حِزَم قليلة من الضوء . وأحاطت بالطفل فتيتان وفتيان يتدفق السرور من أعطافهم ، وتشرق الأضواء المنبعثة من أسفل على وجوههم الناضرة . وبجَلَّت الملائكة كذلك ، بيد أن بهاءهم قد غطى عليه فيما لاح بهاء الله ؛ إذ بدت أجسامهم الأنثوية النورانية مادية قائمة لو قورنت بجسم الله الإنسان .

وكان الطفل قد أغفى — لحسن الحظ — في أجل وضعة ، إلى حد أنه لم يكن ثمة شيء ليعكر صفو الانتباه ، حينما تتوقف النظرة عند الأم التي أراحته — بلطف لا يوصف — نقاباً كيما تكشف عن الكنز المستور . وفي هذه اللحظة لاح الوجه ثابتاً غير متحرك . والشعب الذي أحاط به قد بدا — بعيون مبهورة ونفوس مشدوهة — أنه قد قام بحركة منذ لحظة ، كيما يشيح بعيونه التي بهرها الضوء ، ثم أعادها — في استطلاع جذلان — إلى موضوع نظرها وهي تطير ، مُعَبِّراً بهذا عن دهشة ولذة أكثر منه عن إعجاب وإجلال : لكن هذه العواطف لم تُغفل أيضاً ، ووصل إلى بعض وجوه الشيوخ أن تقوم بالتعبير عنها .

أما قوام أوتيلي وحركاتها ووجهها ونظرتها فقد فاقت كل ما رسمته ريشة أى فنان . ولورأى الذواقة من أهل العواطف هذا المنظر لكان خليقاً بأن يخشى منها أن تقوم بأية حركة ، مما من شأنه أن يُسعد رضاه . لكن اسوء الحظ لم يكن ثمة شخص قادراً على إدراك أثر الكُمل . والمهندس

وحده هو خير من تذوق اللوحة ، وقد كان مائلاً على هيئة راع ذى قوام فارع ينظر جانباً من فوق هؤلاء الذين ركعوا ، دون أن يتخذ موضع النظر الحقيقى . لكن من كان يستطيع وصف تعبير مَلِكَة السماء الجديدة ؟ خشوع أوفى على الغاية ، وتواضع بلغ النهاية ، فى حِضْن مجد رفيع غير مُسْتَأْهَل وسعادة لا توصف ولا تقدر ، كل هذا كان يرسم فى قسَمَتها ، من حيث أنها كانت تعبر عن شعورها الخاص وعن فكرتها التى كونتها عن المنظر الذى كانت تَمَثِّلُه .

تَمَلَّتْ شرلوت بهذه اللوحة الرائعة ، وكان أجل ما أثر فيها منظر الطفل . ففاضت شئون الدمع من عيونها ، وأصابها قشعريرة حادة ، حين خطر ببالها أنها تستطيع أن تأمل فى أن تهدد عما قليل على ركبتَيْها كائنًا عزيزاً مثل هذا .

وأسدل الستار ، إما لإعطاء الممثلين شيئاً من الراحة ، أو لإجراء بعض التعديلات فى اللوحة . إذ خطر ببال الفنان أن يُحْمِلَ منظر الليل والخشوع إلى منظر نهار ومجد ، ومن أجل هذا أَعَدَّ فى كل ناحية قدراً وفيراً من الأضواء التى أُشْعِلَتْ فى فترة الاستراحة .

وكانت أوتيلى فى موقفها نصف المسرحى قد ظلت حتى ذلك الحين هادئة كل الهدوء ، لأنها كانت مقتنعة بأنه — فيما عدا شرلوت وبعض الأصدقاء — لم يرَ أحدٌ من قبل ذلك التمثيل الفنىِّ التقىَّ . لهذا انتابها شيء من الاضطراب ، حينما لحّت فى الاستراحة وصول أحد الغرباء الذى استقبلته شرلوت أجل استقبال . فمن عسى أن يكون هذا الغريب ؟ هذا ما لم يستطع أحد أن يدلّها عليه . فأسلمت أمرها كيلا تحدث أى خلل واضطراب . وأضيئت الشموع والمصابيح ، وأحاطت بها أضواء نهر العميون . ورفعت

الستارة . يا له من منظر أخذ بألباب الحاضرين ! كانت اللوحة عامرة بالنور ، وبدلاً من الظلال التي اختفت نهائياً ، لم تبق إلا الألوان ، وكان في حسن اختيارها ما لطف من بهر الأضواء . وأبصرت أوتيلي — قبل أن ترفع جفونها الطويلة — رجلاً جالساً إلى جوار شرلوت . لم تعرفه ، لكن خيل إليها أنها تميز فيه صوت معلم المدرسة الداخلية . فاستولى عليها تأثير بالغ . فكم من أحداث مضت منذ أن لم تسمع فيها صوت هذا المعلم المُخلص ! ومرت أمام خاطرها مواكب مسراتها وآلامها . وساءت نفسها : « أستجسرين على أن تقولى له كل شيء وتعتري به ؟ كم أنت غير خليقة حقاً بالظهور أمامه في هذه الصورة المقدسة ! وكم سيبدو غريباً أن يرى مُقنَّعة تلك التي كان يراها دائماً طبيعية ! » تصارعت العاطفة والتفكير في نفسها بسرعة ليس لها مثيل ؛ وضاق قلبها ، وامتلأت عيناها بالدموع ، بينما كانت تجاهد دائماً كيما تظهر ثابتة . وكم كان سرورها ، حينما بدأ الطفل يتحرك ! فاضطر الفنان إلى أن يشير بإسدال الستارة .

وإذا كانت العاطفة الأليمة والشعور القاسي بعدم إمكان الإصرار لاستقبال صديق موقر قد انضافت ، في اللحظات الأخيرة ، إلى أحساس أوتيلي الأخرى ، فقد صارت الآن في حالٍ من البلبال أكبر . أفيخلق بها أن تتقدم إليه في هذا اللبس والترين الغريبيين ؟ أم يجدر بها أن تبدل ثيابها ؟ وبدون تدبر ، سلكت المسلك الثاني ، وبذات وسعها لتستعيد هدوءها وطورها في تلك الأثناء ؛ لكنها لم تعد إلى نفسها تماماً إلا حين استعادت ملابسها العادية ، فاستطاعت أخيراً أن تُحيي القادم الجديد .

الفصل السابع

وأخيراً كان على المهندس أن يفارق سيدتيه . فحمل لهما أطيب الأمانى ، وسرّه ألا يفادرها إلا وهما فى صحبة ذلك المعلم البجّل . لكنه كان يفار على توجيه كل عطف إليه ، فأحسّ بشيء من الألم وهو يشاهد بديلاً له قد حل محله سريعاً واستطاع أن يشغل مكانه كاملاً ، كما تبين لتواضعه . لقد كان متردداً حتى ذلك الحين ، أما هذا الحادث ، حادث وصول المعلم ، فقد قطع عليه سبيل التردد فى الرحيل : فاعسى أن يألم له بهدوء وهو بعيد ، لم يشأ أن يراه عياناً وهو حاضر .

ووجد مصيرفاً لهذه العواطف الحزينة فى هدية قدمتها إليه السيدتان عند رحيله : كانت صُدفَرياً مطرزاً بأيديهما . وهو قد رآهما منذ زمان طويل مشغولتين كليتهما بهذا العمل ، ومازجه حسد مستور لهذا المجهول السعيد الذى سيملكه يوماً ما . ومثل هذه الهدية أجل ما يظفر به رجل محب محترم : لأنه لا يستطيع التفكير فى هذه الأيدي الناعمة الخفيفة الحركة الدائبة العمل ، دون أن يعنى نفسه بأن القلب أيضاً قد ساهم بنصيب فى مثل هذا العمل المتأبر .

والآن قد صار لدى السيدتين ضيف جديد ، تحملان له كل خير ، وتمنيان رضاه فى ضياقهما . إن للنسوة شوقاً خاصاً مستوراً ثابتاً ليس فى وسع شيء فى الدنيا أن يحول يئنه ويئنه ؛ لكنهن فى العلاقات الاجتماعية يُسلمن أنفسهن بارتياح وسهولة للرجل الذى يشغلهن . وسواء بالمقاومة وبالخضوع ، بالعناد وبالتساهل ، يفرض من السلطان ما لا قبّل لأى رجل فى العالم التمددين بتجنّبه .

لقد أظهر المهندس مواهبه ومارسها وهو يبدو في مظهر من يتابع ذوقه وهواه ، أظهرها على مرأى من صديقاته ترفيهاً عنهن وحرصاً على خدمتهن ؛ وبهذه الروح ووفقاً لهذه النظرة نظمت الأعمال ورُتبت الملامح . بيد أن وصول المعلم أفضى إلى أسلوب في الحياة جديد مغاير . إذ كانت موهبته الكبرى في حسن الكلام وجمال العرض ، في أثناء الحديث ، للعلاقات المتبادلة بين الناس ، خصوصاً فيما يمس تربية الشباب . وعلى هذا النحو نشأت معارضة ظاهرة ضد العادات التي اتبعت حتى ذلك الحين ، خصوصاً أن المعلم لم يكن موافقاً تمام الموافقة على الأشياء التي اقتُصر على العناية بها من قبل وحدها .

لم يقل كلمة واحدة عن اللوحة الحية التي استقبلته لدى وصوله . وفي مقابل هذا ، لم يستطع أن يخفى رأيه ومشاعره حيناً لئلا للقوم أن يطلعوه على الكنيسة والكابلة وكل ما إليها . فقال : « أما أنا فلا أحب هذا التقريب ، وذلك المزج بين الأشياء المقدسة وما يبهج الحواس ؛ لأحب أن يكرّس الناسُ بعض الظاهر الخاصة ويميزوها ، ليغدوا على هذا النحو العاطفة الدينية بطريقة لا تدع مجالاً لغيرها . فالحَرَم كائنٌ ما كان ومهما تكن بساطته أن يعكر فينا صفو الشعور بالآلوهية ، هذا الشعور الذي يمكن أن يصاحبنا في كل مكان وأن يصنع من كل ناحية معبداً . وإلى لأفضل القيام بفروض العبادة داخل المنزل في قاعة الطعام ، حيث يجتمع القوم للملذات والألعاب والرقص . إن أنبل ما في الإنسان وأسماءه لا شكل له ولا لون ، ويجب علينا أن نتفادى تصويره إلا بالأعمال النبيلة » .

وسرعان ما أدخلته شرلوت في نطاق نشاطها ، وقد كانت على علم سابق بمشاعره ، وفي وقت قصير تعمقها أكثر وأكثر ؛ — بأن

استعرضت أمامه في البهو الكبير ، البستانيين الصغار الذين استعرضهم المهندس منذ قليل قبل رحيله . فتبدوا في أجل مظهر وهم يرتدون بزّتهم النظيفة الزاهية ، ويأتون حركات منتظمة وأعمالاً خفيفة الحركة طبيعية . وخصهم المعلم وفقاً لمزاجه ، وبعد أسئلة ومحاورات متعددة اكتشف أخلاق هؤلاء الأطفال ومواهبهم واستعداداتهم ، وفي أقل من ساعة ومن غير أن يظهر بهذا المظهر كان قد علمهم وأفادهم إلى حد كبير .

فقلت شلوت ، حينما انصرف الأطفال : « ماذا فعلت وكيف ؟ لقد استمعت بانتباه شديد ؛ ولم يدر السؤال إلا عن أشياء معروفة تماماً ، ومع هذا فلست أدري ماذا أصنع كما أعرضها بمثل هذا الترتيب ، وفي مثل هذا الوقت القصير ، خلال كل هذا الخليط من الأقوال .

— لعل من الواجب على المرء أن يجعل من فضائل مهنته ومزاياها سرّاً ، هكذا استأنف المعلم كلامه ؛ ومع هذا فلست بمستطيع أن أكتمك المبدأ البسيط الذي يمكن بمعونته الظفر بهذه النتيجة وأكثر منها . خذى أى شئ ، مادة أو فكرة ، كما يشاء الناس أن يسموها ؛ واحتضنها بكل قوة ، واصنعي منها تصوراً واضحاً كل الوضوح في جميع أجزائه : هنالك سيسهل عليك أن تتعرفى ، بالحديث مع فرقة من الأطفال ، ما يعلمون فعلاً عن ذلك الشئ . وماذا يجب تعليمهم عنه أيضاً ، والإيحاء به إليهم كذلك . ومهما تكن أجوبتهم عن أسئلتك ، فادمت تدريبهم من بعد إلى الفكرة أو الموضوع ، ولا تدعين نفسك تنأى عن وجهة نظرك ، فلا بد أن ينتهى الأطفال بإدراك ما يريد المعلم أن يلقنهم إياه ، وفهمه والنفوذ إليه بقولهم ، بالطريقة التي يريد عليها أن يفهموه ويعلموه . وإنما عيبه الأكبر أن بنجر وراء تلاميذه ، وأن يعجز عن إيقافهم عند

النقطة التي يعالجها حالياً . جرّبي هذا قريباً ، أى سيدتى ، وستجدين فيه تشويقاً كبيراً ولذة .

— هذا بديع ! هكذا قالت ؛ إن التربية الجيدة هى إذاً عكس المعاملة الجيدة . ففي المجتمع يجب ألا يتوقف الإنسان عند أى شيء ، بينما في التعليم القانون الأعلى هو محاربة كل خروج عن الموضوع واستطراد .

— التنويع بلا تشبّث هو بالنسبة إلى كل من العلم والسلوك في الحياة أجل قاعدة وخير مثال ، لكن هذا التوازن السعيد شاق الاحتفاظ به .
وبعد أن أفضى بهذا الجواب ، راح المعلم يستمر في الحديث ، حينما ألحّت عليه شرلوت في أن ينظر مرةً أخرى إلى الأطفال ، بينما كان جمعهم يخرق الفناء في تلك اللحظة . فعبر عن رضاه لإخضاعهم لرى واحد مشترك .

قال : « يجب أن يرتدى الناس الرى المشترك منذ نعومة أظفارهم ، إذ عليهم أن يتعودوا العمل مشتركين ، والاختلاط ببلداتهم وأقربانهم ، والطاعة للمجموع والعمل للصالح العام . وفضلاً عن هذا ، فإن كل لون من الرى المشترك يفتدى الروح العسكرية والتربية الدقيقة الثابتة النظامية . ثم ، أليس الأطفال يولدون جميعاً جنوداً بطبعهم ؟ يكفي المرء أن يشاهدهم وهم يلعبون ويتحاربون ويتصارعون ويهجمون ويتسلقون .

— فقالت أوتيلي : لكنك لن تلومنى على أنى لم ألبس فتيتان على هذا النحو ؟ . . . حينما أعرضهن عليك ، آمُل أن أُمسِكنك بالمزيج والتنوع .

— أوافق على هذا تماماً ، بهذا أجب . إن النسوة يجب أن يتنوع لباسهن إلى أبعد حد ، كلاً على هواها ، كما تعرف كلٌ كيف تحس بما

بلاعما . وثمت سبب أهم من هذا هو أنه قد قدر عليهن أن يكن متوحدات ، وأن يعملن وحيدات ، طوال حياتهن .

— هذه — فيما يبدو — مفارقة غريبة ، هكذا قالت شرلوت : إننا نحن لا نكاد نحيا مطلقاً من أجل أنفسنا .

— على العكس ، بهذا أجاب المعلم ، إنكن لا تحمين إلا من أجل أنفسكن حقاً ، بالنسبة إلى النسوة الأخريات . فلينظر الإنسان المرأة عاشقة أو خطيبي أو زوجاً أو أمّاً أو ربة بيت ، فسيجدها دائماً منعزلة متوحدة وتريد دائماً أن تكون كذلك . بل إن أكثرهن غروراً لعلى هذه الحال كذلك . إن كل امرأة تستبعد غيرها من النساء : هذا في طبيعها ، لأن المرء يتطلب من كل منهن كل ما يجب أن يؤديه كل جنسهن بتامه . وليس الأمر كذلك بالنسبة إلينا معشر الرجال . فالرجل منا في حاجة إلى الرجل ، وإذا لم يجده خلقه لنفسه ؛ أما المرأة فتستطيع أن تحيا الدهر كله ، دون أن تفكر في إيجاد قريبتها .

— فقالت شرلوت : يكفي أن يقال الحق بطريقة غريبة كما ينتهى القريب نفسه بأن يبدو حقاً هو الآخر . سنقتطف خير ما في ملاحظاتك ، ومع هذا فنحن كنسوة سنكتاف سوياً ، وسنعمل أيضاً معاً كيلا نترك للرجال مزايا كبرى علينا . بل اسمح لي بهذا السرور الماكر الذى سنزداد شعوراً به في المستقبل حينما نرى الرجال لا يتفقون كثيراً فيما بينهم » .

ثم درس المعلم الفِطْنُ من بعدُ بكثير من العناية الطريقة التى تعامل بها أوتيلي تلميذاتها الصغيرات ، وشهد بموافقته الصريحة على ما تفعل . قال لها : « لك الحق كثيراً فى أن توجّهى اهتمام تلميذاتك إلى الأشياء التى فى المرتبة الأولى من الضرورة ، وحدها . إن النظافة تحمل البنات الصغار

على حسن تقدير أنفسهن ، وما أعظم المكسب حينما ندفعهن إلى السرور بما يفعلن والرضا عما يعملن .

وفضلاً عن هذا فقد شاهد بعين مليئة بالرضا أنه لا يُوجَّه أى اهتمام إلى المظهر الخارجى ، بل على العكس كل شىء يُعمَل من أجل الباطن ومن أجل الحاجات الضرورية . ثم صاح : « ما أقل الكلمات التى نحتاج إليها لعرض نظام التربية كله ، لو كانت هناك آذان تسمع ! »

— أولا تود أن تحاول مى ؟ هكذا قالت أوتيلى بصوت هادى .

— بكل ارتياح ، لكن لا تخونينى ! لو نُسِّى الأولاد ليكونوا خادعين والبنات ليكوننَّ أمهات لسار كل شىء على ما يرام .

— أمهات — هكذا قالت — ، النساء يمكنهن أن يقبلن ، لأنهن بدون أن يكنَّ أمهات يجب عليهن دائماً أن يتأهبن ليكون مربيات أولاد ؛ لكن الشبان يعتقدون فى داخل نفوسهم أنهم أسى كثيراً من أن يقوموا بدور الخادمين : إذ يستطيع المرء أن يلهج من مظهر كُلى أنهم يحسبون أنفسهم أقدر على السيادة والقيادة .

— وهذا هو السبب فى أننا نجعل لهم من هذا أمراً مستسراً وسراً ، هكذا قال المعلم . يتملق الإنسان نفسه فى مجرى الحياة ، لكن الحياة لا تتملقنا . أفيعرف الكثيرون كيف يسلمون طوعاً واختياراً بما هم ملزمون فى النهاية بالتسليم به ؟ وعلى كل حال ، فلندع هذه الأفكار الغريبة عما يشغلنا .

« إنى لأهنتك على استطاعتك استخدام منهج جيّد مع تلميذاتك . وإذا كان أصغر فتياتك يتلهون بعرائسهن ، ويخطن لمن بمض القصاصات قطعة فقطعة ؛ وإذا كانت الأخوات الكبريات يُمنَّين بالصغريات ، وإذا

كان البيت يكفل نفسه بنفسه — فإن الخطوة الباقية للدخول في حومة الحياة ليست واسعة ، والفتاة التي تُعَدُّ على هذا النحو تجد عند زوجها ما خلفته من ورائها عند أهلها .

« أما الطبقات العالية فالهمة بالنسبة إليها معقدة كل التعقيد . إذ يجب أن نحسب حساباً لعلاقات أسمى وأدق وألطف ، خصوصاً العلاقات الاجتماعية . من أجل هذا يجب أن ننشئ المظهر الخارجى عند تلميذاتنا . هذا ضرورى لا غنى عنه ، ويمكن أن يكون جيداً ، إذالم يتجاوز الحد المعقول . ذلك أن التفكير فى تنشئة الأبناء من أجل دائرة أوسع يفضى إلى الزج بهم فى طريق غير محدود دون أن نتدبر حقاً فيما تقتضيه طباعهم . وتلك هى المشكلة التى يتفاوت حلها أو الإخفاق فيها بين المربين . إننا نعلم تلميذاتنا فى المدرسة الداخلية كثيراً من الأشياء التى تدع فى نفسى قلقاً واضحاً ، لأن التجربة تدلنى على قلة استعمالهن لها فى مستقبل الحياة . لكن كم من أشياء لا تُعْمَحى ولا تُنسى طالما تدخل الفتاة بيتاً وتصبح أمّاً ! » ومع هذا ، وما دمتُ قد كرسْتُ نفسى لهذه الأعمال ، فلا أود أن أحرم نفسى الرغبة الصادقة فى النجاح يوماً ما ، بمعونة رفيقة مخلصه ، فى ألا أنسى فى تلميذاتى من المعارف إلا ما سيحتججن إليه حينما يدخلن فى ميدان النشاط الصحيح والاستقلال ، حتى يكون فى وسى أن أقول : إن تربيتهن ، بهذا المعنى ، قد اكتملت . ومن الحق أيضاً أن تتلوها دائماً أخرى غيرها تنشأ فى كل سنة من سنى حياتنا تقريباً ، صادرة إن لم يكن عن أنفسنا ، فمن الظروف التى تلابسنا . »

كم تبدت هذه الملاحظة صادقة فى نظر أوتيل ! وكم من الأشياء علمها وجدان غير متوقع ، اشتعل بها فى السنة التى انقضت ! كم من محسن

رأت نفسها مهددةً بها ، حتى فيما يتصل بمستقبلها القريب جداً وحده !
وهذا الشاب (المعلم) لم يتحدث عبثاً عن مساعدة ورفيقة ؛ فهو على
تواضعه لم يستطع أن يملك نفسه من الإشارة إلى أغراضه من طرف خفي
بعيد . وثمت كثير من الظروف والأحداث التي حملته في هذه الزيارة على
أن يخطط بضع خطوات أخرى في سبيل غرضه .

لقد كانت مديرة المدرسة متقدمة في السن ، وكانت قد بحثت منذ زمان
طويل بين المعلمين والمعلمات الذين يساعدونها عن شخص يمكن أن يكون
شريكاً لها ؛ وأخيراً توجهت إلى المعلم الذي نال كل نقتها فاقترحت عليه
أن يشاركها في إدارة المدرسة ، وأن يشرف عليها كأنها مدرسته ، وأن
يقوم مقامها بعد وفاتها ، بصفته وراثاً ومالكاً وحيداً . وكان المهم عنده
أن يجد امرأة تشاركه أفسكاره . وأوتيلي كانت تشغل قلبه سرّاً وعقله ؛
لكن تبدت بعض الشكوك التي وازنتها بعض الأحداث الملائمة . ذلك أن
لوسيانة قد غادرت المدرسة ، ففي وسع اليتيمة (أوتيلي) إذاً أن تعود إليها
كيفما شاءت ؛ أجل إن علاقاتها بإدورد قد تناقلتها بعض الألسن ؛ لكن
الأمر قد نُظر إليه بشيء من عدم الاكتراث ، شأنه شأن أمثاله من
الغاصرات ؛ بل إن هذا الحادث نفسه لم يكن أن يعمل على الإسراع بعودة
أوتيلي إلى المدرسة . لكن لم يكن ثمت ما يؤدي إلى اتخاذ أي قرار ،
ولا التقدم أية خطوة ، لولا أن زيارة مفاجئة قد أعطت المسألة دافعاً خاصاً ؛
فحضور الأشخاص البارزين في أية جماعة لا يمكن أن يظل دون أثر
ولا نتائج .

ذلك أن الكونت والبارونة رأيا أنفسهما موضعاً للاستشارة في قيمة
المدارس الداخلية المختلفة ، لأن أولياء الأمور يكادون يحارون في اختيار

التربية الصالحة لأبنائهم ؛ فخطر ببالها أن يستطلما أمر تلك المدرسة التي سما عنها أخيراً إطرأ كثيراً . وقد صار في وسعها أن يقوموا بهذه الزيارة سوياً ، بعد وضعها الجديد . كما أن البارونة كانت ترى إلى مقاصد أخرى . فقد تحدثت إلى شرلوت إبان إقامتها الأخيرة لديها حول كل ما يتصل بإدورد وأوتيلي . فأصرت البارونة على إبعاد الفتاة . وبذلت جهداً كبيراً كطعمت شرلوت التي كانت تخاف دائماً تهديدات إدورد . فاستعرضا الحلول الممكنة ، ولما وصلا إلى فكرة المدرسة الداخلية ، تطرق الحديث إلى غرام المعلم — فزاد هذا من عزيمة البارونة على القيام بالزيارة المقترحة .

قدّمت وتعرّفت إلى المعلم وتفقدت المدرسة وتحدثت عن أوتيلي . ولذ للكونت نفسه هذا الحديث عنها ، لأنه ازداد معرفة بها أثناء زيارته الأخيرة . لقد اقتربت من الكونت ، وشعرت بانجذابها نحوه ، لأنها وجدت عنده ، في حديثه الممتع المتن ، ما ظل مجهولاً لديها حتى ذلك الحين . وكما كانت في أحاديثها مع إدورد تنسى الدنيا ، فإنها في حضرة الكونت بدت الدنيا لها مرغوباً فيها لأول مرة . كل ميل متبادل . لقد أحس الكونت بحيل إلى أوتيلي إلى حد أنه كان يلذ له أن ينظر إليها كابنة له . في هذه المرة أيضاً كانت عقبة أمام البارونة ، أكثر مما كانت في المرة الأولى .

ليت شعري ماذا كانت ستفعله ضد هذه الفتاة حينما كانت لا تزال عارمة الوجدان ! هنالك كفاهها أن تجعلها ، بواسطة الزواج ، أقل خطراً على البيت .

فعرفت كيف تُفهم المعلم بلباقةٍ — لكن بنجاحٍ — أنه يجب عليه أن يعمل على القيام برحلة صغيرة إلى القصر ، ويمجّل بتحقيق أمانيه ومشروعاته التي لم يخف أمرها عن البارونة .

ومن هنا قام بهذه الرحلة ، بموافقة تامة من الديرة ، وهو يُفدّي في قلبه أجل الآمال . إنه ليعلم أن تلميذته لا تكرهه ؛ وإذا كان بينهما عدم تكافؤ في المركز الاجتماعي ، فإنه لا يلبث أن يزول بسهولة أمام الأفكار العصرية . كما أن البارونة ، من ناحية أخرى ، قد أفهمته أن تلك التي يجلبها ستمظل دائماً فتاة فقيرة . إن الانتساب إلى بيت غني لا يعطى أية ميزة : ففي حالة الثروات الضخمة ، يتردد الناس في استقطاع مبلغ كبير من هؤلاء الذين يبدو أنهم أحق بالامتلاك ، بسبب زيادة قرابتهم . والحق أنه ليس أقل من هذا غرابة أن لا ينتفع الإنسان إلا نادراً — من أجل إفادة من يجلبهم — بالامتياز الكبير الذي يخوّل له أن يتصرف في أملاكه بعد وفاته ؛ وأن يدعو للتوريث من سيميلكون ثروته من بعده ؛ حتى لو لم تكن لديه أية نية .

كان قلبه يقول له طوال رحلته إنه كفء لأوتيل . وقوى من آماله ما لقيه من حُسن استقبال . أجل إنه وجدها هذه المرة أقل إفضاءً له بما في نفسها مما كانت من قبل ؛ لكنها قد صارت الآن أنمي وأفضل تكويناً ، وعلى وجه العموم يمكن أن يقال إنها أظهر لمكنون نفسها مما عرفها . ثم إنه أُطليح — في ثقة كاملة — على كثير من المسائل ، خصوصاً تلك التي تتصل بحالته . لكنه كان حينها يريد الاقتراب من هدفه ، بمنعه دائماً نوع من الخوف والتهيب .

يبدو أن شرلوت هيأت له الفرصة يوماً ، حينما قالت له في حضرة ابنة أختها :

« الآن وقد تفقدت جيداً كل ما يجري في البيت ، قل لي رأيك في أوتيل . وأحسب أنك لن تهيب القول في حضرتها ؟ »

فأجاب المعلم بكثير من الحصافة والحكمة ، وبلغته باللغة الهدوء والرزانة ، قائلاً إنه قد وجدها قد تغيرت إلى أحسن فيما يتصل بيسر المعاملة ، ولطف الحديث ، وعلو الفهم لشئون الدنيا ، مما يبدو في أعمالها أكثر منه في أقوالها ؛ ومع هذا فهو يعتقد أنها يمكن أن تكسب كثيراً لو أنها عادت بعضاً من الزمان إلى المدرسة ، كيما تملك تملكاً ثابتاً راسخاً مرتباً ما لا تعلمها إياه الحياة إلا بطريقة جزئية غير منظمة ، أدعى إلى إحداث الاضطراب منها إلى جلب الرضا ، وأحياناً ما تتأخر كثيراً . ولم يشأ أن يطيل عنان القول في هذا فقد كانت أوتيلي تعرف خيراً من أى إنسان آخر مقدار الدروس التى أكرهت على تركها .

لم يكن فى وسع الفتاة أن تشكر هذا ، لكنها لم تستطع أيضاً أن تصرّح بما تشعر به بإزاء هذه الكلمات ، لأنها لا تكاد تعرف ماذا تقول . إنها لم تعد ترى فى الدنيا أى نقص عام ، حينما تفكر فى الذى تحبه ، ولم تتصور وجود أى انسجام بدونه .

أما شرلوت فقد أجابت عن هذا الاقتراح بلطف موزون . قالت إنهما كانا يأملان فى عودة أوتيلي إلى المدرسة . أما الآن فلا غنى لها عن حضور مثل هذه الصديقة العزيزة ومعاونتها . لكن فى المستقبل إذا كان هذا من رأى أوتيلي فإنها لن تحول بينها وبين العود إلى المدرسة ، لإتمام دراساتها التى ابتدأتها ، وتمثل كل المعارف التى توقفت عن تحصيلها .

فتلقى المعلم هذه العروض بسرور . ولم تستطع تلميذته أن تعترض بشئ ، على الرغم من أن هذه الفكرة قد أثارت فى نفسها القشعريرة والاضطراب . وشرلوت من ناحيتها أفكرت فى كسب الوقت . إذ كانت

نأمل أن يكون في صيرورة إدورد والداً ما يعيد رشده إليه ويرده إليها ؛ وكانت واثقة من أن كل شيء بعد هذا سينظم ، وأن مصير أوتيلي سيقدر ويرتب على نحو ما .

كل حديث جيدى يسام فيه المتحاورون كلُّ برأيه الخاص يُتلى غالباً بوقفة يلوح أنها تدل على نوع من الضيق مشترك . لقد كانوا يفدون ويجيئون في غرفة الاستقبال ؛ وتصفح الملمّ بعض الكتب ؛ وأخيراً وقع في يده كتاب ظل في ذلك المكان منذ أيام لوسيانه . فلما رأى أن هذا الكتاب لا يشتمل إلا على رسوم قردة ، أقفله في التو . لكن يلوح أن هذا الحادث قد أفضى إلى حديث ، إذ نرى أثرأله في « اليوميات » التي نحن بسبيل الاقتباس منها الآن أيضا .

من يوميات أوتيلي

كيف يأخذ المرء على عاتقه أن يرسم قردة حقيرة بكل هذه العناية ! إنه نوع من الانحطاط مجرد حسبائها حيوانات : لكنه شاهد على الحبث حقاً أن يُسلم المرء نفسه للذة نشدان أناس معروفين تحت قناع هذه الرسوم .

لا بد من وجود نوع من الضلال في الروح عند من يلذ له أن يشتغل بالرسوم الهزلية والغريبة . إننى أدين لعلنا النبيل بفضل عدم انشغالي بالتاريخ الطبيعى : إذ لا يسعنى مطلقاً أن أشعر بالمطف نحو الدود والجعلان (الخنافس) .

في هذه المرة اعترف لى بأنه يشعر مثلى ، قال : « يجب ألا نعرف من الطبيعة إلا الأشياء التي تعيش من حولنا وبالقرب منا » . إن لنا صلة

حقيقية بالأشجار التي تخضر وتزهو وتثمر من حولنا ؛ بالشجيرة التي نمرّ بالقرب منها ؛ بكل عود من العشب نطؤه بأقدامنا : إنهم شركاؤنا في الوطن حقاً وأبناء جلدتنا . والطيور التي تتواثب على غصون أشجارنا ، وتغنى في أيكتنا ، تنقسم إلينا ؛ إنها منحدرة إلينا منذ نعومة أظفارنا ، وتعلمنا كيف نفهم لغتها . وليسأل المرء نفسه عما إذا لم يكن كل مخلوق غريب ينتزع من وسطه يحدث في نفوسنا آثاراً أليمة لا تهدأ إلا بالعود . ولا بد للمرء أن يحيا حياةً مشتتة صاحبة ، كما يحتمل إلى جواره القردة والبيغاوات والزئوج .

حينما تأخذني الرغبة أحياناً في مشاهدة هذه الكائنات الغريبة ، أحسد الرحالة الذي يشاهد هذه المعجائب في صلات حية مستمرة بمعجائب أخرى . لكنه هو نفسه يستحيل خُلُقاً آخر : فما من أحد يستطيع أن يتجول تحت النخيل دون أن يتأثر ، وأفكارنا تتغير من غير شك في وطن يكون فيه الغيلة والتمرة في مكانها الأصلي .

لا عالم طبيعياً جدير بالاحترام إلا ذلك الذي يعرف كيف يصور لنا ويمثل أغرب الكائنات وأعجبها في داخل بيئته وكما هو في محيطه ، وفي وسطه . كم يحلو لي أن أسمع همبولت^(١) ، ولو مرة واحدة ، يقص رحلاته !

(١) هو فريدرش هينرش ألكسندر فون همبولت (سنة ١٧٦٩ — سنة ١٨٥٩) : عالم بالتاريخ الطبيعي ألماني ، ورحالة مشهور . رحل إلى الرين في سنة ١٧٩٣ فكتب كتابه الأول بعنوان : «ملاحظات على بازات الرين» . ثم درس في فريبورج ، حيث قام بعدة تجارب على الكهرباء الكلفانية . وخلال السنوات من سنة ١٧٩٧ — سنة ١٨٠٤ قام برحلات إلى أمريكا الجنوبية والمكسيك والولايات المتحدة ، وعاد منها مزوداً بكثير من المعلومات في كل فروع التاريخ الطبيعي . ومن =

إن مكتب التاريخ الطبيعي يمكن أن يبدو لنا على هيئة ضريح مصرى ،
ترى فيه الحيوانات والنباتات المختلفة مرتبة ومحنطة . ويليق حقاً بطبقة
كهنوت أن تشغل بها فى ضوء ضعيف مُستَسر . لكن هذه الأشياء
يجب ألا تشغل مكاناً فى التعليم العام خصوصاً بقدر ما هى من شأنها أن تطرد
ما هو أنفع منها وأقرب إلينا .

إن المعلم الذى يستطيع أن يُشعرنا بعمل نبيل أو قصيدة جيدة ليؤدى
خيراً أكبر من ذلك الذى يعرض لنا أصنافاً كاملة من الإنتاجات الطبيعية
بكل ما لها من أشكال وأسماء ؛ لأن النتيجة كلها (ونستطيع أن نعرفها
بطريقة أخرى) هى أن الإنسان يحمل فى نفسه — بنوع من السمو
والامتنياز الخاص — صورة الألوهية .

لندع لكل الحرية فى الانصراف إلى ما يجذبه ويفريه ويدوله مفيداً :
لكن الدراسة الجوهرية للإنسانية هى دراسة الإنسان نفسه .

الفصل الثامن

قليل من الناس يعرفون كيف ينشغلون بالماضى القريب كل القرب .
فتحن بين خصلتين : فإما أن نكون أسارى الحاضر ، وإما أن نضلّ فى
بيداء الماضى البعيد ، ونسى قدر استطاعتنا لاستعادة ما ضاع إلى غير رجعة .

== سنة ١٨٠٨ — سنة ١٨٢٧ أقام فى باريس واشتغل مع جى لوساك فى إقامة
التجارب الكيميائية . ورعاية القيصر نقولا قام فى سنة ١٨٢٩ برحلة استكشافية
إلى آسيا الصغالية والوسطى ، فزاد من العلم بسلاسل الجبال وعلم المناخات المقارن .
ونفرغ بعدها لوضع كتابه « الكون » الذى يمد من أعظم الأسفار فى فلسفة العلم .

بل إن العادة حتى في الأمر الكبيرة الموسرة التي تدين بالكثير لأجدادها ، قد جرت بالتفكير في الجد الأعلى أكثر منها في الأب .

انساق معاً إلى هذه الخواطر يوماً من تلك الأيام الجميلة التي يقدم لنا فيها الشتاء الراحل صورةً خادعة للربيع ، بينما كان في طريقه إلى التريض في الدستان الفسيح العتيق الخاص بالقصر ، وكان يعجبه فيه مخارف الزيفون المالية ، والفروشات المنتظمة التي تعود إلى أيام والد إدورد . وقد نجحت نجاحاً باهراً وفقاً لفكرة من غرسها ، والآن وقد تبدى هذا النجاح وأمكن التمتع به ، لم يعد أحد يتحدث عنه ، ولا يكاد أحد يزورها ؛ فلهوى والإسراف قد اتخذوا اتجاهاً آخر وانتقلا بعيداً إلى معمران الريف .

ولما عاد المعلم إلى القصر ، أبدى هذه الملاحظة لشرلوت ، فتلقته بشيء غير قليل من الارتياح . وأجبت : « إن الحياة تسوقنا ، ويخيل إلينا أننا نعمل من تلقاء أنفسنا ، ومختار أعمالنا وملذاتنا ؛ والواقع أن ذوق العصر وتقويماته هي التي تفرض علينا اتباعها .

— بدون شك ، هكذا استأنف المعلم ؛ ومن ذا الذي يقاوم سيل الحوادث ؟ إن الزمان ليجرى سائقاً العواطف والآراء والأفكار السابقة والأذواق . فلو أمضى الابن شبابه في زمن الثورة ، فمن المؤكد أنه لن يشبه أباه في شيء . ولو عاش الأب في عصر يعيل الناس فيه إلى الامتلاك الخاص والتحديد والتضييق على الأشياء ، والتمتع بالملذات القوية وحيداً بعيداً عن الناس ، فإن الابن لن يقصّر في السعي لبسط ما قصّره الأب ونشره والتوسع فيه وبذله للآخرين .

— فقالت شرلوت : والعصور الكاملة تشبه هذا الوالد وذلك الابن

الذين تصفهما . فنحن لا نكاد نستطيع أن نكون فكرة عن تلك الأزمنة التي كان لا بد لكل مدينة فيها من خنادق وأسوار لها خاصة ؛ حين كان يُبنى بيت النبيل في حمأة ، وكانت أقل القصور لا يمكن الوصول إليها إلا بواسطة جسر متحرك يُرفع ويُزَل . أما اليوم فاللدن الكبرى نفسها تدكُّ أسوارها ؛ والخنادق حول قصور الأمراء قد ملئت ؛ والمدن لا تبدو اليوم إلا كمساحات منبسطة واسعة : وإن الرحالة الذي يشاهد هذه التغيرات لا بد له أن يمتقد أن السلم العالي قد صار مكفولاً ، وأن العصر الذهبي على الأبواب . لم يعد يلذ للواحد منا أن يرى بستاناً إلا إذا كان مشابهاً للريف المنبسط ؛ ولا شيء يجب أن يذكر بالصنعة والضيقة ؛ إننا نريد أن ننعم بكل يسر وحرية . فهل عندك فكرة ، يا صديقي ، عن إمكان الرجوع عن هذه الحالة إلى أخرى ، إلى تلك التي سبقتها ؟

— ولم لا ؟ هكذا قال ؛ إن لكل موقف مساوئه ، سواء المقيّد والمتحرر . إن هذا الأخير يفترض الوفرة ويفضي إلى الإسراف . فلنقف عند المثل الذي سُمِّقته : فهو بارز يستلفت النظر . فحالا يشعر الناس بالحاجة يعودون إلى الاعتدال . فالناس المضطرون لاستغلال أراضيهم يحيطون حدائقهم بالأسوار من جديد ، كما يكونوا على ثقة بالمنتجات . وعن هذا الطريق تأخذ الأمور مظهراً آخر شيئاً فشيئاً . فتكون السيادة لما هو نافع ، وأخيراً يعتقد الغنى أنه يجب عليه أن يستغل كل شيء . صدقيني أنه من الممكن أن يهمل ابنك كل تجميلات البستان ، وينجاز من جديد خلف الأسوار الكاكية وتحت الزيفون العالي الذي غرسه جده .

وأحست شرلوت بسرور خفي حينما سمعت يبشرى ابنها ، مما جعلها

تفتقر النبوءة المضائقة التي قال بها المعلم ، فيما يتصل بالمصير الذي يمكن أن يلقاه بستائنها الجميلُ يوماً ما ، بستائنها الحبيب . وأجابت بلطف كامل :

« لسنا كالانا في السن التي تجعلنا مرات كثيرة شهوداً على أمثال هذه المناقضات ؛ لكن إذا عُدنا إلى زمان الشباب الأول ، وتذكرنا شكاة الشيوخ ، ولا حظنا المدن والأرياف ، فلعلنا لن نجد شيئاً نجيب به عن ملاحظاتك . لكن ، أفلا يسعنا أن نعترض هذا السير الطبيعي أى اعتراض ؟ أفلا نستطيع أن نوفق بين الأب والابن ؟ لقد تلطفت فتنبأت لى بولد : فهل من الضروري قطعاً أن نكون وإياه على طرفى نقيض ؟ وأن يهدم ما كان أهله قد بنوه ، بدلا من إتمامه وإكماله وإعناؤه ، بأن يستمر عاملا بنفس الروح ؟

فأجاب المعلم : لعل هناك وسيلة ناجعة ، لكن الناس نادراً ما يستخدمونها ، فإينشئى ، الوالد ولده على أنه شريك له ؛ وليدعه يبنى ويفرس معه ، وليسمح له ، كما سمح لنفسه ، بحرية بريئة . إن فى الوسع إيلاجَ نشاط فى آخر ؛ لكن لا يمكن ضم الواحدة إلى الثانية ؛ فالغصن الصغير يتحد بسهولة وارتياح مع الساق العتيق الذى لا يمكن أن يطعم عليه بعدُ فرعٌ كبير . »

واغتنبط المعلم لأنه وجد الفرصة لكي يقول لشرلوت كلاماً طيباً ، وأن يستجلب عطفها ورضاها من جديد ، فى اللحظة التى رأى نفسه فيها مضطراً إلى توديعها . لقد طالت غيبته عن منزله ، ومع هذا فإنه لم يقدر أن يعقيد العزم على الرحيل إلا بعد أن اقتنع تمام الاعتقاد أنه لا يمكنه الأمل فى قرار نهائى أياً كان فيما يتصل بأوتيلى قبل أن تضع شرلوت . فأسلم أمره واستسلم للظروف ، وعاد بهذا الأمل والرجاء إلى المدير .

واقترب ميعاد وضع شرلوت . فازداد حرصها على التزام مخدعها وعدم الخروج . وكانت النسوة اللاتي اجتمعن حولها محبتها الوحيدة في تلك العزلة وذلك الاعتكاف . ووقع عبء الشئون المنزلية على أوتيلي دون أن تسكاد تفكر في الدور الذي تلعبه . والواقع أنها قد لاذت بالتسليم الكامل ؛ ورغبت في أن تتركس نفسها دائماً وبكل إخلاص وتفانٍ لخدمة شرلوت ، وابنها وإدورد ، لكنها ما كانت لتتبين كيف يمكن هذا أن يكون . ولم ينقذها من هذا البلبال التام ، إلا انكبابها على أداء واجبها كل يوم .

ومن ميمون جد البارونة أنها وضعت غلاماً ذكراً ، واتفق النسوة على التصريح بأنه صورة كاملة من أبيه : أما أوتيلي فقد حملت في نفسها كلاً آخر ، حينما غدت تهنيء الواضع ، وتضم إليها الوليد الجديد بكل لطف ورقة . إن شرلوت حينما كانت تهنيء الترتيبات اللازمة لزواج ابنتها ، كان وقع غياب زوجها أليماً كل الألم في نفسها ، والآن لم يكن للأب أن يشاهد ميلاد ابنه ، ولم يكن له أن يحدد أى اسم سيختاره له !

وأول الأصدقاء الذين أقبلوا لتقديم التهاني كان متلر الذي كان قد وضع رقباء لإخباره بهذا الحادث من دون تأخير . أقبل وكان موفور السرور . ولم يستطع أن يخفي انتصاره في حضرة أوتيلي ؛ وعبر عن نفسه بصوت جهورى أمام شرلوت ، وكان رجلاً قادراً على تبديد كل بلبال ، وإزالة كل عقبة ؛ فلم يكن من الواجب تأجيل التفطيس . والقسّ الشيخ الذي كانت إحدى قدميه في القبر سيوحّد بتبريكه بين الماضي والمستقبل ؛ وسيدعى الطفل باسم أوتو : فليس له أن يحمل اسماً آخر غير اسم الأب والصديق . وكان لابد من حزم هذا الرجل وإصراره كيما يتيسر إزالة آلاف الصعوبات والاعتراضات وألوان التباطؤ والتردد ، والأفكار الأنسب ،

والآراء المتفاوتة ؛ والشكوك ، والأقوال والردود وتناقض الأقوال : إذ العادة في هذه الأحوال أن إزالة صعوبة يؤذن ميلاد أخرى جديدة ، وأن بعضاً من أنواع اللياقة يخالفه المرء وهو يحاول أن يراعيها كلها .

وكتب متلر بنفسه كل وسائل التعريف بالحادث السعيد . وكان لا بد من إرسالها بدون إبطاء ، لأنه كان هو نفسه يؤدّ من أعماق قلبه أن يُبلغ العالم — الراغب في الإساءة والسُّلم أحياناً — نبأ الحادث السعيد الذي كان يَعُدُّه على جانب كبير من الأهمية بالنسبة إلى الأسرة . والواقع أن المواصف التي أثارها العواطف حتى ذلك الحين لم يَخَفْ أمرها على الجمهور ، هذا الجمهور الذي يعتقد أن كل ما يحدث إنما يحدث لسبب واحد هو أن يكون لديه شيء يقوله ويذيعه ويتحدث عنه !

وجرى الاحتفال بالتغطيس مهيباً رائعاً ، لكنه كان على هذا قصيراً مقصوراً على الأهل والأصدقاء الذين التأم جمعهم . وكان مقدراً أن يقدم متلر وأوتيلي الطفل على أنهما عرّاباه ؛ فتقدم القسُّ الراعي الشيخ مستنداً إلى البواب بخطى بطيئة . ثم انتهت الصلاة ، ووضع الطفل على ذراعي أوتيلي ، ولما انحنت نحوه بلطف وحنان ، انتابها فزع غير قليل وهي تنظر في عينيه المفتوحتين ، لأنها حَيَّل إليها أنها ترى فيهما عينها هي . وكان مثل هذا التشابه خليقاً باسترعاء نظر الكل . ومتلر من ناحيته حينما تلقى الطفل بعدها دُرْهشَ كذلك حينما وجد في قَسَماته مُشابهةً واضحةً بالسكابتن ، لم ير من قبل لها مثيلاً .

بيد أن ضعف القس الشيخ الطيب قد حال بينه وبين أن يضيف في هذا الاحتفال شيئاً إلى الليتورجية العادية . هنالك تذكر متلر — وقد امتلأ بموضوعه — مهنته القديمة ، وما اعتاده عادةً من التفكير وفقاً لما

يتيح الكلام والتعبير . وفي هذه المرة قلل من إحجامه أنه لم ير حوله إلا جمعاً صغيراً من الأصدقاء . لهذا فإنه عند ختام الحفل قام مقام القس ؛ وفي خطاب حتى عرض واجباته كعَرَّاب وما يجيش في صدره من آمال توقف عندها طويلاً ، معتقداً أن شرلوت مغتبطة بما يقول ، كما يبدو على محياها .

وكان بود الشيخ الطيب أن يجلس ، لكن الخطيب القوي لم يتنبه إلى هذا ، كما لم يخطر بباله أنه بسبيل إحداث ضرر أكبر ؛ لأنه بعد أن عبّر بقوة عن صلات كل من الحاضرين بالطفل ، ووضع تيجان أوتيلي في محبة قاسية ، أتجه إلى الشيخ ووجه إليه هذه الكلمات : « أما أنت ، أيها الأب الجليل ، ففي استطاعتك بعد أن تقول مع سمعان : « ربّي ، دع عبدك يذهب في سلام ، لأن عيني أبصرتا منقذ هذا البيت » .

وكان متلر بسبيل ختم خطابه بطريقة براقة ، حينما لاحظ فجأة أن الشيخ — وقد قدّم إليه الطفل — لاح في البدء أنه يميل عليه ، لكنه سقط في الحال إلى الخلف . ولم يكده ينهض من كبوته حتى وُضع على كرسي ، وبالرغم من كل الإسعافات السريعة ، مات حقاً .

إن رؤية الميلاد والموت يتواليان ، والمهد واللحد يتجاوران ، ولا ينفصلان ، وإدراك هذه النقائص الرهيبة لا بالفكر لحسب ، بل وبالعين أيضاً — كل هذا كان ذا وقع بالغ في نفوس الحاضرين ، وزاد من روعته مفاجأته . أما أوتيلي فكانت وحدها التي تأملت الشيخ بعين الحسد ، الشيخ الراقد محتفظاً بسمائه الأنيقة اللطيفة . لقد قُضى على حياة النفس ، فلماذا يبقى البدن ؟ !

وإذا كانت الأحداث الحزينة في ذلك اليوم قد حملتها على التفكير في تفاهة الشؤون الإنسانية ، وفي الانفصال والخسران ، فقد جاءها العزاء من

جانب رؤى ليلية أكّدت لها وجود حبيبها ، مما زاد في إنعاش وجودها
 هي وإشاعة القوة فيه . فقد لاح لها وهي راقدة في فراشها تهدهدها
 الأَحْسَاس العذبة ، بين النوم واليقظة ، أن نظراتها تنفذ إلى مكان أكمل
 أضاءه نور هادئ رقيق . ورأت فيه إدورد بكل وضوح ، في ملابس لم تره
 عليه من قبل ، ملابس الجندي ، وكل مرة في وَضْعَةٍ جديدة ، ومع هذا
 فهو بطبيعته تماماً ليس فيها أى شىء خيالى ، أحياناً واقفاً وأخرى سائراً ،
 أوراقداً أو ممتطياً جواداً . وكانت الرؤيا كاملة في كل تفاصيلها ، تتحرك من
 تلقاء نفسها أمامها ، دون أن تكون الفتاة في حاجة إلى أى فعل إرادى ،
 أو جهد يبذله خيالها . وآونة كانت تراه محوطاً بمختلف الأشكال المتحركة ،
 ذات اللون الكابى أكثر من الخلفية المنيرة ؛ بيد أنها تبينت بصعوبة
 خيالات لاحت لها من حين إلى حين على هيئة رسوم لأناس وخيول وأشجار
 وجبال . ثم نامت وسط هذه الرؤيا ، وحينما استيقظت فى الصباح بعد ليلة
 هادئة ، سرى إليها الانتعاش وشاع في نفسها العزاء والسُّلُوكان ؛ لقد
 أحست باقتناعها أن إدورد لا يزال حياً وأنها هي لا تزال وإياه في أجمل اتحاد .

الفصل التاسع

وافى الربيع أخيراً فاتناً جذلاً ، فأبصرت فيه أوتيلي نواياها : الزرع
 يحضرُ في البستان مزدهراً ، فى أنسب الوقت منعموراً بأزهار ؛ ووفرة من
 نبات ظل محتبساً ، بمِثْبَرٍ محكم التشييد مفروس ، قد صار فى الجو تحت
 الشمس منتعشاً ؛ وكل ما كان من همٍّ ومن عملٍ ، ما عاد من نصيب
 يغرى به أملٌ ، بل صار حقاً متاعاً موقناً بهجاً .

ومع هذا فكان عليها أن تعزى البستاني عن أنواع الاضطراب التي أحدثتها
لوسيانة في أزهار الأواني ، وعن ضياع التماثل في تيجان كثير من الشجيرات .
وقالت له إن هذا كله سيُصلح من شأنه عما قريب ؛ ولقد كان ذا شعور
عميق وفكرة صافية عن مهنته ، بحيث يتأثر بهذه التعازي . وكما أبعد
البستاني عن نفسه ما يصرفه عن ذوقه وميوله ، استمر السير الهادئ الذي
يتبعه النبات كيما يصل إلى كماله الثابت العابر . إن النبات يشبه أصحاب
الأنواء من بنى الإنسان الذين يمكن المرء أن يحصل منهم على كل شيء ،
إذا عاملهم وفق ما تقتضيه طبائعهم . وما من إنسان كالبستاني يُطلب منه
السهر بعين هادئة ، والانتباه الساكن المتصل من أجل عمل كل ما يلائم
في كل فصل وفي كل ساعة .

والرجل كان يملك هذه الصفات إلى أعلى درجة ؛ لهذا كان يلذ لأوتيلي
أن تشتغل معه . بيد أنه منذ زمان لم يعد بعدُ يستطيع أن يمارس موهبته
الخاصة بلذة وشغف . فهو إن كان يفهم جيداً كل ما يتصل بالبستان ذى
الثمار والمبقة ، وكل ما تتطلبه حديقة من الطراز العتيق (لأن هذا الجزء
أو ذاك يصلح أكثر من الآخر لهذا دون ذاك) ؛ وإن كان يحسن الإشراف
على بستان برتقال والعناية بالأبصال ذات الأزهار ، والقرنفل وآذان الضبع
إلى حد أنه يتيسر له أن يتحدى الطبيعة نفسها — فإن الأزهار العصرية
وأشجار الزينة الجديدة ظلت غريبة عنه بعض الشيء ؛ فإن ميدان علم
النبات ، وهو يتسع باستمرار ، والأسماء الغريبة التي كانت تطن وترن في
أذنيه كانت تحدث في نفسه نوعاً من الجزع والخوف . شاع الحزن في نفسه
ولاح له أن ما بدأه سادته في العام الماضي من أعمال كأنه إنفاق في غير طائل
وإسراف ، خصوصاً وقد رأى أن عدداً كبيراً من النباتات الثمينة لا يزال

ناقصاً ، حتى إنه لم يكن على وفاق كبير مع القاعين على المشابر لأنهم فيما يرى لم يكونوا يخدمونه بإخلاص ظاهر

هنالك ، وبعد محاولات عدة ، وضع تصميمًا شجعتهُ أوتيلي على الاستمرار فيه ، لأنه أقيم على أساس عودة إدورد ، الذي كان غيابه ، في هذه المسألة وفي كثير غيرها ، يزداد سوءً نتأججه يوماً بعد يوم .

وكما زادت جذورُ النباتات والأغصانُ ، ازداد شعور أوتيلي بارتباطها بهذا المكان . لقد مضى عام كامل على مجيئها إليه في هيئةٍ أجنبية غريبة ، وشخص لا قيمة له : لكن كم أحرزت منذ تلك اللحظة ! إنها لم تكن يوماً أكبر ثراء ولا أشد فقرًا منها في ذلك اليوم ؛ وتوات هذه العواطف في غير انقطاع ، وتجوّلت في فؤادها ؛ ولم تجد لها دواءً خيراً من الانكباب على واجبات اللحظة الحاضرة بكل شوق وحماسة .

أما أن الأشياء التي تشوق إدورد أكثر من غيرها كانت موضوع عنايتها ، فهذا من اليسور تصوُّره ؛ ولماذا لا تأمل في عودته عما قريب ، حتى إذا ما حضر استطاع أن يلاحظ ، شاكرًا ممتنًا ، ما أدته هي من خدمات خالصة نحو الغائب النازح ؟

ثم إنها بذلت نفسها لخدمته بطريقة أخرى كذلك . فقد أخذت على عاتقها العناية بالطفل ، خصوصاً أنه لم يُعطَ ظنُّراً ، كما تقرر تغذيته بلبن مخلوط بشيء من الماء . وشاءوا في هذا الفصل أن يجعلوه يستنشق الهواء الطلق الصافي ؛ فكان يلذ لها خصوصاً أن تحمله إلى خارج البيت وتترىض به ، وهو نائم لا يابه لكل ما يحيط به ، وسط النباتات ذوات الأزهار التي سيقدر لها يوماً أن تبسّم لطفولته ، وبين الشجيرات الغضة التي لاح أنها قدّر لها أن تنمو وإياه . وحينما كانت تجيل بصرها فيما

حواليها ، كانت تقدر جلال الشأن والغنى اللذين ولد فيهما هذا الطفل : فكل ما تبدى أمام نواظرها لا بد يوماً أن يدخل في حوزة ابن شرلوت . فكم كان مرغوباً فيه إذاً أن ينمو تحت عيني أبيه وأمه ، وأن يقوى اتحادهما وقد تجدد لحسن الحظ !

أحسّت أوتيلي بكلّ هذا على نحوٍ من الوضوح جعلها تتصور الأمر كأنه واقع ، ونسيت نفسها تماماً . وتحت هذه السماء الجميلة ، وعلى ضوء تلك الشمس الباهرة النور ، لاح لها واضحاً في الحال أن حبها لا بد له ، كما يبلغ الكمال ، من أن يتحلل من كل نظرة نفعية ، وفي بعض اللحظات كانت تعتقد أنها بلغت فعلاً تلك الأعالى . إنها لم تكن تأمل في غير سعادة صديقها ؛ واعتقدت أنها قادرة على العزوف عنه والزهد فيه ، بل وأن تفارقه إلى الأبد ، لوعرفت أنه سعيد . لكن عزمها قد انعقد تماماً على ألا تنتسب هي إلى أى فردٍ آخر .

وبذلت العناية اللازمة كيما يكون الخريف رائعاً روعة الربيع . فكل أزهار الصيف ، وكل تلك التي تنمو بدون توقف إبان الخريف ، وتزكو تماماً عند اقتراب زمان الصقيع ، والأسطير من كل الألوان ، كلها قد بُذرت بوفرة وغزارة ، ثم نقلت إلى كل موضع ، فثلت على الأرض كأنها سماء مزينة بأبهى النجوم .

من يوميات أوتيلي

يلد لنا أن نسجل في يومياتنا فكرة جيدة قرأناها ، أو كلمة بارزة سمعناها ، بيد أننا لو عينا أيضاً بتدوين الملاحظات الخاصة ، والنظرات الطريفة والكلمات الحاذقة التي نجدها متناثرة في رسائل أصدقائنا ، لوفعلنا

هذا لصرانا أترىء بعد حين . إننا لنحتفظ أحيانا برسائل لا نقرأها من بعدُ أبداً ؛ ثم نغزُّها أخيراً من باب الاحتياط ؛ وعلى هذا النحو يذهب إلى غير رجعة — بالنسبة إلينا وإلى الآخرين — أجل صفحة حياةٍ وألصقتها بأعماق النفس . لذا أقترح لإصلاح هذا الإهمال .

أهكذا أيضاً قدر لنا أن نرى العام يستأنف تاريخه مرة أخرى ! وها نحن أولاء ، بحمد الله ، قد عُدنَا إلى أجل فصل فيه . والبنفسج وزنبق الوادى هما بالنسبة إليه كالصورة الأمامية أو التوشية الاستهلالية . وإننا لنشعر بإحساس لذيذ حينما نراها من جديد ، ونحن نفتتح كتاب الحياة .

إننا لنزجر الفقراء ، خصوصاً الأطفال منهم ، الذين يتجولون ويتسولون على طول الطريق : أفلا نلاحظ أنهم يعملون ، حالما يكون هناك مجال للعمل ؟ لا تكاد الطبيعة تَفُضُّ كنوزها الجميلة ، حتى يُقبل الأطفال ليجعلوا منها صناعة : فلا يتسول أحدٌ بعد ؛ ويقدم كلٌّ منهم إليك باقة . لقد اقتطفها هو نفسه قبل استيقاظ الآخرين ، ويبسم لك طالبُ الإحسان كما تبسم الهدية التي يقدمها إليك . لا يتقدم وفي وجهه المسكنة من يشعر بأن له حقاً في السؤال .

لماذا يكون العام حيناً قصيراً وآخر طويلاً ؟ لماذا بلوح هكذا قصيراً وطويلاً في الذكرى ؟ هكذا تبدى لى العام الماضى : ولم أتاثر فى أى مكان قدر ما تأثرت فى البستان من رؤية الفانى والخالد مترابطين . ومع هذا فلا عابر مهما يكن يمر دون أن يترك أثراً ، دون أن يخلف عِدْله ونظيره .

فى الشتاء أيضاً نوع من السحر . إذ يخيل إلينا أننا نفرّج عن نفوسنا

ونعتمد بها بحرية أكبر ، حينما يمتد نظرنا خلال الأشجار المعرّاة . إنها قد صارت نوعاً من العدم ، لكنها أيضاً لا تخفى شيئاً . أما حين تظهر البراعم والأزهار ، فإن المرء لا يصبر على رؤية الأوراق تركو ، والمنظر يتخذ كامل كيانه ، والشجرة صورةً تقف دوننا .

كل ما هو كامل في نوعه يجب أن يتسامى إلى ما فوق هذا النوع ، يجب أن يصير شيئاً مغايراً لا عدل له ولا مثيل . إن البلب في بعض أهاريجه لا يزال طائراً ، ثم لا يلبث أن يرتفع فوق صنفه ، ويلوح كأنما يريد أن يرى جميع سكان الهواء ما هو الغناء حقاً .

إن الحياة بلا حب ، بالقرب من المحبوب ، ليست إلا مسرحية هزلية متنافرة الفصول رديئة ، يُفْتَح الواحد منها بعد الآخر ، ويُفْلَق ليُنْتَقَل إلى التالي . فكل ما يحدث من سعيد وخطير ضعيف الوشيجة موهون الرابطة . ويجب دائماً البدء بالبداية ، ويود المرء دائماً أن يبلغ النهاية .

الفصل العاشر

اطمأنت بشرلوت الحال وأُنْحِتْ مسرورة البال ، تجد نعيمها في الطفل المرير الوسيم الذي كان يحياه المليء بالآمال شغلاً شاغلاً لعينها وفؤادها . فعن طريقه دخلت في صلات جديدة مع الدنيا ومع امتلاك الثروات ؛ فتنبه نشاطها القديم ؛ وأينما تولت بعينها ، رأت أن الكثير قد أنجز في العام الماضي ، فاغتبطت لتمام . وكانت تصعد ، متأثرة بشعور خاص ، إلى كوخ الطحلب مع أوتيلي والطفل ، وحينما تضمه على النضدة الصغيرة ، وكأنها

مذبح منزلى ، كانت ترى أن ثمت مكانين خاليين ؛ فتطوف بها ذكرى الماضي ، وترث أمامها وأمام أوتيللى آمال جديدة .

ولعل الفتيات إذ يلقين عادةً نظرات خفريات إلى هذا الشاب أو ذاك ، متسائلات سرّاً عما إذ كنَّ يأملن فيه كزوج ؛ أما الرجل الذى يعنى بأمر ابنته أو من يلى أمرها فيمتد ببصره إلى آفاق أبعد . وهذا هو أيضاً ما حدث فى تلك اللحظة لشرلوت ، التى لم تستحيلاً أن تربط بين ابنة أختها والكاتب ، وقد رأتهما جالسين الواحد إلى جوار الآخر فى هذا الكوخ . ولم تكن تجهل أن الأمل فى الظفر بزواجٍ موفق قد تبدد وانقضى .

وتابعت شرلوت نزهتها . وكانت أوتيللى تحمل الطفل ، بينما انساقت البارونة وراء أحلامها وتأملاتها . إن للأرض اليابسة أيضاً أنواعاً من الفرق خاصة : ومن الجميل المحمود أن ينجو الإنسان بأمرع ما يمكن . وعلى كل حال فليست الحياة إلا سلسلة من المكاسب والخسائر . ومن لم يضع تصميماً ولم يره نهباً للاضطراب والفقدان ! وكفى مرة لا نتخذ طريقاً ثم نُصرف عنه ! كم مرة أرغنا إلى بلوغ غاية أسمى ، فشغلنا عن تلك التى تعهدناها بعميونا ؟ إن المسافر يرى — والأسف عملاً نفسه — إحدى عجلاته قد تحطمت ؛ وعن طريق هذا الحادث السار يتفق له أن يظفر بمعارف وصالات ما أسعدها وما أشد أثرها فى حياته كلها . إن القدر يحقق أمانينا ، لكن على طريقته الخاصة ، كما يستطع أن يعطينا أشياء فوق أمانينا .

وسط هذه الخواطر وما إليها بلغت شرلوت الأعلى عند البناء الجديد ، هنالك تأيدت هذه الخواطر كلها أبلغ تأييد : فالمنطقة المجاورة كانت أجمل مما يظن ؛ وكل ما كان من شأنه إفساد الأثر ، وكل الأشياء الصغيرة كانت بعيدة ؛ وجمال الريف كله ، وما أحدثته الطبيعة وأجراه الزمان تبدى

في كل صفائه وأعشى الميون ؛ والمفارس الفتية التي قصد بها إلى إكمال ما تعرى وضم الأجزاء المختلفة علتها الحضرة وتملكتها النضرة .

وكان البيت نفسه صالحاً للسكنى ؛ والمنظر الذي يشرف عليه ، خصوصاً من الطوابق العليا ، متعدد الألوان إلى أبعد حد . وكلما اتجه البصر حوله ، اكتشف مفاتن جديدة . وكمن آثار بديعة لا بد أن تحدثها هنا ساعات النهار المختلفة والنور والقمر والشمس ! كل ما فيه يوحى بالرغبة في سكناه ؛ فاستيقظت في قلب شرلوت الرغبة في البناء والإنشاء ، وقد رأت كل الأعمال الرئيسية قد كملت . نجار ، صاحب أبسطة ، رسام يحسن العمل وفقاً للنماذج ووضع صبغة خفيفة : هذا كل ما كان مطلوباً ، كما يكون المنزل مهيئاً في وقت قليل . وأصلح السرداب والمطبخ توأ : لأن البعد عن القصر القديم يحتم جمع كل الأشياء الضرورية في المنزل . وجلست السيدتان والطفل على الرابية ؛ ومن هذا المسكن تجلت أمامهما مواضع للنزهات غير منتظرة ، وكأنهما بإزاء قاعدة للنظر جديدة ؛ وفي الجِواء الجميلة يتمتعان في رفقٍ من هذا الموضع العالي بهواء أكبر إنعاشاً ولطفاً .

والنزهة المحبوبة عند أوتيلي — وحدها ، أو مع الطفل ، — كانت أن تهبط إلى الدُّلَب بواسطة شِعْب مريح يفضى من بعد إلى النقطة التي يرسو عندها أحد زوارق العبور . وكان يلذ لها أحياناً أن تترىض فوق الماء ، لكن بدون الطفل ، لأن شرلوت أبدت بعض المخاوف من هذه الناحية ؛ غير أن أوتيلي لم تتخلف عن زيارة البستان كل يومٍ في حديقة القصر ، وأن تشارك — بحرص لطيف — في عنايته بتلاميزه ، هذه النباتات العديدة التي تحيا الآن في الهواء الطلق .

وخلال هذا الفصل الجميل ظفرت شرلوت بزيارة موفقة كل التوفيق

من جانب إنجليزي عرف إدورد إبان رحلاته ، والتقى به عدة مرات ، وتمنى رؤية الناظر الجميلة التي أشيد بها أمامه كثيراً . وكان يحمل رسالة توصية من الكونت ، وقدم رجلاً هادئاً كل الهدوء ، لكنه لطيف المعاشرة جداً ، بوصفه رفيقه في السفر والطريق . وتجوّل في المنطقة المجاورة ، أحياناً بصحبة السيدتين ، وأخرى مع البستانيين والقناصين ، ومراراً عدة مع صديقه المرافق ، وبعض الأحيان وحيداً ، وكانت له ملاحظات تدل على أنه خبير بهذه الأعمال والمنشآت وهاو لها . وهو نفسه قد أمر بالقيام بكثير من نوعها في أراضيه . وكان متقدماً في السن ، ومع هذا فقد كان يشارك مشاركة طيبة في كل ما يزيد في جمال الحياة ويُضفي عليها بهجة التشويق . وفي صحبته نعمت السيدتان أخيراً بكل ما تحتويه المنطقة المجاورة . إذ كانت عينه المتمرنة تدرك كل الآثار ، وكانت لهذه المبدعات في عينه لذة أكبر لأنه لم ير الإقليم من قبل ، ولم يكن يعرف كيف يميز بين ما كان من صنع الطبيعة وما أضافوه هم إليها .

ويمكن أن يقال إن ملاحظاته الفضل في توسيع البستان وإغنائه . فقد كان يعرف مقدماً ما عسى أن تَعِدَ به الأغراس الناشئة . ولم ينس أنه بقعة يمكن أن تضاف إليها فتنة جديدة أو تحظى بجمال خاص . فكان يلفت النظر إلى ينبوع ، هنا ، يبشّر حيناً يطهر بأن يصير زينة لشطر كبير من الغابة ؛ وإلى كهف ، هناك ، لو أزيلت عنه الأنقاض ووُسِّع لكان مقاماً مريحاً فاتناً : ويكفي اقتلاع بضعة أشجار لرؤية كتل هائلة من الصخر تتبدى هناك . وهنأ السادة على أنه لا يزال أمامهم الكثير ليعملوه ، وأوصاهم بعدم المجلة ، والاحتفاظ بلذة الترتيب والإنشاء للسنوات التالية .

يضاف إلى هذا أنه لم يكن ليشغلهم كثيراً أو قليلاً — فيما عدا الساعات التي تقضى في الاجتماع سوياً ، لأنه سُغِلَ ، النهار كله تقريباً ، برسم الأوضاع الجميلة للبستان في غرفة مظلمة تحمل في اليد ، جامعاً بهذا — لنفسه وللآخرين — ثماراً لرحلاته جميلة . وكانت عنايته بهذه الناحية منذ عدة سنوات في كل الأماكن الرائعة التي زارها ، وعلى هذا النحو ظفر بمجموعة بالغة الحُسن والتشويق . وأرى السيدتين حافظه أوراق كبيرة كان يحملها معه دائماً ؛ وأثار شوقهم إما بالرسومات أو بالشرح والتفسيرات . ولذ لها أن يجتبا العالم هكذا برفق وسهولة وهما قابعتان في وُحدثهما ، وأن يريا الشواطئ والمرافئ والجبال والبحيرات والأنهار والمدن ، والقصور والكثير غيرها من الأماكن التي تحمل اسماً في التاريخ وهي تمر أمام نواظرهما .

ولكل من السيدتين في هذا لذةٌ مختلفة عن لذة الأخرى : فشرلوت كانت تتعلق خصوصاً بما هو عام ، بالأماكن ذات الذكرى والصيت ؛ أما أوتيلي فكانت تفضل البلاد التي أكثر لإدورد من الحديث عنها ، أو أقام بها سعيداً ، أو تردد عليها مراراً . فلكل لإنسان أقاليم — غريبة أو نائية — تجتذبه وتلائم مزاجه الخاص ، بسبب الأثر الأول الذي كان لها في نفسه أو بسبب بعض الظروف والملابسات ، أو بحكم العادة وطول الإلف .

وأفضى هذا بأوتيلي إلى سؤال اللورد عن أى الأماكن أحب إليه ، وأيها يود أن يستقر به لو كان له الاختيار . هنالك أشار إلى كثير من الأقاليم الجميلة ، وقصَّ عليها بطريقة رقيقة عذبه ، في فرنسية غريبة النبرة ، ما جرى له في كل منها وجعلها حبيبة إلى فؤادها .

لكنه حينما سُئِلَ عن المكان الذى يكثر المكث به عادة ،
والذى يود التردد إليه كثيراً ، أجاب بصراحة كاملة وعلى نحوٍ أثار
دهشة السيدتين :

تعودتُ الشعور بأننى فى بيتى فى كل مكانٍ أُحِلُّ به ؛ وبالجملة يلذ لى أن
يبنى الآخرون ويفرسون ويقومون بشئون المنزل من أجلي . ولست
مستشعراً رغبة فى العود إلى أملاكى الخاصة ، لأسباب سياسية ، ثم خصوصاً
لأن ابنى الذى عملت من أجله كلَّ شئٍ وهيات له كل أمره وقدرت أن
أورثه كل شئ ، لا يجد لذة فى أى شئ من هذا ، وقد ارتحل إلى بلاد
الهند ، شأنه شأن كثيرين غيره ، كيما يستخدم مواهبه وحياته على نحوٍ
أحسن أو يبددها ويُفنيها .

« الحق أننا نقوم بكثير من الاستعدادات للحياة . فبدلاً من أن نرضى
بمركز متواضع ، نطمح فى الكثير كيما نزيد فى متاعبنا . فمن ذا الذى ينعم
الآن بمنشأتى وبستانى وحدائقى ؟ لست أنا الذى أنعم ، وليس أهلى وحدهم .
إنهم الضيوف الغرباء والشغوفون بالاستطلاع والرحالة القَلِقون .

« بل بالرغم من وجود الكثير من الموارد ، لانشرع مطلقاً بأننا
مرتاحون إلا نصف ارتياح ، خصوصاً فى الريف ، حيث يعوزنا الكثير
مما تعودناه فى المدينة . فالكتاب الذى نحتاج إليه أكبر احتياج لانجده
فى متناول أيدينا ، وما هو ألزم إلينا ينسى ويُغفل . وإنا لنهياً دائماً
للانتقال من جديد ، وإذا لم يكن هذا من أثر إرادتنا وهوانا ، فإنه نتيجة
صِلاتنا وعواطفنا ، والأحداث والضرورة ، وليت شعرى أى شئ
آخر أيضاً ! »

ولم يقدر اللورد ما لحديثه هذا من أثر عميق فى نفوس السيدتين . وكَم

من مرة يتعرض المرء لهذا الخطر ، حينما يستسلم لخواطر عامة ، حتى في جماعة يعرف المرء علاقتها ! ولم يكن جديداً على شرلوت أن ترى نفسها قد جُرِحَتْ هكذا عرضاً ، حتى من جانب أشخاص أصدقاء طبيي النفوس .

وفضلاً عن هذا فإن العالم قد انبسط بوضوح أمام عينها ، فلم تعد تشعر بأى ألم خاص ، حتى لو اضطرها أحدهم — إن طيشاً أو سهواً — إلى التوجه ببصرها تلك الناحية أو هذه مما يؤلمها من الأماكن . أما أوتيلي فكانت على العكس من هذا ، بحكم شبابها الفقير في التجربة ، تحدس أكثر مما ترى ، وكان من حقها ، بل من واجبها أن تصرف نظرها عن كل ما لا تريد ومالا يجب عليها أن تراه ، فارتعت بواسطة هذه الاعترافات في أسوأ حال ؛ إذ تمزق القناع الجميل بعنف أمامها ، ولاح لها أن كل ما تم حتى الآن فيما يتصل بالبيت وملحقاته ، والحديقة والبستان وما حوالها ، كل هذا كان عبثاً لا طائل تحته إطلاقاً ، لأن الشخص الذي ينتسب إليه هذا كله لا يتمتع به ، وكانت حاله كحال الضيف الموجود آنذاك بالقصر (اللورد) إذ اضطر بواسطة أهله وأقاربه ، وأعر أصدقائه ، أن يحيا في العالم حياة جوالة شاردة ، مليئة بالأخطار . لقد كان ديدنها أن تُصْنِي وتُسَكّت ، أما هذه المرة فقد استشعرت أبشع القلق وأشد الجزع ، مما زاد ضراوة وعرامة كلما أوغل الغريب (اللورد) في أحاديثه بهجة مستطرفة متحفظة .

قال : « أحسبني الآن في الطريق السوى » ، وأراني رحالة يعزف عن كثير من الأشياء لينعم بأخرى كثيرة . لقد اعتدت التغيير . بل صار حاجة عندي ، ومثل هذا مثل ما يحدث في الأوبرا حينما ينتظر المرء تزييناً ومناظر جديدة باستمرار ، لا لشيء إلا لأنه ظهر قبلها الكثير . إنى أعرف ماذا على أن أتوقمه من أحسن النزل ومن أسوأها . وسواء أكان جيداً

أم كريهاً ، فلست أجد عاداتي : وعلى كل حال فالنتيجة واحدة سواء أكان المرء أسير عادة ضرورية أو عبداً للصدفة ذات النزوات والأهواء . وأقل ما في الأمر أنني لا أستشعر الآن الحزن لرؤية هذا أو ذاك مفقوداً ، أو رؤية غرفتي المعتادة قد صارت غير قابلة للإقامة فيها بسبب الإصلاحات الضرورية ، أو مشاهدة فنجانى المألوف مكسوراً ، إلى حد أنى لا أجد لذة في غيره . لقد تخلصت من كل هذه المتاعب . فإن بدأ المسكن في الاحتراق من فوق رأسى ، حزم أتباعى حقائبي بهدوء ، وجلوونا عن المنزل والمدينة . وإلى جانب كل هذه الزايا ، فإننى إذا أجدت الحساب رأيتنى في نهاية العام لم أنفق أكثر مما لو كنت أفضل في منزلى الخاص .

في هذه اللوحة التى رسمها اللورد لم تر أوتيلى غير صورة إدورد ماثلة أمامها ؛ تبدى لها وسط المتاعب وألوان الحرمان ، وهو يجتأبُ الطرقات التى لم يسلكها إنسان ، وينام فوق العشب فى الريف المنبسط محوطاً بالأفكار والآلام ، وخلال هذه الأطوار والأقدار يعتاد العيش بدون مأوى ولا أصدقاء ، والحرمان من كل شيء ، من أجل ألا يفقد شيئاً . ولحسن الحظ أن الجمع الصغير قد انفض شمله حين : فوجدت الحرية لكى تبكى وحدها على انفراد . وما من ألم مستور أثر فيها بعنف كهذا الذى رآته ، واستزادته إيضاحاً ، بحكم العادة التى تلازمنا وتقضى علينا بأن نزيد فى تعذيب نفوسنا إذا ما سلكنا ذلك السبيل الرهيب . وتمثلت إدورد فى حال بائسة جدية بكل رثاء ، حتى إنها عقدت عزمها على أن تعمل كل شيء لإعادته إلى شلوت مهما كلفها هذا من ثمن ، وأن تخفى ألماً وغراماً فى أعماق كهف ما من الكهوف ، وأن تخدع هذه العواطف بواسطة حياة مليئة بالأعمال والأشغال .

بيد أن رفيق اللورد ، وهو رجل حكيم متزن جيد الملاحظة ، تنبه إلى غفلة صديقه ، وكشف له عن تشابه الموقفين . وكان اللورد يجهل الأسرة ؛ لكن صديقه الذى لم يكن يشوقه شيء قدر الأحداث الغريبة التى تنشأ عن العلاقات الطبيعية والصناعية ، والنزاع بين القانون والمصيان ، والروح والعقل ، والوجدان والأفكار السابقة المتواضع عملها — هذا الصديق قد استطلع الأمر من قبل ، وأحاط به خبراً بعد وصوله القصر ، فاستبطن كُنه كل ما حدث وما لا يزال جارياً .

فاغتم اللورد ، لكنه لم يضطرب ولم يَحْزَ . وإن من الواجب على المرء منا أن يعتصم بالصمت المطلق في المجتمع أحياناً ، كيلا يجد نفسه مرة في هذه الحال ؛ ذلك أن الملاحظات والأفكار التافهة شأنها شأن الملاحظات الهامة يمكن أن تؤدي إلى نشاز وتنافر مع مصلحة الأشخاص الحاضرين . « سنصلح الأمر هذا المساء ، هكذا قال اللورد ، وسنتجنب المسائل العامة والأقوال الكلية . فارو للجماعة بعضاً من النواذر العديدة والأقاصيص اللطيفة الشائقة ، التى أغنيت بها في رحلاتك حافظة أوراقك وذاكرتك » . ومع هذا ، وبالرغم من أطيّب النوايا ، لم يفلح الضيفان هذه المرة أيضاً في صرف عقول السيدات بواسطة حديث لا ينطوى على أية مكيدة . فبعد أن أثار رفيق السفر الانتباه والعطف إلى أبعد حد بواسطة الأخبار الغريبة والرائعة والمرحة والمؤثرة والرهيبية ، رأى من واجبه أن يختم قصّة بمناصرة غريبة فريدة حقاً ، لكنها ذات طابع أرق وأهدأ ، ولم يقدر إلى أى مدى تمس هذه الرواية سامعيه عن قُرب .

الجاران الصغيران العجيبان

(أُقصصة)

طفلان من عِلية القوم : غلام وفتاة ، كانا جارين ؛ وكان تقارب عمرهما يدعو إلى التفكير في الربط بينهما يوماً ما ، فتركَا بنموان سويًا في ظلال هذا الأمل الجميل ؛ ومن كلا الجانبين كان الأهل ناعمين بفكرة هذا الارتباط في المستقبل . بيد أنه لوحظ عما قليل أن هذا المشروع لا يحمل أى سيماء للنجاح ، لأنه حدث بين هاتين الطبيعتين المتمازتين نفور غريب . ولعل هذا أن يعود إلى وجود تشابه كبير فيما بينهما . وكان كلاهما منطويًا على نفسه ، يعرف جيداً ماذا يريد ، ثابتًا في نواياه ، مقدراً معزراً من لدات طفولته ، وكانا يتنازعان دائماً حينما يجتمعان معاً ، كل يبني نفسه ، ويهدم للآخر ما بناه حينما يتلاقيان ؛ ولم يكونا يتنافسان في السير نحو غرض ما ، لكنهما كانا دائماً يتنازعان حول الغرض الواحد ؛ وكلاهما طبع على الخير والمعروف لا يحمل لأحد حقداً ولا يضمّر له شراً ، اللهم إلا بالنسبة إلى بعضهما البعض .

وهذا الطبع الغريب تبدى أولاً في ألعابهما الطفولية ؛ ونما بتقدم السنين . ولما كان الأولاد يلعبون دائماً لعبة الحرب ، فينقسمون إلى معسكرات ويديرون المعارك ، فقد قامت الفتاة الصغيرة الشجاعة الأنوف على رأس جيش حارب ضد الآخر بعنف وعناد حتى إن الفريق الآخر كان لابد له من الفرار مسربلاً بالعار ، لولا أن العدو الخاص بالفتاة الصغيرة قد قاوم بكل شجاعة وبسالة حتى استطاع أخيراً أن يجردها من سلاحها

ويأخذها أسيرة . بيد أنها دافعت عن نفسها بجراحة ورباطة جأش ، حتى إن الفتى الصغير اضطر — كيما يحفظ عيونها ولا يجرح عدوته — إلى خلع رباط رقبته وربط يديها خلف ظهرها .

لم تغتفر له هذا أبداً ؛ بل دبرت له سراً أعمالاً ومحاولات ومكائد بلغت حدّاً جعل الأهل — وقد كانوا يلاحظون منذ زمان هذه العواطف الغريبة — يشتَبِرون ويقررون الفصل بين هاتين الطبيعتين غير المتوافقتين ، وأن يتخلوا عن أعذب أمانيهن .

وسرعان ما برّز الفتى في موقفه الجديد . فقد وفّق في كل دراساته ودعاه مُحامته وميوله إلى الانخراط في سلك الجندية . وأبنا وجد ، مُشْمِل بالحب والتقدير ؛ ولاح أن طبيعته الممتازة ما كانت لتعمل إلا من أجل لذة الآخرين وسعادتهم ؛ ودون ما شعور واضح ، كان سعيداً لأنه تخلص من الخصم الوحيد الذي وجهته الطبيعية ضده .

والفتاة من جانبها قد سلكت في الحياة سبيلاً جديدة . فتقدم السن والتربية — وأكثّر من هذا ، عاطفة لا ندرى لها اسماً — كل هذا قد جعلها تتجنب الألعاب العنيفة التي كانت تمارسها حتى ذلك الحين في جماعة الفتيان . وبالجملة لاح أن شيئاً ما يعوزها ؛ ولم يكن ثمت من حولها ما يستحق أن يستثير كراهيتها ؛ كما لم تجد أيضاً من يليق بغرامها .

ولكن فتى أكبر سنّاً من الجار — خصمها القديم — ، طيب الأعراق وافر الثراء ممتاز الصفات محبوب من الناس ، مرغوب من النساء — قد كرّس لها كل عواطفه . وكانت هذه أول مرة أحاطها فيها صديق عاشق بعواطفه واحترامه . فتملقها هذا التفضيل لها على كثير من الفتيات اللاتي يفقنها في التنشئة والمظهر ولهن ادعاءات أعرض . وأثر

في نفسها ما أبداه نحوها من اهتمام متصل بغير إقبال عليها ، ومن معونة صادقة في ظروف سيئة مختلفة ، ومساعدٍ لدى أهلها ، كانت على صراحتها هادئة لا تعبر إلا عن آمال ، لأن الفتاة كانت لا تزال في طراءة سِنِّها . ثم ساهمت العادةُ والصلات الصريحة التي أصبح معترفاً بها من الناس في جعلها تعقد عزمها . لقد كان يطلق عليها مراراً لقب الخطيبي حتى إنها انتهت بأن تعتقد في نفسها بأنها خطيبي حقاً ؛ ولم تفكر مطلقاً كما لم يفكر أحد في أنه كان لابد من امتحان جديد ، حينما تبادلت خاتم الخطبة مع من عُدد منذ زمان طويل زوجها المقبل .

كذلك لم يُعجّل بالسير الهادي الذي اتبعتهُ المسألة كلها بواسطة هذه الخطبة . بل أبقى الطرفان الأمور تسير على نفس المنوال ؛ وكانا سعيدين سوياً ، كما رغبا في التمتع بالفصل الجميل ، بوصفه ربيعاً سيستهل حياة أكثر جدّاً وهوماً .

وفي تلك الأثناء كان الغائب (الجارُّ) قد نُشئَ خير تنشئة ؛ فقد تقدمت به مواهبه في الفن الذي اختاره ، وأتى في إجازة لزيارة أهله . فلما صار من جديد في حضرة جارتِه الجميلة ، أصبحت ماملاته معها طبيعية جداً ، ومع هذا غريبة . إنها لم تُنمَّ في نفسها إبان الأيام الأخيرة إلا العواطف الرقيقة ، عواطف البنت والخطيبي ؛ وكانت على وفاق مع كل ما حولها ؛ واعتقدت أنها سعيدة ، وهي كانت كذلك على نحوٍ ما . لكنها وللمرة الأولى منذ عهد بعيد لقيت مقاومة من جديد . ولم يكن هذا شيئاً يستثير البُغض ، لأنها أصبحت غير قادرة على الكراهية ؛ بل إن تلك الكراهية الطفولية التي لم تكن في الواقع إلا اعترافاً بالفضل غامضاً ، قد تجلت منذ الآن على هيئة دهشة سارة ، ونأمل عطف ، وتسامح ودّي ،

وتقابل وتوفيق نصفه إرادى والآخر غير إرادى ، وهو مع هذا ضرورى . وكل هذا بالتبادل . وأدى الفراق الطويل إلى حديث طويل . وها هما وقد صارا عاقلين يجدان موضوعاً للمزاح فى ذكرى حماقات الطفولة : ولاح أنهما يريدان على الأقل أن يتناسيا تلك العداوة الماكرة بواسطة حسن المعاملة وطيبها ؛ وكأنه قد صار من واجبهما أن يعترفا صراحة بفضل أنكره من قبل بإصرار وعناد .

ومن جانب الشاب ، بقى كل شئ فى وضع مقبول معقول : فحاله وصلاته وآراؤه الطامحة كانت تشغله إلى حد أنه تلقى دون تأثرٍ شواهد الصداقة من جانب الخطيب الجميلة ، كأنها تسلية لذيدة كان عليه أن يتأثرها دون عود على نفسه ودون أن يحسد الخطيب على خطيباه ، وقد كان وهذا الخطيب على أتم وفاق .

أما لديها ، فقد جرت الأمور على نحو آخر . لقد اعتقدت أنها تستيقظ من حلم . ولقد كان صراعها مع جارها الفتى وجدانها الأول ، ولم يكن هذا الصراع العنيف فى جوهره — على هيئة مقاومة — إلا ميلا إليه عنيفاً يمكن أن يقال إنه فطرى مغروز فى طبيعتها . ولم تقل لها ذكرياتها شيئاً آخر إلا أنها كانت تحبه دائماً . وتبسمت لتلك التحديات التى كانت توجهها إليه وسلاحها فى يدها ؛ وزعمت أنها تذكر أنها استشعرت أجمل عاطفة حينما جرّدها من سلاحها ؛ وخيّل إليها أنها أحست بأكبر متعة حينما قيدها بالوثاق ، وكل ما فعله لإغضاها وإيذاها لم يبدُ لها إلا كوسيلة بريئة لجذب اهتمامها إليه . ولعنت تلك القطيعة التى وقعت بينهما ؛ وناحت شاكية من الرقاد الذى تردّت فيه ؛ وأبغضت العادة الرخيّة الخداعة التى استطاعت أن تفرض عليها خطيباً غريباً من الفضل والناقب . أجل ، لقد

وجدت نفسها قد تغيّرت ، تغيّراً مضاعفاً ، قد عادت إلى حالها القديم ، أو صارت خَلْقاً آخر ، على أى نحوه شاء المرء أن يسمى ما حدث لها .

ولو استطاع إنسان أن يكشف عن عواطفها ، التى أبقت عليها مستورة تماماً ، واشتور معها بشأنها ، لما لامها وعرض لها بالنكير : لأنه لو رأى الشاين الواحد بجوار الآخر لأدرك أن الخطيب ليس من أكفاء الجار ولا يُدرك للجار شأواً . فإن كان المرء يستطيع إلى حد ما أن يثق بالواحد (الخطيب) بمضى الثقة ، فإن الآخر (الجار) يوحى إليه بكامل الثقة والامترسال ؛ وإذا كانت محبة أحدهما مقبولة ، فالآخر يأمل الإنسان فى صداقته وملازمته ؛ وإذا أفكر المرء فى تعاطف من طراز أعلى وعواطف خارقة ، فإن أحدهما لعله أن يثير بمضى الشكوك ، أما الآخر فالمرء يسلم إليه كل زمام نفسه .

وإن للنساء لإحساساً مرفهاً طبيعياً بهذه الأمور ، ولديهن الفرص لممارستها . ولما كانت الخطيبي الجميلة تغذى هذه العواطف فى أعماق سرّها ، ولم يكن أحد يجيد مجالا ليصور لها ما يمكن أن يقال فى صالح الخطيب وما يبدو أن القواعد الموضوعية والواجب يشير به ويحتّمه ، وما يلوح أن الضرورة اللازمة تصرّح بأنه لا مفر منه — لما كانت الحال على هذا النحو ، فإن ذلك القلب النبيل كان يزداد مناغة لأهوائه ومشاعره . ثم لما كانت هى قد ارتبطت بروابط لا تنفصم من جانب الناس والأسرة والخطيب وموافقها هى الخاصة ، بينما الشاب من ناحية أخرى ، وقد حلق وتجل ، لم يكتم عواطفه وآراءه ونواياه ؛ وتبدى للفتاة فى مظهر الأخ ، الأكثر إخلاصاً منه ورقة وحناناً ، وجرى الحديث حول رحيله الوشيك — فإن الروح التى شاعت فى الفتاة إبان طفولتها لاح أنها تستيقظ ، بكل حيلها ومكائدها وعنفها ، وتتأهب لكى تحدث ، فى دائرة أعلى شأنًا ، آثاراً أشد خطراً

وأبلغ إيداء . فقرر عزمها على الموت ، كيما تعاقب بعدم أكثراتها ذلك الذى أبغضته من قبل ، وهى اليوم تحبُّه بكل جوارحها . لأنها لا تستطيع الظفر به ، ولهذا أرادت على الأقل أن تشغل خياله وتدممه أبداً . إذ لن يكون فى وسعه أبداً أن يتخلص من شبحتها الرهيب ؛ وسينثنى على نفسه بأشنع الملام والتثريب الأبدى لأنه لم يعترف بمواطنها ولم يراعها ولم يقدرها حق قدرها .

وطاردها هذا الهذيانُ الغريب فى كل مكان ؛ فكانت تخفيه تحت صور لانهاية لها ؛ وعلى الرغم من أن الناس قد استرعتهم غرابتُها ، فإنه لم يكن ثمت أحد له من الانتباه والحصافة ما يسمح له باكتشاف العلة الحقيقية . بيد أن الأصدقاء والأهل والمعارف استنفدوا كل ما فى وسعهم لإقامة حفلات من كل نوع ، فلا يكاد يمرُّ يوم دون تنظيم مفاجأة جديدة ؛ ولم يكن ثمت مكان جميل فى الإقليم لم يُزيّن ويُهيأ لاستقبال حفل من الأصدقاء الجُذُلان . وأراد ضابطنا الشاب أن يقيم حفلة قبل رحيله ، فدعا الخطيبين مع عدد صغير من الأهل والأقارب إلى نزهة فوق الماء ، فركبوا زورقاً كبيراً جميلاً رائع الزينة ، من هذه اليخات ذوات البهو الصغير المحوط بالغُرَفِ والتي تهيبُ للراكبين على الماء مسرات البر .

ومضى الزورق فى النهر على صوت الأغاني ، والثانى ؛ وخلال القبط كان الجمع فى البهو يُسلى بالملاهى ، وبالألعاب حظوظ وذكاء . ولم يحتمل الداعى أن يظل متعطلاً فجلس ممسكاً مقبض الدفة ليحل محل الملاح المعجوز الراقِد إلى جواره ؛ وسرعان ما كان فى حاجة إلى استجباع كل فطنته ، لأنه اقترب من مكان تضيق فيه جزيرتان مجرى النهر بما لهما من شيطان واطئة كثيرة الحصباء تتقدم فى النهر ، مما يجمل المرور خِطراً . فلما

قَلِقَ الملاحُ بعينه الساهرة كان بسبيل إيقاظ الرُّبان ، لكنه تجاسر وقاد الزورق في الممرِّ الضيق . في تلك اللحظة ظهرت عدوته الجميلة فوق سَطْح الزورق مزينةً بتاج من الأزهار ، خلعتة وألقت به إلى الملاح الشاب (الجار) ، وصاحت :

« خذه تذكاراً ! »

— لا تشوشى على عملى ، هكذا قال لها وهو يأخذ التاج ؛ إننى فى حاجة إلى كل قواى وحشد كل انتباهى .

— لن أشوش عليك بعدُ ، هكذا أجابته ، فلن ترانى عوضُ .

وما تفوهت بهذه الكلمات حتى هُرِعت إلى جَوْجُو الزورق ، ومن فوقه قذفت بنفسها فى الأمواج . فارتفعت بعض الأصوات بالصراخ :

« أَنْقِذوها ! أَنْقِذوها ! إنها تَفَرِّقُ » .

فكان فى أشنع حيرة . واستيقظ الملاح المجوز على هذه الجلبة ؛ وأراد أن يمسك بالدفة ، وأراد الشاب أن يُسَلِّمَهَا إليه ، لكن لم يكن لـديهما وقت لهذا التبادل : ففرق الزورق ، وفى الحال خلع الضابط ملابسه المضايقة وألقى بنفسه فى النهر .

الماء عنصرٌ مؤاتٍ لمن يَعرفه ويعلم كيف يسوسه . لقد حمل السَّبَّاح الماهر الذى عرف كيف يُخَضِّعه ، وسرعان ما بلغ الجميلة المحمولة أمامه ، وأمسك بها ، واستطاع أن ينتشلها ويحملها . وفى البدء جرفهما التيار سويًا بمنفٍ ، وأخيرًا تركا الجزر والرمال بعيدة من خلفهما ؛ وبدأ النهر فى مجراه الواسع يسير برفق وهدوء . هنالك استعاد الضابط الشاب ثقته وأفاق من اضطرابه الأول الذى كان فيه يعمل من غير تفكير ، بطريقة آلية خالصة . رفع رأسه ، ونظر حواليه وسبحَ بكل قواه نحو ساحل مستوٍ ظليل يفنى

برقة في النهر ويبدو سهل المدخل . وإلى هناك حمل غنيمته الثمينة إلى البر .
لكن الفتاة لم تبدُ عليها أية علامة على الحياة . وكان قد استولى عليه القنوط
حينما أبصر طريقاً يسير خلال الشجيرات . فاستأنف حَمْلَ حِمْلِهِ العزيز ؛
وتبين بعد قليل مسكنا وحيداً ، فهُرع إليه . هناك كان يقطن أناس
طَيِّبُونَ ، كانوا زوجاً وزوجة . وسرعان ما تبين الشقاء والحنة
أمامهما . وما طلبه ، بعد تفكير قليل ، أجيب إليه . فأشعلت نار واضحة ؛
وَمُدَّتْ أُعْطِيَةَ من الصوف فوق الفراش ؛ وأحضرت سريعاً قطع من الجلد
والفراء وكل ما يعطى حرارة ؛ لقد تغلبت الرغبة في إنقاذ الفتاة على كل
اعتبار آخر . ولم يترك شيء لم يعمل من أجل إعادة الحياة إلى هذه الأعضاء
الجميلة التي كادت أن تتجمد . وأفلحوا في هذا . ففتحت عينها ؛ ورأت
صديقها ، وأحاطته بذراعيها الفاتنتين ، وظلت على تلك الحال طويلاً . وسال
فيض من السمبرات أَسْمَ شفاءها .

« أتريد تركي ، هكذا صاحت ، الآن وقد وجدتكِ ؟

— أبدأ ، أبدأ ، هكذا صاح دون أن يدري ماذا يقول وماذا يفعل .
لكن خَفِّضِي عن نفسك ، خَفِّضِي عنها من أجلنا سوياً .

هنالك استعادت نفسها وأدركت حالها . ولم يكن في سماعها أن تشمر
بأى اضطراب أمام عيني عاشقها ومنجِّيها ، بيد أنها عُنِيَتْ بإبعاده ، كيما
يفرُّغ للعناية بنفسه : لأن ثيابه كانت تنضج بالماء .

واشتور الزوجان : قدم الزوج إلى الشاب ، والزوجة إلى الفتاة ثياب
العرس التي كانت معلقة كلها ، وقد كانت كافية للإلباس زوجين من أعلى
الرأس حتى القدم . وفي قليل من اللحظات كان الفريقان لا مَكْسِيَّين
خسب ، بل ومزَيَّنَّين أيضاً . أجل لقد تسربلا بالفتنة والجمال ، ونظر كل

إلى الآخر في اندهاش حينما تاب كلاهما إلى كامل رشده ، ثم ارتعى في أحضان الآخر بحماسة وحرارة ، دون أن يكتما ضحكهما من هذا اللباس الذى يرتديانه . لقد شَفَتْها قوة الشباب وعَرامة الحب فى لحظات ؛ ولو كانت لديهما موسيقى ، كَرَقصا .

من الماء إلى الأرض ، ومن الموت إلى الحياة ، ومن أحضان الأسرة إلى صحراء ، ومن اليأس إلى أعلى وَجْد ، ومن عدم الاكتراث إلى الحب والوجدان ، أى انتقال سريع مفاجئ ! . . . وأية رأس تكفى لهذا دون أن تتحطم أو تضطرب ! إنه من شأن القلب وحده أن يجعل مثل هذه المفاجأة مقبولة محتملة .

ولما فى كل منهما فى الآخر لم يستطيما التفكير — إلا بعد مدة طويلة — فى قلق وجزع هؤلاء الذين خلفاهم وراءهما ، ولم يقدرأ أيضاً على التفكير — دون قلق ولا بلبال — فى الطريقة التى سيظهران عليها أمامهم .
« أيجب علينا الفرار ، أم يخلق بنا الاختفاء ؟ هكذا قال الشاب .
— « سنبقى ممّا » ، هكذا قالت وهى ترتعى ممسكةً بجيبه .

والفلاح الذى علم منهما بأمر الزورق الغارق هُرع إلى الماء دون أن يطلب مزيداً من سؤال . ونزل المركب وجرى باسم الله ، وكان من العسير تخليصه . وتقدم القوم على غير هدى ، أملاً فى اقتقاد الشاين المفقودين (الشاب والفتاة) . وحينما استطاع ضيفهم أن يَلْفِتَ اهتمامهم بصيحاته هُرع إلى مكان سهل المدخل ، ولما كان لم يتوقف عن النداء والإشارة ، وإشاراته ، فقد أتجه الزورق ناحية الشاطئ . أى منظر كان حينما رَسَوْا ! اندفع أهل الزوجين المُقبلين أول من اندفع إلى الشاطئ . وكاد الحَطيّيب العاشق أن يفقد وعيه . ولم يكد القوم يعلمون أن

الولدين العزيزين قد نَجَسُوا حتى خرجا من الخيمة في ثيابهم الغريبة . ولم يمكن تبئسهما إلا حينما اقتربا كل القرب . « من نرى ؟ » ، هكذا صاحت الأمهات . « ماذا نرى » ، هكذا صاح الآباء . وارتمى الشاب والفتاة الناجيان من الموج تحت أقدامهم .

« أنتم ترون ولديكما ! هكذا صاحا ؛ أنتم ترون زوجين !

— غفراناً ! غفراناً ! هكذا صاحت الفتاة .

— امنحونا بركتكم ، هكذا قال الشاب .

— امنحونا بركتكم ، هكذا قالاً معاً ، بينما بقي الجمع صامتاً من

الدهشة والذهول .

— بركتكم ! » هكذا صاحاً للمرة الثالثة .

ومن كان في وسعه أن يرفضها لهم ؟

الفصل الحادى عشر

وتوقف الراوى ، أو بالأحرى أتمَّ قَصَّه ، حينما أدرك أن شرلوت قد غلبها التأثير الشديد . فنهضت وخرجت ، معتذرةً بتحية صامتة . ذلك أن القصة كانت معروفةً لها . لقد كانت قصة الكابتن وجارقه له . ولم يكن الحادث قد جرى تماماً على النحو الذى رواه عليه الإنجليزى ، لكنه كان صحيحاً فى مجموعه : وكل ما حدث من تغيير هو أنه رُتِّب وزُين فى تفاصيله كما يحدث لهذه الأقاصيص حينما تفتقل من فم إلى فم ، ثم فى خيال القاصِّ ذى الذوق والروح . فيبقى كل شيء ولا يبقى شيء .

وتبعت أوتيلى شرلوت ، وكان هذا دور اللورد هذه المرة لكى ينبّه

إلى ارتكاب حماقة من جديد ، برواية حادث معروف للأسرة ، بل ويعنيها .
«لنأخذُ حذرنا — هكذا تابع حديثه — خوفاً من إحدَث شر
أكبر . ففي مقابل كل المزايا والملاذات التي ننعم بها هنا ، يلوح لى أننا نهيئُ
القليل من السرور لسيدات القصر . فلنسع لوداعهم بطريقة مناسبة .

فأجاب الرفيق : يجب أن أعترف بأن لدى سيباً خاصاً للتوقف هنا ،
وأنى سأكون مُغضباً إذا فارقت هذا البيت دون أن أنين جليلة الأمر
وأتوضَّحها . بالأمس ، ياسيدى اللورد ، حينما تجولنا فى البستان ومعنا
الغرفة المظلمة ، كنت مشغولاً بالحصول على وجهة نظر فائتة ، للملاحظة
ما يجرى إلى جوارك . لقد ائتمدت عن المَخزَن الكبير ، كيما تقترب
من البحيرة عند مكان قليل المزار ، منه أبدى لك الشاطىء الآخرُ منظراً
بديعاً . وترددت أوتيلى — وكانت تتبعنا — فى اقتفائنا ، وطلبت أن تذهب
إليه فى زورق . فأبحرتُ معها ، وأُعجبتُ بمهارةِ المَلاحة الجميلة .
وأكَّدتُ لها أنه منذ مقامى بسويسرة ، حيث تقوم أجمل الفتيات بمهمة
المُعديَّات ، لم أهدِّد فى حياتى على الموج بمثل هذه اللذة ؛ لكنى لم
أستطع أن أقاوم رغبتي فى سؤالها عن السبب فى تقاديتها اجتياز هذا
المنعطف ؛ إذ كان فى رفضها نوع من الاضطراب وشىء من الجزع .
فأجابت بلطف : « إذا لم تُرِد أن تضحك منى ، فإن فى وسمى أن أسوق
لك بعض التفسير ، على الرغم من أن فى الأمر سرّاً بالنسبة إلى أنا نفسى .
لم أُمُرُ بهذا المنعطف يوماً إلا واستولت على قشعريرة غريبة ،
لا أستشعرها فى أى مكان آخر ولا أستطيع لها فهماً ولا تفسيراً : لهذا
أفضل ألا أعرض نفسى لمثل هذا التأثير ؛ خصوصاً أنى أحس بعدها فى
الجانب الأيسر من الرأس بألم ينتابنى أحياناً » . وبلغنا شاطىء البحيرة ،

وتحدثت أوتيلي إليك ، وفي تلك الأثناء زرتُ المكان الذى أشارت إليه بوضوح من بعيد . وكَم كانت دهشتى حينما اكتشفت فى هذا المكان علامات واضحة على وجود فحم الأرض ، مما اقنعنى بأنه بشئ قليل من الحفر يمكن العثور - على مدى من العمق ضئيل - على منجم وفير !

« اعذرنى ، سيدى اللورد ، إنى لأراك تبتسم ، وإنى لأعلم جيداً إنك تشاهد روح العاقل الصديق وتسامح ظاهراً حباً استطلاعى الحاد لهذه الأشياء التى لا تؤمن أنت بها أى إيمان ؛ لكن يستحيل على مغادرة هذا المكان ، دون أن أجرب على هذه الفتاة الجميلة ذبذبات الخَطَّار (البندول) » .

ولم يكد الحديث يتناول هذا الموضوع ، إلا وقد وجَّه اللورد اعتراضاته التى كان رفيقه يستمع إليها بصبر وتواضع ، مع إصراره مع هذا على رأيه ورغبانه . وقال بدوره إنه لا يخلق بالمرء أن ييأس بسبب عدم نجاح هذه المحاولات عند كل إنسان ؛ وإن هذا على العكس سبب لدراسة الأمر بطريقة أعمق وأكبر جيداً : لأنه من المقطوع به أن كثيراً من النسب والروابط بين الكائنات اللاعضوية بعضها وبعض ، وبينها وبين الكائنات العضوية ، وبين هذه وبين نفسها أيضاً ستُكتشف بعد أن ظلت مستورة عنا حتى الآن .

وها هو ذا قد بسط جهازه المكون من حلقات من الذهب ومن المرقشيثا وغيرها من المواد المعدنية التى كان يحملها معه دائماً فى صندوق لطيف ؛ ولإجراء التجربة ربط قطعاً من المعدن معلقةً بخيوط فوق معادن وضعت وضماً أفقياً .

وقال : « أنفاضى لك يا سيدى اللورد عن السرور الماكر الذى أقرأه

مرتبها على وجهك بسبب عدم ظهور أية حركة لدى ومن أجل نفسى .
ولهذا فليست عمليتي هذه إلا نوعاً من الذريعة : وحينما تعود السيدتان ،
سيشتاقان لمعرفة ما نحضره هناك من غرائب .

وعادت السيدتان . وفهمت شرلوت من أول وهلة حقيقة الأمر .
وقالت : « لقد سمعت عن هذه الأشياء ، دون أن أرى بعينى أى أثر ينتج .
فما دمت قد أعددت كل شئ أحسن إعداد ، فدعنى أحاول لعل أنجح
فى هذا » .

وأمسكت الخيط بيدها ، ولما كانت قد أخلصت نيتها فى التنفيذ فقد
أمسكته بثبات دون أدنى انفعال : لكن لم يشاهد أقل تذبذب . فدُعيت
أوتيلى من بعد إلى القيام بمحاولة . فأمسكت الخِطَار بهدوء أكبر ،
وبساطة وبراءة أظهر ، فوق المعادن : وفى الحال ، جُرِف الخِطَار وكأنه
فى دوامة ، وتبعاً لتغيير المعادن الموضوعة أسفله ، كان يدور حيناً من هذه
الجهة ، وأخرى من الجهة الثانية ، وآناً على هيئة دائرة أو قطع ناقص ،
أو كان يتذبذب على شكل خط مستقيم ، كما توقع الغريب (الرفيق) ، بل
وأبعد مما كان يتوقع ويخال .

ودُهش اللورد نفسه ؛ ولم يجد ما يعبر به عن سروره وحماسته
لصديقه ، وتوسل إلى أوتيلى باستمرار أن تُعيد التجارب وتُنوِّعها . فأراغت
هذا منه أوتيلى باللَّين ، لكنها فى النهاية رجته برفق أن يعفيها ، لأن
مَنْصَحها انتابها . فأكد لها ، وقد أدهشه الأمر بل وسَكَّره ، أكد لها
بكل حماسة أنه سيشفئها تماماً من هذه العِلَّة ، إذا رغبت فى الوثوق فى
علاجه . فترددت لحظة ؛ بيد أن شرلوت التى حدثت فى الحال حقيقة
الأمر ، رفضت هذا المرض المُحَسِّن ، لأنها لم تشأ أن تحتل فى محيطها

شيئاً أثار في نفسها دائماً المخاوف والبلبال .

وارتحل الغريبان ؛ وعلى الرغم من الأثر الغريب الذى تركاه ، فقد خَلَفَا وراءهما ألواناً من الأسف والرغبة في رؤيتهما مرة أخرى . وأفادت شرلوت من جمال الأيام والجو لإتمام زيارتها في الجيرة . وشق عليها إتمامها ، لأن الأقليم المحيط قد شهد لها بكثير من العطف والمحبة حتى ذلك الحين ، إماعن عاطفة صادقة ، أو متابعة للمادة الجارية . وفي القصر كان الغرباء يُميدون طرباً وانتشاءً حينما يرون الطفل ، وقد كان بالفعل خليقاً بأرق الحب وأجل العناية . لقد كان الناس يرون فيه ولدأً خليقاً بالإعجاب ، يروونه معجزة خارقة ؛ وكانوا يتأمون مسحورين قوامه وجمال تناسبه وقوته وصحته ، ومما زاد في إدهاشه تشابهه المزدوج الذى كان يتجلى يوماً بعد يوم . ففما يتصل بقسمات الوجه ومجموع الشكل ، كان الطفل دائماً أقرب إلى صورة الكابتن ؛ بينما كانت عيونه تقل تمايزاً من عيون أوتيلي يوماً بعد يوم .

وقاد أوتيلي هذا التشابه الفريد ، وأكثر منه هذه الغريزة النبيلة التى توحى للنسوة بعاطفة رقيقة نحو ابن الرجل العزيز ، حتى لو كان هذا الولد ابناً لامرأة أخرى ، قادهما هذا كله إلى أن تصبح بالنسبة إلى الوليد الناشئ أمّاً ، أو بالأحرى نوعاً من الأم . فإذا ابتعدت شرلوت ، كانت ابنة أختها وحدها مع الطفل والظئر . ونانّت ، وقد غارت على المخلوق الصغير الذى لاح أن سيدتها كرسَتْ له كل عطفها وحنانها ، قد ابتعدت عنه مُحَنَقَةً ، ومنذ زمان طويل عادت إلى أسرتها . فاستمرت أوتيلي تحمل الطفل إلى الهواء الطلق ، واعتادت أن تقوم وإياه بنزهات ترداد كل يوم طويلاً . وكانت تحمل معها زجاجة اللبن الصغيرة لتعطيه غذاءه عند الضرورة .

وما كانت تنسى إلا نادراً أن تأخذ معها كتاباً ، فكان منظرها وهي تقرأ وتترىض ، والطفل على ذراعها ، منظر « المُفِكِّرة » الجميلة ^(١) .

الفصل الثاني عشر

تحقق الغرض الرئيسى من الحملة ؛ فأخذ إدورد إجازة ، وقد كُـلـل بأوسمة الشرف . فغدا فى التوَّ إلى الضيعة الصغيرة حيث وجد أخباراً دقيقة عن أهله أمر باستطلاعها دون أن يعلموا . ولاح له معتكفُ الهادى هذا فى أبهى مظهر ، لأنه أُجـرِـت فى غيابه ووفقاً لأوامره عدة ترتيبات جديدة وإصلاحات وأعمال ، إلى حد أن الأغراس والملاحقات قد أعاضت بالزخارف الداخلية ويُسر المتع عما كان يعوز من سعة وأبهة .

وإدورد ، بعد أن عَوَّـدته المسالك المندفعة التى يسلكها الجندى على الأعمال الحاسمة ، اقترح أن ينفذ الآن ما أفكر فيه طويلاً من قبل . فبدأ بأن دعا الماچور إلى جواره . فكانت فرحة لقاء ما بعدها فرحة . فإن لصداقات الطفولة كما للقرابة هذه المزية وهى أن ألوان النزاع وسوء التفاهم لا يمكن مطلقاً أن تغير فيها تغييراً عميقاً ، وأن العلاقات القديمة تستأنف سيرها بعد قليل من الزمان .

أحسن البارون استقبال صديقه وسأله عن تفاصيل مركزه الجديد ، وعرف منه أن الحظ قد حقق كل أمانيه . ثم سأله ، فى شئ من الود لا يخلو من الزاح ، عما إذا لم يكن على وشك الارتباط بزواج سعيد . فأكد له الماچور انتقاء هذا بلهجة شاع فيها الجِد .

(١) لوحة مشهورة .

فتابع إدورد حديثه قائلاً : « ليس في وسمى وما أريد أن أخفي شيئاً ، بل على أن أكشف لك بلا أدنى تأخير عن مشاعري ومشروعاتي . إنك لتعرف وجداني الملتهب نحو أوتيلي ، وفهمت منذ زمان طويل أنه هو الذي دفعني إلى القيام بهذه الحملة . فما أنا بمنكر أني أردت بهذا أن أتخلص من حياة لم تكن لها بدونها أية قيمة في نظري ؛ لكن يجب على أن أعترف لك في الآن نفسه أنني لم أقو على الإقرار باليأس نهائياً . فإن السعادة معها كانت من الجمال والتشويق بحيث استحال على أن أزهد فيها زهداً كاملاً . وثبتت يقيني وإيماني الجذّاب ، بإمكان ظفري بأوتيلي ، كثير من المناسم والرواسم ، والمحابل والدلائل . فقد قذف بزجاجة ، نقش عليها رقانا ، في الهواء ، حينما وضعنا الحجر الأساسى ، فلم تنكسر ؛ وتلقاها أحدهم ، وعادت إلى يدي . فصِحتُ في هذا المكان المنعزل الذي أمضيتُ فيه الساعات الطوال فريسة للشك والقلق : « أريد أن أتخذ من نفسى علامة ، بدل الزجاجة ، كيما أعرف ما إذا كان ارتباطنا ممكناً أو غير ممكن . فارتحلت ، وسعيت إلى الموت ، لا كمجنون ولكن كإنسان يُرجى أن يعيش . وستكون الغاية التي أحارب من أجلها ؛ فهي التي آمل في كسبها والظفر بها وغزوها من خلف كل كتيبة معادية ، ووراء كل استحكام وسور ، وفي كل مكان مُحاصر . وسأعمل المعجزات ، مع الرغبة في أن أظل سليماً معافى ، آملاً في الظفر بأوتيلي ، لا في فقدانها » . وجهتني تلك العواطف ؛ وآزرتني خلال كل المخاطر ؛ لكنى مع هذا أجد نفسى الآن في مركز رجل بلغ هدفه وتغلب على كل العقبات ، ولم يبق شيء يعترضُ بعدُ طريقه . إن أوتيلي هي لى ، والفترة التي تفصل بين هذه الفكرة وبين تنفيذها أستطيع أن أعُدّها لا أهمية لها .

فأجاب الكاتب : إنك تمحو بقليل من الخطوط كل الاعتراضات التي يمكن بل يجب أن توجه إليك ، ومع هذا فلا مناص من تكرارها .
إني أدعك لنفسك تتذكر كل قيمة الروابط التي تجمع بينك وبين زوجك ،
وإنك لتدين لها ، كما تدين لنفسك أيضاً ، ألا تخدع نفسك عن واجبك في
هذا الشأن . وكيف أقدر على التفكير في أنك وُهِبْتَ طفلاً ، دون أن
أصرّح لك في الوقت نفسه بأنكما تنتسبان لبعضكما بعضاً إلى الأبد ، وأنكما ،
حبا في هذا الوليد ، مضطران إلى العيش سوياً ، كما تعملان معاً في وفاق
على تنشئته وإعداد مستقبله ؟

فاستأنف إدورد الحديث قائلاً : هذا من مجرد غرور الأهل : ظنهم أن
وجودهم ضروري كل هذه الضرورة لأولادهم . إن كل ما يحيا يجد العون
والغذاء ؛ وإذا كان الابن ، بعد وفاة أبيه وفاة مبكرة ، يقضى شبابه أقل
سهولة ومتمّة ، فإن هذا قد يفيد في ممارسة أساليب الحياة والاستعداد لها ،
علماً من أول الأمر أنه يجب أن يتعلم كيف يعامل الآخرين ، وهو الشيء
الذي يجب أن يتعلمه إن عاجلاً أو آجلاً . وفضلاً عن هذا فتلك ليست
المسألة : إذ نحن من الغنى بحيث يتيسر لنا تهيئة مستقبل عدة أبناء . وليس
من الواجب ولا من الإحسان أن نكدّس كل هذه الأموال على رأس
واحدة .

ولما كان الماچور بسبيل أن يصور لصديقه ، بكلمات قصار ، مناقب
شرلوت وصلتهما المخلصة الطويلة الأمد ، قاطعه إدورد صائحاً :

« لقد ارتكبنا حماقة ، هذا هو ما أتبينه جيداً . إن من يُرَد ، في سن
ما ، أن يحقق رغبات شبابه الأول وآماله ، يخطيء دائماً . ففي حياة
الإنسان يوجد لكل فترة مكونة من عشر سنوات سمادتها الخاصة بها ،

وأمانها ونواياها الخاصة . وبُهرراً لمن ألزمتها الظروف أو الأوهام أن يستبق أو يستأخر ! لقد ارتكبنا حماقة : فهل يجب أن يظل هذا الإثم رابضاً على حياتنا كلها ؟ أفيلزمنا ، بدافع وسواس لست أدريه ، أن نحصرم على أنفسنا ما لا تحرمه أخلاق العصر علينا ؟ كم من المسائل يرجع فيها الإنسان عن كل ما اقترفه وما فعله ؟ وهلا يكون هذا مسموحاً به ، خصوصاً حينما يتعلق الأمر بالكل ، لا بالتفاصيل ، حينما يتصل لا بهذه أو تلك من أحوال الوجود ، وإنما بالوجود كله وبأكله ؟ »

ولم يتوان الماچور عن أن يصور لصديقه ، بكل براعة وقوة معاً ، مختلف الاعتبارات الخاصة بزوجه ، وبالأمرتين ، وبالناس ، وبثروته ؛ لكنه لم يقلح في إحداث أى تأثير عليه .

« أى صديق ، هكذا استأنف إدورد حديثه ، كل هذه الحواطر والاعتبارات قد تمثلت لعقلي في غبار المعركة ، حينما كان إرصاد المدفعية يزلزل الأرض باستمرار ، والقذائف تدوى بين أذنى ، وإخوانى في السلاح يتهادون مجندلين عن يمين وشمال ، وحينما قتل جوادى من تحتى واخترقت الرصاصة قلنسوتى ؛ أجل ، لقد شغلتنى هذه الأفكار في الصمت بالقرب من نيران المعسكر ، وتحت قبة السماء المرصعة بالنجوم . هنالك استعرضت كل تمهداتى والتزاماتى ؛ وتأملت بها وأحسست بها أعمق الإحساس ؛ واستقر ذهنى عند رأى ، وأخذت أهبتي مرات عدة ، والآن استقر عزمى نهائياً . وفى تلك اللحظات (ولماذا أكتمك أمر هذا ؟) كنت أيضاً حاضراً في خاطرى ، وكنت جزءاً من أسرتى : أولسنا من عهد طويل كأخوين ؟ وإذا كنت يوماً مديناً لك بشيء ، فإننى الآن في مركز يسمح لى بالوفاء بدينى مع الربا ؛ وإذا كنت أنت مديناً لى بشيء ، فأنت في حال تهى لك

دفع دينك . أنا أعلم أنك تحب شرلوت : وهي خليفة بهذا الحب ؛ وأعلم أنها ليست غير مكترثة لك . ولماذا تنكر فضلك ومناقبك ؟ خذها من يدي ، وهات لي أوتيلي ، هنالك نصبح أسعد الناس .

— فقال الماچور : إنه بسبب إغرائك لي بهذه الهبة البالغة النفاسة ، بسبب هذا عينه يجب عليّ أنا أن أزيد في الاحتياط والثبات والإصرار . إن هذا العرض الذي أقابله بالصمت الموقر ، يزيد الأمر تعقيدا وصعوبة بدلا من أن يذله . إن الأمر لم يعد يتعلق بك وحدك ، بل وبى أيضاً ، ولا يتصل بالمصير وحده ، بل وبُسمعة رجلين وشرفهما ، وقد بقيا سليمين حتى الآن ، وهما بهذا العمل الغريب — إن لم نشأ أن نفعته بنعت آخر — يتعرضان لخطر الظهور أمام الناس بمظهر بالغ العجب والغرابة .

— ولهذا السبب عينه ، وهو أننا سليمان من كل لوم ، هكذا أجاب إدورد ، فإن لنا الحق في أن نعرض أنفسنا للوم مرة ما . إن من تجلّ طوال حياته كرجل شريف ليشرق عملا يمكن أن يبدو عند الآخرين مشوباً بالآثام . أما فيما يتعلق بى ، فإننى — وقد فرضت على نفسى ما فرضت من محن وخطوب ، وقت من أجل الآخرين بأعمال تنطوى على الإيلام والمخاطرة — أقول إننى أشعر بأن لى الحق في أن أعمل شيئاً أيضاً من أجل نفسى . أما فيما يعينيك ، أنت وشرلوت ، فالزمان سيقدر قراره ؛ لكن لا أنت ولا أى إنسان سيحملنى على العزوف عن مشروعى . فإن مد الناس إلى أيديهم ، كنت مستعداً لكل المساومات والتوفيقات ؛ وإن شأوا أن يتخلوا عنى لقوا وحدها أو أن يقفوا فى طريق تصميماتى ، فسيحملونى على السير إلى النهاية ، مهما كان الأمر » .

ورأى الماچور أن من واجبه أن يعارض أطول وقت ممكن فى مشروع

صديقه ، واحتمان لهذا بحيلة بارعة ، متظاهراً بالتسليم ، غير معارض إلا من حيث الشكل والإجراءات المؤدية إلى الطلاق وما يتلوه من زواج . فأظهر ما في هذا من متاعب ومصاعب ومثالب حتى إن إدورد بلغ منه الحنق كل مبلغ .

وأخيراً صاح : « إننى لأرى جيداً أن الظفر قهراً بما يرغب فيه الإنسان لا يتم بالنسبة إلى الأعداء وحدهم ، بل والأصدقاء أيضاً . فما أريده ، وما لا غنى لى عنه ، لا أصرف نظرى عنه ، وأعرف كيف استولى عليه ، فى التو والحال . أجل ، أنا أعلم أن مثل هذه العُقْد لا تنحل ولا تنعقد دون أن يرى المرء الكثير من الأشياء القائمة اليوم تنهار غداً ، ويتحطم أحياناً ما يود البقاء . وليس فى استطاعة التفكير أن ينتهى عند حد فى مثل هذه المسائل : فأمام العقل كل الحقوق متكافئة ، وفى الميزان الكفة الشائلة يمكن دائماً أن تحتل ثقلاً موازياً . صديق ! قرّرْ إذن أن تعمل من أجل نفسك ومن أجلى أنا ، بأن تحل هذه العُقْد لصالحك وصالح نفسك . فلتحلّها ولتعقدها من جديد . ولا يقفن فى سبيلك أى اعتبار . لقد جعلنا الناس يتحدثون عنا ، وسيستمرون فى هذا الحديث حيناً ثم ينسوننا ، شأن كل شئ يزول جدّته ؛ وأخيراً سيدعوننا نعمل ما نستطيع ، دون أن يحفلوا بنا » .

ولم تبق لدى الماچور اعتراضات بعدُ يوجهها إليه ؛ فكان عليه أن يقبل فى النهاية أن يعالج إدورد المسألة علاجاً نهائياً ، بحسبانها مفروغاً منها ، حينما ناقش بالتفصيل كل الإجراءات التى يجب اتّخاذها وتحدث عن المستقبل بكل هدوء ، بل وبلهجة فيها دغابة ومزاح . بيد أن البارون اتّخذ مظهر الجد والتفكير وتابع الحديث على هذا النحو :

لو رُمنا أن نُسَلِّم أنفسنا للأمل ، والاقتناع بأن كل شيء سياتر من تلقاء ذاته ، وأن الصدفة ستقودنا وتكون في عوننا ، فسنكون عندئذ فريسة لوهمهم آثم . فإننا إن سلكنا هذا السبيل لم نستطع مطلقاً إنقاذ أنفسنا ولا إعادة الطمأنينة إلى كلِّ منا . وأني لى أنا أن أجد السلوى ، وأنا السبب — من غير قصد — فى كل هذا ؟ فتحت ضغط إلحاحى حملتُ شرلوت على استقبالك وقبولك فى البيت ، ولم تَعُدْ أوتيلى إلينا إلا كنتيجة لهذا التغيير . وما لنا طاقة بتبديل ما حدث عنه ، لكن فى وسعنا أن نجعله بريئاً وأن نجد فى هذه العلاقات ينبوعاً لسعادتنا . فإن شئت أن تصرف العيون عن الآمال العذبة الجميلة التى أفتحتها أمامنا ؛ وإن رُمْتَ أن تفرض على ، وعلينا جميعاً ، زهداً حزيناً ، لأنك تعتقد أن هذا ممكن وسيكون مقبولا محتملا ، أفن تكون لنا ، بتصميمنا على العود إلى موقفنا الأول ، كثير من المتاعب والمضايقات والآلام التى سنعانىها ، دون أن تكون لهذا كله أية نتيجة حسنة ودون أن ينشأ عنه أى خير أو لذة ؟ وهل يكون للمركز السعيد الذى أنت فيه أىُّ جمال فى نظرك ، إذا ما مُنِعت من رؤيتى والعيش ممي ؟ وسيكون هذا ، بعد كل الذى جرى ، شيئاً أليماً . إن شرلوت وأنا ، بالرغم من كل ثروتنا ، سنكون دائماً فى أسوأ حال . وإذا لَدَّ لك أن تعتقد مع غيرك من الناس ، أن البِعاد والسنوات والزمان تخفف من حدة هذه العواطف ، وتمحو أمثال هذه الآثار ، فتدَّبر أن الأمر يتعلق بهذه السنوات عينا التى نود أن نقضيها فى السرور والنعيم لا فى الحرمان والبؤس الأليم . وأخيراً ، ولكى أصل إلى النقطة الحاسمة ، حتى لو كان مركزنا وعواطفنا تسمح لنا بالاعتصام بالصبر ، فاذا ستؤول إليه حال أوتيلى التى يجب عليها آنذاك أن تغادر بيتنا ، وتعزف عن عوننا فى المجتمع ، وأخيراً أن تحيا حياة

ضالة شريفة بائسة ، وسط عالم ينطوى على الخبث والشر والبرود وعدم
الاكتراث ؟ صور لي مركزاً يمكن فيه أن تكون سعيدة بدوني ، بدوننا ،
هنالك تقدم إلى حجة أقوى من كل دليل ؛ وحتى لو لم أقو على قبولها
والتسليم بها ، فإنني أريد أيضاً أن أزيها وأدخلها في اعتباري وتقديرى .
لم تكن هذه المشكلة ميسورة الحل . والشئ المؤكد هو أن الصديق
لم يجد أى جواب مُقنع ؛ ولم يبق أمامه بعد إلا أن يصور من جديد
ونقوة كم أن المسألة كلها خطيرة شائكة ، مخوفة بالمخاطر من عدة نواح
وأنه لا بد على الأقل من إطالة التفكير بكل جدر في وسائل التنفيذ .
فراقه إدورد على رأيه ، لكن مع هذا التحفظ وهو ألا يفكر صديقه في
مفادته قبل أن يصل إلى اتفاق تام في هذا الموضوع ، وقبل أن يخطو
الخطوات الأولى فيه .

الفصل الثالث عشر

لا يلبث أى شخصين ، كل منهما أجنبي عن الآخر ، أن يتبادلا الاعتراف
والأسرار حينما يحيمان سوياً بعضاً من الزمان : فمن المتوقع إذاً ألا يكون
بين صديقنا — وهما يعيشان سوياً تحت سقف واحد ويتحدثان معاً في كل
وقت — أى سر يخفى عن أحدهما . لقد كانا يراجعان في مرات عدة حالتهما
السابقة ، ولم يكتم الماجورُ صديقه أن أوتيلي قد اقترحت أن تربط بين
أوتيلي وإدورد حينما يعود من أسفاره ؛ ومن بعد فكرت في أن تحطبا عليه هو
نفسه . فاستطار إدورد الفرح من هذا الاكتشاف ، وتحدثا بدون تحفظ
عن الميل المتبادل بين شرلوت والماجور ، ولما كان قد وجد في هذا مصلحة

له وعزماً على تحقيق أغراضه فقد صور هذا الميل في أزهى ألوان وأنصمها . ولم يستطع الماجور أن ينكر كل شيء ولا أن يعترف بكل شيء ، بينما ازداد البارون اقتناعاً بوجهة نظره يوماً بعد يوم . كان يرى الأمر ليس فقط ممكناً ، بل وواقعاً . ولم يبق إلا أن يوافق كل شيء على ما ترغب نفسه وتهوى . وكان من المؤكد إمكان الظفر بالطلاق ؛ سيتلوه الزواج ؛ وفكر في السفر مع أوتيل . ولعل أجل اللوحات التي يمكن الخيال الحلم بها هي تلك التي يرسمها عاشقان ، زوجان ، يأملان في أن ينهما بارتباطهما الجديد في عالم جديد ، وأن يمتحنا ويثبتا أواصرهما الأبدية بين أحداث متنوعة متغيرة . وفي تلك الأثناء سيكون الماجور وأوتيل المقدرة التي لا حد لها والسلطان المطلق لتنظيم وترتيب الأملاك والثروة وفقاً لما هو مأمول وعلى نحو عادل خليق بإرضاء كل طرف . لكن الاعتبار الذي اطمأن إليه إدورد أكبر اطمئنان وأمل منه أكبر فائدة هو أن الطفل ما دام سيبقى للأُم فإن في وسع الماجور أن يُشرف على تنشئته وتوجيهه وفقاً لآرائه وتنمية قواه وملكاته . ولم يكن عبثاً أن أطلق عليه في التغطيس اسم أبيه والماجور .

كان هذا كله من النضوج في ذهن البارون بحيث لم يشأ أن ينتظر يوماً آخر للانتقال إلى مرحلة التنفيذ . وبينما هما في طريقهما إلى القصر بلغا مدينة صغيرة يملك فيها إدورد بيتاً . فاقترح التوقف بها وانتظار عودة الماجور . لكنه لم يقو على تنفيذ هذا الاقتراح في الحال والنزول بها ، بل رافق صديقه حتى نهاية المدينة ، وكانا على جوادين منشغلين بحديث جاد . فتابعا طريقهما .

وشاهداهُ فجأةً من بعيد البيت الجديد فوق الراية : لقد كانت أول مرة يَرَفُ فيها قرميدهُ الأحمر أمام عيونهما . فانتاب إدورد قلق ولهفة

لا يستطيع لها دفعا ولا مقاومة . بل يجب أن يتم كل شيء هذا المساء نفسه . وهو سيستر في قرية قريبة كل القرب . ولا بد للماجور أن يعرض الأمر على شرلوت بطريقة مُلحّة ، ويفاجئ تقديرها ، وبواسطة هذا الاقتراح غير المتوقع يحملها على التصريح بعواطفها بإخلاص . ذلك أن إدورد الذي أعاره رغبته الخاصة كان مقتنعا بأنه يحقق أمانى شرلوت الحقيقية ، وأمّل منها في موافقة سريعة ، لأنه لم يستطع هو نفسه أن يريد شيئا آخر .

واستطارته النشوة فتوقع نتيجة سعيدة . ولكي يستطلع الخبر في الحال ، أمر بالترصّد وبإطلاق بعض طلقات من المدفع ، أو إذا كان الوقت ليلا ترسل بعض السُّهُمان النارية . وعدا المايجور إلى القصر . لكنه لم يجد شرلوت ، وعلم أنها تسكن البيت الجديد ، بيد أنها كانت في هذه اللحظة تقوم بزيارة في البحيرة ، ومن المحتمل ألا تعود مبكرا إلى المنزل . فعاد إلى المنزل حيث ترك جواده .

بيد أن إدورد ، مدفوعا بقلق استولى على كل نفسه ، خرج خفية من مكانه متخذاً طرقاً منعزلة لا يعرفها إلا القناصون والصيادون ؛ وبلغ بستانه ، وعند المساء كان في الصّفة قرب بحيرته ، التي رآها لأول مرة في كل سعتها وامتدادها المستوى الشفاف .

وفي ذلك اليوم كانت أوتيل قد قامت بعد الظهر برحلة إلى البحيرة ، حاملةً الطفل ، تقرأ وهي سائرة ، كما هي عادتها . ووصلت حتى أشجار الزان ، في المكان الذي يُعبر عنده الماء . وكان الطفل غافيا ؛ جلست ، ووضعت إلى جوارها ، وتابعت قراءتها . وكان الكتاب من ذلك النوع الذي يجذب القلب الحساس ولا يستطيع أن ينفصل عنه . فنسيت

أوتيلي الوقت والساعة ، ولم تفكر في أنه كان لا يزال أمامها سير طويل لبلوغ البيت الجديد ؛ وكانت جالسة ، غارقة في قراءتها وفي أفكارها ، فأنته المنظر إلى حد أن الأشجار والشجيرات والحائل المجاورة كان لا بد أن تكون حية وتصبح ذات عيون ، من أجل أن تُعجب بها وتنعم بحضرتها . وفي تلك اللحظة عينها تسرب شعاع من الشمس خلفها وأضفى على خدها وكتفها لوناً ذهبياً .

وكان إدورد في تلك الأثناء يتقدم في سيره باستمرار ، موقفاً في تقدمه هذا من غير أن يُرى ، واجداً بستانه خاوياً والريف الممتد قفراً . وأخيراً نفذ من خلال الشجيرات إلى أشجار الزان ؛ ورأى أوتيلي ورأته ، فطار إليها وسقط تحت قدميها . وبعد توقف صامت طويل ، في خلاله حاول كل منهما أن يستفيق من اضطرابه ، شرح لها في كلمات قصار كيف أتى ولماذا . لقد أرسل الماچور إلى شرلوت ؛ وربما يتقرر مصيرها المشترك في هذه اللحظة . إنه لم يشك يوماً في حبه ؛ وهي بكل تأكيد لم تشك أيضاً في حبها إياه : فتلمس منها موافقتها . فترددت ، خُفها وتوسل ؛ وأراد أن يستغل حقوقه القديمة ويضغط عليها بين ذراعيه : فأشارت إلى الطفل لافتة نظره إليه .

نظر إليه إدورد مشدوها ، وصاح : « إلهي ، لو استطعت أن أشك في زوجي ، وفي صديقي ، لكان هذا الوجه شاهداً رهيباً ضدها ! أفليست هذه القسّمات قسّمات الماچور ؟ لم أبصر يوماً مثل هذه المشابهة القوية . — كلا ، هكذا أجابت أوتيلي ، كل الناس يؤكّدون أنه شبيه بي . — أهذا ممكن ؟ » هكذا قال إدورد ، وفي اللحظة عينها فتح الطفل عينيه ، هاتين العينين النجلاوين السوداوين الليثيتين بالتعبير والعمق

والعدوثة . لقد كان الطفل ينظر إلى الدنيا بشئ من الفهم ؛ ولاح أنه يعرف الشخصين المائلين أمامه . جاس إدورد إلى جوار الطفل ؛ ثم ركم مرةً أخرى أمام أوتيلي .

وصاح : «إنهما عيناك . آه ! دعيني لا أنظر غير عينيك دعيني أسبل قناعاً على الساعة الرهيبة التي ولد فيها هذا الطفل . أفكان على نفسك الظاهرة أن تحيى هذه الفكرة المشؤمة ، فكرة أن الزوج والزوجة ، وقد صارا غريبين الواحد عن الآخر ، يمكنهما ، في عناقهما المتبادل ، أن يدنسا رغبات مشبوبة رباطاً شرعياً ؟ لكن مادمننا قد بلغنا هذا الحد ، وما دامت علاقائى بشرلوت يجب أن تُقَطَّع ، وستكونين لى ، فلماذا لا أقولها ، لماذا لا أفوه بها تلك الكلمة القاسية ؟ إن هذا الطفل ثمرة زنا مزدوج ؛ إنه يفصلنى عن زوجتى ، ويفصل زوجتى عنى ، وقد كان يجب أن يربط بيننا . فإذا كان يشهد ضدى ، وإذا كانت هذه العيون الرائعة يمكن أن تقول لعينيك إنى ، بين ذراعى غيرك ، إنما أنتسب إليك ، فادركى يا أوتيلي واستشعرى تماماً أننى لا أملك أن أكفر عن هذه الغلطة ، هذه الخطيئة إلا بين ذراعىك .

« سماءاً ! » هكذا صاح ، وهو ينهض فجأة .

لقد خُيِّل إليه أنه يسمع طلقة المدفع ، تلك العلامه التى كان على المجاور أن يعلنها . لكن الأمر كان أن أحد القناصين قد أطلق عياراً فى الجبل المجاور . ولم تَسْلُ هذه الطلقة أية طلقة أخرى . فانتظر فى قلق لهيف .

هنالك فقط شاهدت أوتيلي أن الشمس قد اختفت وراء الجبال وكانت أشعتها الأخيرة لا تزال ترفُّ على الراية ، وعلى نوافذ المنزل .

فصاحت : « ابتمد يا إدورد ! لقد فُرقَ بيننا زماناً طويلاً ، وتألنا حيناً طويلاً . واعتبر ما ندين به سويًا لشرلوت : فلها وحدها أن تقرر أمر مصيرنا ؛ ولا تضغط عليها . فأنا لك ، لو سمحتْ هي بهذا ؛ وإلا فيجب أن أزكك وأعزف عنك . وما دمتَ تظن أن القرار قريب كل القرب هكذا ، فلننتظر . عد إلى القرية التي يظن الماچور أنك فيها . كم من أشياء يمكن أن تحدث وتقتضى التفسير ؟ أمسن المحتمل أن تملن لك طلبة مدفع خشنة نجاحَ وساطته ؟ لعله أن يكون بسبيل البحث عنك الآن . إنه لم يجد شرلوت ، أعلم هذا . ويمكن أن يكون قد ذهب للقاءها ؛ فمن المحتمل أن يكون قد دُلَّ على مكانها . كم من فروض ممكنة ! دعنى . يجب أن أعود إلى البيت . إنها تنتظرنى هناك أنا والطفل . »

كانت أوتيلى تتحدث بسرعة ، وقد تمثلت كل الاحتمالات الممكنة . لقد كانت سعيدة بجوار إدورد وأحست بأنها يجب أن تُبعده . أتوسل إليك وأستحلفك ، يا حبيبى ، أن تعود ، هكذا قالت . عد من حيث أتيت ولتنتظر الماچور .

— أنا مطيعٌ أو امرئٌ ، بهذا أجاب ، ملقياً عليها نظرة ملتهبة بالعاطفة ، ثم ضامًا إياها بحرارة بين ذراعيه . فأحاطته بذراعيها وضغطت عليه برفق على قلبها . وحلَّت الرجا على رأسها ، كنجم هوى من السماء . واستسلما للأحلام ، وظننا أنهما لبعضهما بعضا ؛ ولأول مرة تبادلًا قُبَلات من اللمهيب ، تبادلًا بغزارة ، وحرارة ، ثم افترقا قسراً وبألم ومرارة .

وكانت الشمس قد غابت ، وانتشرت ظلال المساء ؛ وارتفعت أبخرة رطبة حول البحيرة ؛ فبقيت أوتيلى ساكنة ، يقلبها التأثر ويستولى عليها الاضطراب . ومَدَّت بصرها إلى البيت القائم على الرابية ، وُخِيل

إليها أنها ترى شرلوت في الشرفة لابسة فستاناً أبيض . ولو ساحلت شاطئ البحيرة ، لكانت الشقة طويلة . وهي تعرف قلق الأم حينما تنظر طفلها . وهامى ذى تشاهد أمامها أشجار الدُّلب ؛ ولم يكن يفصلها عن الطريق المؤدى مباشرة إلى البيت إلا صفحة الماء ؛ وخيّل إليها ، بنظرهما وبفكرها ، أنها فوق العدوّة الأخرى من البحيرة . وهي في قلقها هذا اختفى أمام عينها خطر المقامرة بالإبحار على الماء . فهزّعت إلى الزورق ؛ ولم تشعر بأن قلبها يخفق ، وأن قدميها تترنحان ، وأنها على وشك السقوط من فرط الإعياء . فقفزت إلى الزورق ، وأمسكت بالمجداف ، وأسندته إلى الساحل . إنها في حاجة إلى مجهود ، فضاعفت جهدها ، وترجّح الزورق وانساب قليلاً إلى الأمام . وكان الطفل على ذراعها اليسرى ، والكتاب في يدها اليسرى ، والمجداف في يدها اليمنى ، فترنّحت هي أيضاً وسقطت في الزورق . فأفلت المجداف من يدها ، ولما حاولت النهوض ، أفلت الكتاب والطفل ، وكل هذا سقط في الماء ! ... إنها لا تزال تمسك بعباس الطفل ، لكن وضعها العسير غير الملائم حال بينها وبين النهوض . ويدها اليمنى ، وقد صارت فارغة ، لم تكف لمساعدتها على العود والوقوف . وأخيراً استطاعت النهوض ، وجذبت الطفل من الماء ، لكن عينيه كانتا مغلقتين : لقد توقف عن التنفّس .

في هذه اللحظة استمادت كل حضور ذهنها ، فكان ألما كأبلغ ما يكون الألم . تقدم الزورق إلى منتصف البحيرة تقريباً ، بينما المجداف يطفو بعيداً ؛ وهي لا ترى أحداً على الشاطئ ، بل ماذا يفيدها أن ترى أحداً ؟ فظفّت ، مفصولةً عن كل شيء ، على هذا العنصر الخائن للنيع (الماء) .

تفقدت العونَ في نفسها . وكانت كثيراً ما سمعت عن وسائل إنقاذ الفرق^١ . بل هي قدرأت في مساء الاحتفال بعيد ميلادها حالة من هذا النوع . نخلعت عن الطفل ملابسه . وجففته بشوبها الموصلي ؛ ومزقت الثياب التي تغطي صدره ، وللمرة الأولى عرضته للهواء الطلق ؛ ولأول مرة نضم إلى صدرها الأبيض كائناً حياً ... كلا ، ويا حسرتاه ! إنه لم يكن حياً بعد ! إن أعضاء هذا المخلوق المسكين قد تجمّدت ، وجمّدت هي الأخرى إلى أعماق قلبها . فانهمل من عينيها سيلٌ من الدموع ، أضفى على سطح هذا الجسد المتصلّب مظهر الحرارة والحياة . فلم تتراخ مطلقاً ، ولفتت الطفل بشالها ، ودلكته ومسحت عليه ونفخت فيه بأنفاسها وهي تغطيه بقبالاتها وعبراتها ، وخيّل إليها أنها تموّض عن المساعدات التي حُرمت منها في هذه الوحدة والعزلة .

جهود لا غناء فيها ! رقد الطفل بلا حراك بين ذراعيها ، وبقي الزورق بلا حراك على سطح الماء . لكنها هنا أيضاً وجدت عوناً في نفسها الجميلة : أدارت نظراتها ناحية السماء ، وجثت على ركبتيها في الزورق ، ورفعت الطفل المتجمّد بذراعيها من حلقه البرى الذي كان لونه ، وكذلك بروده ، ووا أسفاً ، كلون المرمر . فتوجهت بنظرها المتبيلة نحو السماء ، وسألت العون من ذلك الملاذ الذي ترجو النفوسُ الرقيقة منه الكثير ، حينما لا تجد لها مدداً في أى مكان آخر . ولم يكن عبثاً أن ولت وجهها قبّل النجوم التي كانت قد بدأت تلمع في السماء واحدة تلو أخرى : فهبّ نسيمٌ رقيق دفع الزورق إلى أشجار الدُّلب .

الفصل الرابع عشر

ما تريت أن قصدت البيت الجديد ، ودعت الجراح وأعطته الطفل .
 فغرب هذا الرجل المحنك أنواع العلاج العادية واحداً بحد واحد في هذا
 الجسم الرقيق . وعاونته أوتيل في كل شيء ، وهيات له كل ما كان في حاجة
 إليه ، وتمجلت وكأنها تحيا في عالم آخر ؛ لأن الشقاء الأكبر كالنعيم الأكبر
 يبدل وجه كل الأشياء .

ولم تغادر غرفة ولادة شرلوت حيث جرى كل ما جرى إلا حينما
 جرب هذا الرجل الحاذق كل شيء ثم هز رأسه ، وظل صامتا لا يحير
 جوابا على أسئلتها المليئة بالأمل ، ثم أجاب أخيرا بكلمة « لا » خفيفة ؛
 لكنها لم تكذب تدخل عرفة الاستقبال حتى خرت منهوكة قبل أن تستطيع
 بلوغ الأريكة ، ووجهها منبطح فوق السجادة .

وفي اللحظة عينها سمع صوت عربة شرلوت وهي عائدة بها . فاستحلف
 الجراح الحاضرين أن يبقوا . وأراد هو أن يذهب للقائها ، وأن يهيتها لسماع
 النبأ الفاجع ؛ لكنها كانت قد دخلت مخدعها ، فوجدت أوتيل راقدة على
 الأرض ؛ ومهرعت إحدى الوصيفات إلى سيدتها وهي تبكي وتصرخ .
 وحضر الجراح : فمرفت كل شيء دفعة واحدة . لكن لماذا تتخلى عن
 كل أمل فجأة ؟ إلا أن الرجل المحنك (الجراح) ، الماهر الحكيم ، توسل
 إليها ألا ترى الطفل ؛ فابتعد ، ليوهما بإعدادات وتحضيرات جديدة .
 فألقت بنفسها على الأريكة ، وكانت أوتيل لا تزال مجدلة على الأرض ،
 مستندة إلى ركبتى خالتها ، وكانتا تمسكان رأسها الجميلة وهي مائلة ؛ وكان

الصديق العالم يغدو ويحيى ؛ ويلوح عليه أنه يُعنى بأمر الطفل ، وهو في الواقع إنما يعنى بحال السيدتين . وقارب الوقتُ منتصفَ الليل ؛ وساد في البيت شيئاً فشيئاً صمتٌ كصمت الموت . ولم تعد شرلوت تخفى عن نفسها بعدُ أن الطفل لن يعود أبداً إلى الحياة . وسألت أن تراه ، وكان قد سُجِّسَ في لفائف ساخنة من الصوف ؛ وأُرْقِدَ في سَلةٍ وُضِعَتْ إلى جوارها على الأريكة ، وكان الوجه هو وحده المكشوف ، فبدا ساجياً بكل جماله .

وما كادت القرية تسمع نبأ هذه المأساة حتى سرت فيها الحركة ، وفي الحال انتشرت الضجةُ حتى النُّزُل . فدار المايجور ، وقد ركب وسار في الطريق المعروفة ، حول البيت ، وأوقف أحد الخدم ، وكان ذاهباً لإحضار شيء من السكن المجاور ، وسأله عن التفاصيل وجعله يطلب من الجراح أن يخرج . ودُهِشَ الجراح حين رأى حاميه القديم ، وأنباء جليلة الأمر ، وتكفلَ بتهيئة شرلوت لاستقباله . فعاد الجراح وتنقل من موضوع إلى موضوع واقفاد الخيال من مسألة إلى أخرى ، واستطاع بهذا أن يستحضر في فكر شرلوت هذا الصديقَ العَطوفَ دائماً ، القريب إلى نفسها أبداً بالقلب والروح . وهيأتها هذه الخواطر والأفكار للعود إلى الواقع . وبالجملة عرفت أن صديقها على بابها وأنه عرف كلَّ شيء ويريد رؤيتها .

دخل المايجور ، فاستقبلته شرلوت بابتسامة أليمة . كان ماثلاً أمامها ، فرفعت الغطاء الحريري الأخضر الذي كان يغطي البدن ، وعلى ضوء شَمعة خافت ، رأى — في شيء من الفزع المشمور — صورته هو نفسه وقد جَمَدَها الموت . فأشارت إليه شرلوت بالجلوس ؛ فصارا الواحدُ قبالة الآخر ، وعلى هذا النحو أمضيا الليل في صمت . وكانت أوتيلي لا تزال راقدة بلا حراك على ركبتي خالتها ؛ تنفَسُ بهدوء ، ونامت أولاح أنها نائمة .

وتنفس الصبح ، وانطفأ النور ، وبدا الصديقان كأنهما يستيقظان من حلم رهيب . فنظرت شرلوت إلى الماجور وقالت له بلهجة هادئة .
« اشرح لي ، أيها الصديق ، بأية مشيئة للسماء أتيت هنا تشارك في هذا المنظر الحزين ! » .

ألقت عليه هذا السؤال بصوت خفيض فأجابها بلهجة مماثلة ، وكأنهما خشيا أن يوقظا أوتيلي :

« ليس هذا زمان التحفظ والتلميح والمداراة ولا مكانها . وإن الموقف الذي أجدك فيه من الرهبة والترويع بحيث يجعل الموضوع الهام الذي أتيت من أجله إلى هنا يفقد أمامك كل فائدته » .

هنالك صرَّح لها ، ببساطة وهدوء ، بالغرض من رسالته ، بوصف أن إدورد قد أوفده ، والغرض من وصوله ، بحسبانه قد جاء بمحض إرادته ولمصلحته هو . وعرض هذه النقطة وتلك الأخرى بكثير من اللباقة ، ومع هذا فبكل إخلاص . فأصفت إليه شرلوت بهدوء ، ولم يبدُ عليها دهشة ولا سخط .

ولما انتهى الماجور من حديثه أجاب بصوت هامس ، حتى اضطر لتقريب كرسيه :

« لم أوجد يوماً في موقف كهذا ، لكنني في مثل هذه الظروف الخطيرة كنت أقول دائماً لنفسى : وغداً ، ماذا سيكون الأمر ؟ وإنى لأشعر جيداً بأن مصير كثير من الأشخاص قد صار الآن بين يدي ، وما يجب على أن أفعله لا بدع عندي أى شك ، وسأقوله فى التو . إننى أوافق على الطلاق ، وكان على أن أقدر هذا قبل الآن . ولقد قتلت طفلى بترددى ومقاومتى . إن نمت أشياء يحتفظ القدر بها لنفسه بإصرار وعناد . وعبتا يحاول العقل

والفضيلة ، والواجب وكل ما هو مقدس أن يعترض طريقه إذ لا بد أن يتم قضاؤه وتنفيذ مشيئته ، لا بد أن يقع ما هو عادل في نظره ، وما ليس عادلاً في نظرنا نحن ، وينتهى المصير بأن يتحكم وحده بكل سلطانه ، تاركاً إيانا نطش الصخر برءوسنا في غير طائل .

« لكن ماذا أقول ! إن المصير لا يريد إلا تحقيق أمنيته أنا ، ورغبتي الخاصة ، اللتين عملت أنا ضدّها في غير حكمة ولا بُعد نظر . أفلم يخطب فكري إدورد على أوتيلي ، بحسبانهما زوجين خلق كل منهما للآخر ؟ أفلم أسمع أنا للتقريب بينهما ؟ وأنت ، يا صديقي ، أو لم أطلعك على سر نياتي ؟ لماذا لم أستطع أن أميز نزوة إنسان من الحب الحقيقي ؟ لماذا قبلتُ يده ، ولو كنت بقيت صديقه لكنت مصدراً لسعادته وسعادة زوجة أخرى ؟ انظر إلى هذه البائسة النائمة ! إن فرائضي لترتعد حيناً أفكر في اللحظة التي ستستيقظ فيها من هذا الرقاد المُخدر وتعود إلى صوابها . كيف يتسنى لها أن تعيش ، وكيف تسلي ، إذا لم تستطع أن تأمل في تعويض إدورد بحبها عما انتزعته منه ، كأداة لأغرب أنواع المقادير ؟ إنها تستطيع أن ترد إليه كل شيء ، إذا حكمت بما تحمل له من تعلق ووجدان . وإذا كان الحب يستطيع أن يحتمل كل شيء ، فهو يمكنه أيضاً بالآخرى أن يعوّض عن أي شيء . أما فيما يتصل بي أنا ، فلا يجب أن تفكر في هذا الآن .

« فارق بلا ضجة ، عزيزي الماچور . قل لإدورد إنني أوافق على الطلاق ، وإنني أدع له ولك ولتلك العناية بالمسألة كلها ، وإنني خالية من القلق على مركزي في المستقبل ، وأستطيع أن أكون كذلك من كل وجه . سأوقع كل الأوراق التي تعرضونها عليّ ؛ لكن لا يطلب أحد

مساعدتي ولا رأيي ولا نصائحي» .

فنهض الماچور . ومكّدت إليه شرلوت يدها من فوق أوتيلى ، فضم إلى شفتيه هذه اليد العزيرة .

« وفيما يتصل بى أنا ، ماذا أستطيع أن آمُل ؟ هكذا قال هامسا .
- اسمح لى بأن أدعك تنتظر جوابى ، هكذا قالت له شرلوت : لم نستحق الشقاء بخطأ اقترفناه ؛ لكننا أيضاً لم نستحق أن نكون سعداء معا » .
فمضى الماچور ، مشفقاً على حال شرلوت فى أعماق فؤاده ، دون أن يستطيع الرثاء لحال الطفل الميت المسكين . فإن هذه الضحية بدت له ضرورية لسعادتهما المتبادلة . وتمثل أوتيلى وهى تحمل بين ذراعيها طفلاً لها ، بحسبانه أحسن عوّض كامل عن ذلك الذى سلبته إدورد ؛ وتصور على ركبتيه هو نفسه ابناً سيكون صورة له صادقة أكثر بكثير من ذلك الآخر .

تلك كانت التصاوير والآمال المعسولة التى شغلت باله حينما عاد إلى المنزل فالتقى بإدورد ، وكان ينتظر الماچور طول الليل فى العراء ، دون أن يملن سهم نارى أو طلقة عن نجاح موقف . لقد كان يعرف الكارثة التى حلت ، لكنه بدلاً من أن يأسف على هذا المخلوق المنكود عدّه هذا الحادث منحة من السماء أزاحت فى الحال كل عقبة فى سبيل سعادته ، وإن لم يشأ أن يصرح بهذا لنفسه . لهذا لم يبذل الماچور ، حينما أعلن له فى التو قرار زوجته ، أى جهد فى حمله على العود إلى القرية الأخرى ، ومن هناك إلى المدينة الصغيرة حيث اقترحا أن يتناقشا ويحصّرا الإجراءات التمهيدية التى كان يجب اتخاذها .

ولما غادر الماچور البارونة لم تستغرق فى تأملاتها أكثر من لحظة ،

لأن أوتيلي نهضت بعد برهة وحملت في وجه صديقها . بدأت بأن تركت ركبتي مشرلوت ، ثم نهضت على قدميها ووقفت أمامها .

« هذه هي المرة الثانية — هكذا قالت الطفلة النبيلة ، في لهجة من الجدل مليئة بسحر لا يقاوم — التي أستشعر فيها مثل هذه الأزمة . لقد قُلْتُ لي يوماً إنه يحدث غالباً في الحياة أن الشيء الواحد يجري على الناس بطريقة واحدة ، وفي لحظات حاسمة دائماً . وإني لأعترف اليوم بصدق هذه الملاحظة وأشعر بأن مضطرة إلى الإدلاء إليك باعتراف . بعد أن ماتت أمي بقليل — وكنت طفلة غَضَّة الحداثة — قَرَبْتُ منك كرسيي ؛ وكنت جالسة على الأريكة مثلك الآن ، وكانت رأسي ترقد على ركبتيك ؛ لم أكن نائمة ولا ساهرة : بل كنتُ أَنَهُوَمَ . فسمعت كل ما دار من حولي ، وخصوصاً سمعت بوضوح كل ما قيل . ومع هذا فلم أقوع على التحرك ولا التعبير عما في نفسي ، وحتى لو شئتُ هذا لما استطعتُ أن أسمع أنني أشعر بنفسي . كنتُ أنت تتحدثين عني مع إحدى صديقاتك ؛ وكنتُ ترثين لحالي لبقائي في الدنيا طفلة يتيمة مسكينة ؛ واستعرضت مراكزي التابع غير المستقل بنفسه ، وهو مركز كان يمكن أن يكون حرجاً لو لم يجُددُ عليَّ الطالع بما يخفف مصيري . وأدرت جيداً وبدقة ، دقة لعلها قاسية ، كل ما بدا أنك تطلبينه من أجلي ، وما تقتضينه مني . هنالك رسمتُ لنفسي قواعد توافق فكري المحدود ، تحمكت في حياتي وقتاً طويلاً ، ووجهت كل سلوكي ، في الوقت الذي كنت تحبينني فيه ، وتُعنين بشأني وتقبلينني في بيتك ، ووقتاً آخر تلاح .

« لكنني حِدْتُ عن طريقي ، وانتهكت قواعدي ، بل فقدت شعوري بها ، وبعد كارثة رهيبة ، أراك تنيرين لي من جديد حالتي وهي اليوم أسوأ

من الأولى . كنت مُسْنَدَةً إلى ركبتيك ، غارقةً في نوعٍ من التخدير ، وسمعتُ للمرة الثانية ، وكأني أسمع من عالم غريب ، صوتك العذب قرب أذني ، ورأيت إلى أي مآل صرتُ ، فأصابتني قشعريرةٌ من حال نفسي ، لكنني هذه المرة أيضاً كما في السابقة رسمتُ لنفسي خطتي الجديدة ، وأنا غارقة في نصف سُبات وتخدير .

« قرّ عزى على ما قررتَه من قبل ؛ وعلى أن أنبئك بقرارى أولاً : لن أكون أبداً لإدورد . لقد فتح الله عينيّ بهذا الحادث الرهيب على الجريمة التي كنتُ متردّية فيها . أريد أن أكفر عنها . ولا يفكرن أحدٌ في صرفي عن تصميمي هذا ! صديقتي الممتازة العزيزة ، رتي أمرك على هذا الأساس . مُصرى بعودة الماچور ؛ اكتبى له قائلة إنه لم يتقرر شيء . كم استولى على الجزع والقلق لأنني لم أستطع التحرك حينما غادر هذا المكان ! لقد أردتُ أن أنهض واثبة ، وأن استصرخك ألا تدعيه يذهب ومعه هذه الأمانى الآثمة المجرمة » .

أدركت شرلوتُ مركزَ أوتيلي ، وأحست به ؛ ومع هذا فقد أمّلت - مع الزمان والنصح والإيزاع - أن تكسب شيئاً ؛ لكنها حينما أرسلت بضع كلمات فيها إشارة إلى المستقبل ، وإلى تخفيف آلامها ، وإلى الرجاء ، صاحت أوتيلي بكل حدة وحماسة :

« كلا ! لا تحاولي أن ترعزى من عزى وتنهني من قرارى وتفاجئيني . وفي اللحظة التي أعلم فيها أنك وافقتِ على الطلاق ، سأكفر في هذه البحيرة نفسها عن خطأى وجرمي » .

الفصل الخامس عشر

إذا كان الأهل والأصدقاء الذين يحيون معاً حياة سعيدة هادئة يتحدثون ، أكثر مما يجب ، ويليق ، عما يحدث لهم أو مالا سيحدث ؛ وإذا كانوا يتبادلون مراراً مشروعاتهم وأعمالهم ومشاكلهم ، وبدون أن يقبلوا النصائح التي يقدمها كلٌّ للآخر يقضون حياتهم على نحو ما في التدبير والتقدير — فإنه يحدث في الأحوال الخطيرة التي يلوح فيها أن الإنسان في حاجة إلى عون الآخرين وإلى موافقتهم خصوصاً ، أن ينطوى كلٌّ على نفسه ، ويعمل لنفسه ، ويسلك سبيله وفقاً لهواه ؛ ويخفى كلٌّ عن الآخر الوسائل الخاصة التي يستعين بها ، والنجاح والآثار والنتيجة تدخل وحدها في المجال المشترك .

بعد كل هذه الأحداث الغريبة الرهيبة ، نشأ أيضاً بين الصديقين نوع من التحفظ الصامت تجلى على صورة مداريات لطيفة . وكانت شرلوت قد حملت الطفل إلى الكابله سراً دون أن يعلم أحد . وهناك رقد كضحية أولى لمصير متوعد .

ولما استعادت الأمُّ كلَّ قواها ، آبت إلى الحياة ، وفي هذا الطريق لقيت أول من لقيت أوتيل التي لاح أنها في حاجة إلى معونتها . فحملت من هذا الأمر شاغلها الأول ، دون أن تظهر كذلك . وكانت تعرف إلى أى حد تحب هذه الفتاة السماوية إدورد ؛ وتسقط نبال المنظر الذي سبق الكارثة ، وعرفت كل ظروفها إما من أوتيل نفسها أو من رسائل الماچور . وأوتيل من ناحيتها قد أشاعت الكثير من الرقة والعذوبة في حياة

شرلوت كل آن . وكانت صريحة مفتحة النفس بما في مكنونها ؛ لكنها في أحاديثها لم تتناول مطلقاً الحاضر ولا الآونة الأخيرة . لقد كانت دائماً رصينة اللب واعيّة الفؤاد ، وقد لاحظت الكثير وعرفت الكثير : هنالك تجلّى كل هذا بوضوح . فكانت تسلي شرلوت وترّفه عنها ، وكانت شرلوت تأمل دائماً في سرّها أن ترى هذين الزوجين الأثيرين عندها مرتبطين . وعلى نحو مخالف تماماً كانت تجرى مشاعر أوتيلي . فقد كشفت لصديقتها عن سر مسلكتها ؛ وقد تخلصت من قيودها القديمة وأسرّها : وبقوتها وقرارها ، أحست أيضاً بأنها تخففت من عبء خطيئتها وعنتها . ولم تعد في حاجة بعدُ إلى أن تكون عنيفة على نفسها . لقد غفرت لنفسها في أعماق قلبها ، لكن بشرط العزوف الكامل ، والزهد الخالص ، وكان هذا الشرط دقيقاً يسرى على كل حياتها .

على هذا النحو مرت أوقات ، وشعرت البارونة إلى أى حد صار البيت والبستان والصخور والبحيرة والظلال تترك يوماً عندها وعند صديقتها آثاراً حزينة . أما أنهما كانا في حاجة إلى تغيير الهواء ، فقد كان أمراً بارزاً للعيان ؛ لكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه الفكرة ؟ لم يكن من الميسور الانتهاء عند رأى في هذا الأمر .

أفكان يخلق بالصديقتين أن تظلا سوياً ؟ لقد كانت إرادة إدورد التي أبداهما من قبل جديرة بالتوصية بهذا ، وكانت تصرّحاته وتهديداته من شأنها أن تجعل منه ضرورة لا مفر منها : لكن كيف السبيل لإنكار أن هاتين السيدتين — بكل مآلهيهما من حسن نية وعقل وحكمة ومجهود — كانا في موقف أليم الواحدة بالنسبة إلى الأخرى ؟ لقد كانت أحاديثهما يخالطها التهرّب ؛ وأحياناً كان يثقل على إحداها أن تسمع حديث

الأخرى ، وغالباً ما كانت التعبيرات يساء فهمها ، إن لم يكن بالذهن فبالعاطفة . لقد كانت كلماتها تحشى إيذاء الأخرى ، وهذا الخشيان نفسه كان أول شيء يجرح ويؤذى .

ولو شاء تامغادرة القصر والفراق الواحدة عن الأخرى - لوقت قصير على الأقل - لبرز في الحال السؤال القديم : أين تذهب أوتيلي ؟ وإن الأسرة الثرية الكبيرة قد بذلت جهوداً في غير طائل لكي تهيب للوارثة الفتاة رفيقه طيبة قادرة على إثارة روح التنافس فيها ، والبارونة في زيارتها الأخيرة ، وحديثاً في رسائلها ، قد حثت شرلوت على إرسال اليتيمة . وهما هي ذى تعاود الاقتراح مرة أخرى . لكن أوتيلي رفضت بصراحة أن تدخل بيتاً ستجد فيه ما اعتاد الناس أن يطلقوا عليه اسم المجتمع الراقى ، قائلة : « دعيني يا خالتي العزيزة أفسر لك - كيلاً أبداً ضيقة الأفق عنيدة - ما كان على أن أكتمه وأخفيه في ظروف أخرى غير هذه . إن الشخص الذى عانى مصائب غريبة ، حتى لو كان بريئاً ، تنتشر له بين الناس قالة سيئة ، ويشير عند من يرونه ويقابلونه نوعاً من الفرع . وكلُّ يريد أن يتبين لديه الوصمة التى قرف بها ؛ وكلُّ يستشعر نحوه حب الاستطلاع والفرع معا . على هذا النحو يصير البيت أو المدينة التى جرى فيها فصل مربع رهيبين فى نفس كل من يزورها . ويبدو ضوء النهار فيهما أقل لمعاً ووضوحاً ؛ ويروح أن النجوم تقفد فيها من لألها .

« وما أكبر عدم لياقة الناس - ويمكن مع هذا اغتفارها - نحو هؤلاء البائسين ، وما أشنع ثقلهم الأحمق وعطفهم الأعرج الأهوج ! اسمح لى أن أعبر على هذا النحو ، لكننى عانيت ما لا يصدق العقل مع هذه الفتاة المسكينة التى انتزعتها لوسيانه من مخدعها السرى المنزل ، لى

تعنى بها بإحسان ، وحاولت بكل نية طيبة أن تحملها على اللعب والرقص .
ولما انتهى الأمر بالفتاة المسكينة — وقد زاد اضطرابها — أن هربت
وأصابها الإغماء ، وأخذتها بين ذراعى ، وسرت رعدة تأثير فى الجماعة
الحاضرة ، وتأمل كل هذه البائسة تحدوه رغبة استطلاع قاسية ، لم أكن
أتوقع أن مثل هذا المصير ينتظرني . إن حنانى المخلص الحار لا يزال حياً :
والآن فى وسمى أن أردّه إلى نفسى ، وأن أحفظ نفسى من أن أكون
موضوعاً لمثل تلك المناظر الأليمة .

— فقالت شرلوت : طفلى العزيزة ، لن تستطيعين فى أى مكان أن
تتجنبى نظرات الناس . لم تعد توجد بعد هذه الأديرة التى كان الناس
يجدون فيها قبلُ ملاذاً لمثل تلك الآلام .

— ليست الوحدة هى التى تصنع الملاذ ، خالى العزيزة . إن الملاذ
الأكبر يجب أن يُبحث عنه فى الأماكن التى نجد فيها موضوعاً لنشاطنا .
ولن نستطيع كل أنواع الكفارة والزهد أن تنقذنا من المصير المحتوم ، إذا
قرر أن يطاردنا . إنه فقط فى الحالة التى أُسلمَ نفسى فيها للبطالة وأصبح
منظراً يتلهى به الناس بصير العالم فى نظرى بغيضاً لا يطاق . لكن إذا
رأى الناس هنيئة بالعمل ، لا أكل ولا أمل من أداء واجبي ، هنالك
أستطيع أن أواجه نظرات الجميع ، لأننى لم يعُدْ لى بعد أن أخاف
نظرات الله .

— فقالت شرلوت : إما أن أكون على خطأ بّين ، وإما أن يكون
مَيْلُكَ يدعوك إلى المدرسة الداخلية .

— أجل ، إن لأعترف وأتحيل أنه من سعادة العمل أن يقود المرءُ
الآخرين بالطريق العادى ، حينما يكون هو نفسه قد اقتيد بأغرب

الطرق . أو لسنا نرى في التاريخ أن نفراً من الناس الذين اعتزلوا ولجأوا إلى الخلوة بعد أخطاء فادحة ارتكبوها ، لم يظلوا فيها مستورين مدفونين ، كما أمَلُوا ؟ لقد دُعُوا إلى الدنيا ليسلكوا بالضالين السبيل القويم والصراط المستقيم . ومن أقدر على هذا من هؤلاء الذين خبروا السُّبُل الخداعة ؟ لقد دُعُوا ليعاونوا البائسين . ومن أقدر من هؤلاء الذين لم يعد في وسع أى شر من شرور الأرض أن يبلغهم بعد ؟

— إنك لتختارين مهنة غريبة ، هكذا قالت شرلوت . ولا أريد أن أقف في طريقك . فليكن ، وإن كان ، فيما أرجو ، لمدة قليلة .

— فأجابت أوتيل : أنا عاجزة عن شكرى لك ترك إياى أقوم بهذه المحاولة ، هذه التجربة ! إذا لم أكن واهمة ، فستنجح . فى ذلك المأوى سأذكر كل المحن التى رآنى أحتملها منذ ذلك الحين ! وبأية نصاعة وهدوء سأشاهد متاعب التلميذات الصفار ، وأبتسم لآلامهم الطفولية ، ويدهم خفيفة أعود بهم من حيث حادوا وضلّوا ! الرجل السعيد لم يخلق لقيادة السعداء ؛ ومن طبيعة الإنسان أن يتطلب من نفسه ومن الآخرين بمقدار ما يتلقى . والبائسون الذين نهضوا من كبوتهم يعرفون وخدم كيف ينمّوا ، لأنفسهم ولغيرهم ، الشعور بأن المرء يجب عليه أن ينعم رافهاً حتى بأقل نعمة وأدناها .

— دعبنى ، هكذا قالت شرلوت بعد قليل من التفكير ، دعبنى أقيم ضد مشروعك هذا اعتراضاً آخر يبدو لى أنه الأهم . ليس الأمر يتعلق بك وحدك ، بل أيضاً بشخص آخر . إن نوايا المعلم الطيب الورع العاقل مجهولة لك ؛ وفى المهنة التى ستنخرطين فى سلكها ستكونين يوماً بعد يوم أعز وأكبر ضرورة ؛ والمواطف التى تشيع فى نفسه لا تسمح له

مطلقاً بالحياة بدونك ، وفي المستقبل حينما يعتمد معاونتك ، لن يكون في وسعه القيام بعمله من دونك : وستبدأين بتسهيله عليه ، كما يسأم منه بعد قليل .

— لم يعاملنى القدر برفق ولا حنان ، هكذا قالت أوتيل ، ومن يحببنى يجب عليه ، فيما أظن ، ألا ينتظر منى خيراً من هذا . إن هذا الصديق طيب ، وعادل ؛ وسيشعر نحوى ، فيما آمُل ، بعطف خالص برىء من كل غاية وغرض ؛ سيزى فى شخصاً مقدساً ، لا يستطيع أن يكفر لنفسه ولنغيره عن خطيئة رهيبه ، إلا بأن يكرس نفسه للكائن الأقدس الكامل الذى يحيطنا بجوهره الخفى ويستطيع وحده أن يحمينا من القوى العتية التى نحاصرنا وتضيّق علينا الخناق .

وتلقت شرلوت كل ما قالته الطفلة العزيزة بلهجة بالغة التأثير ، كما تُفكر فيه وحدها سرّاً . وكَم من مرة حاولت بكثير من الملاحظات أن تكتشف ما إذا كان من الممكن التفكير فى إيجاد تقارب بين إدورد وأوتيل ! لكن أقل ذكر ، وأقل أمل ، وأقل أظن لاح أنه يَهْزُ الفتاة حتى أعماق قلبها . بل إنها اضطرت ذات يوم إلى الإجابة فأوضحت الأمر بكل جلاء .

فأجابت شرلوت : إذا كنت قد عقدت العزم على العزوف عن إدورد ، فاحذرى أن تربه مرة أخرى أبداً . فنحن حينما نكون بعيدين عن موضوع غرامنا يبدو لنا أنه كلما ازداد وجداننا عنفاً ، ازدادت سيطرتنا على أنفسنا ، لأن كل قوة الوجدان كما تظهر فى الخارج نديرها فى الداخل ؛ لكن ما نلبث أن تُنزع من هذا الخطأ ، حينما يتبدى الموضوع الذى خيل إلينا أننا نستطيع الاستغناء عنه ، فجأةً أمام نواظرنا كشيء لا غنى لنا

عنه ! فاعلمي الآن ما تقدرين أنه ملائم لمركزك ؛ امتحني نفسك ، وغَيِّرِي بالأحرى عزمك الحالِي ، لكن ليكن ذلك التغيير صادراً عن نفسك بقلب حرّاً ثابت الإيمان ولا تدعى نفسك تنساق وراء الصدفة والاتفاق والمفاجأة وتجرّكِ إلى صِلاتك القديمة : لأنك ستشعرين هنالك بمركّة لا تطاق يستعِمرُ أوارها في قلبك . وكما قلتُ لك ، قبل أن تخطِي هذه الخطوة وقبل أن تغادِريني وتبدأي حياة جديدة تقضى بك يعلم الله إلى أين ، فكرى طويلاً فيما إذا كنت تستطيعين أن تعمّزي نهائياً عن إدورد . إذا كان هذا عزمك ، فعاهدي القول على أن لا تكون لك به بعدُ أية صلة ، بل ولا أى حديث ، حتى لو زارك ، ونفذ إلى مكانك » .

لم تتردد أوتيلي لحظةً ، بل أعطت كلمتها لصديقتها ، تلك الكلمة التي آلتها على نفسها من قبل .

ومع هذا فإن تهديد إدورد كان يعاود دائماً نفس زوجته . لقد قال إنه لا يستطيع العزوف عن أوتيلي إلا طالما ظلت مع شرلوت غير منفصلة عنها . أجل ، إن الظروف قد تبدلت منذ ذلك الحين ، وجرى من الأحداث ما يمكن أن يجعل هذه الكلمة التي نادت في ساعة نشوة وحمية طارئة ، منسوخة بالأحداث التالية . ومع هذا فإنها لم تشأ أن تحاطر وتغامر بأى شيء مهما قل يمكن أن يؤذى إدورد ، وكُلفَ مثُلر بأن يسبر غور عواطف إدورد من هذه الناحية .

منذ موت الطفل قام مثُلر بعدة زيارات ، وإن كانت قليلة فهي كبيرة الأثر ، لشرلوت . فهذا الحادث الذي جعله يحكم بأنه من غير المحتمل أبداً أن يعود الرباط بين الزوجين ، قد أحدث في نفسه حزناً عنيفاً بالغا . ومع هذا فإنه وقد هُيئَ بطبعه للعمل والأمل فرح سراً بقرار أوتيلي . وحسب حساباً

للزمان، وإن من شأن الزمان أن يهدى من كل شيء؛ وكان الأمل لا يزال يداعبه في الإبقاء على هذا الرباط المقدس، وعدّ هذه الحركات الوجدانية أنواعاً من المحن يشعر بها الحب والإخلاص بين الأزواج.

وأعلنت رسالة من شرلوت إلى الماچور قرار أوتيل الأولى، وسألته، بكل إلحاح، أن يحصل من إدورد على موافقته بألا يقوم بأى إجراء آخر، وأن يبقى كل شيء هادئاً، وأن يُلاحظ بصبرٍ ما إذا كانت الفتاة إن تعود إلى عواطفها الأولى. وأنبأته أيضاً — بقدر ما يجب — عن كل ما جرى وما عاناه كل منهما منذ ذلك الحين، وأمامه الآن مهمة شاقة هي أن يهيئ إدورد لتعديل الموقف. أما متلر، وقد كان يعرف جيداً أن التسليم بما تم كان أيسر من الموافقة على ما لم يتم بعد، فقد أقنع البارونة بأن خير ما يمكن عمله هو أن ترسل أوتيل في الحال إلى المدرسة.

وتبعاً لهذا فإنه لم يكدر رحل حتى أُعدّت مُعدات السفر. فحُزمت أوتيل أمتعتها، لكن شرلوت لاحظت أنها لم تكن مهيئة لأن تأخذ معها الصندوق الجميل ولا أى شيء مما يحتويه. فآثرت أن تترك الفتاة الصامتة تعمل ما يبدو لها. ووافى يوم الرحيل. وكان المقدّر أن تقود العربية الفتاة المسافرة إلى محطة معروفة في اليوم الأول؛ وفي اليوم التالى تغدو بها إلى المدرسة؛ وكان على نانت أن ترافقها وتظل في خدمتها. ولقد عادت هذه الفتاة المشبوبة العاطفة إلى صاحبة الفضل عليها بعد موت الطفل مباشرة وظلت متعلقة بها كما كانت من قبل، بليل والطبع. بل بدا أيضاً أنها أرادت، بثروتها المحبوبة، أن تصلح الزمان المفقود الضائع، وأن تكررّ نفسها تماماً لخدمة سيدتها العزيزة. فاستطارتها النشوة لفكرة السفر معها، ومشاهدة أشياء جديدة، وهى التى لم تخرج مطلقاً من مسقط

رأسها . فُهرعت إلى القرية عند أهلها وأصدقائها ، كيما تنبئهم بنبأ جدّها السعيد ولتوديعهم . لكنها لسوء الحظ دخلت عند أناس مصابين بالحصبة ، وسرعان ما أصابتها العدوى . ولم يشاءوا تأجيل الرحيل ، فقد ألحّت أوتيل وأصرت . وهي كانت قد قامت من قبل بهذه الرحلة ، وكانت تعرف أصحاب النزل الذى كان عليها أن تبيت فيه فى الليل ، وكان حوذى القصر هو الذى يسوق عربتها . فلم يكن ثمت ما يدعو إذاً إلى الخوف والقلق .

لذا لم تعارض البارونة ؛ فهي نفسها قد تأخرت فى الرحيل عن هذه الأماكن . بيد أنها أرادت أن تهيب لإدورد جناح أوتيل ، وأن تعيده إلى الحال الذى كان عليها قبل مجيء الكابتن . إن الأمل فى إحياء السعادة الماضية يشتمل من جديد مرة أخرى فى قلب الإنسان ؛ وشرلوت كان لها الحق ، بل كان عليها أن تعود من جديد إلى تلك الأمانى والآمال .

الفصل السادس عشر

حينما وصل متلر إلى إدورد ليحادثه فى الأمر ، وجده وحيداً ، قد أسند رأسه إلى يده اليمنى ، ومرفقه إلى المنضدة . ولاح عليه أنه فى غمرة من الأسى والألم .

فقال متلر : ألا يزال الصداع يعذبك ؟

فأجاب : « إنه يعذبني ، ومع هذا لا أستطيع أن ألعنه ، لأنه يذكرني بأوتيل . وأقول لنفسى : لعلها هى الأخرى تتألم ، مستندة إلى ذراعها اليسرى ، ولعلها أن تكون فى ألم أبلغ من ألى . ولماذا لا أحتمله كما

تحتمله هي ؟ إن آلامها مصدر لسلامتي ؛ وفي وسمى أن أقول إن آلامها مطلوبة لأنها ترسم أمام عيني صورة صبرها وما يصحبه من فضائلها الأخرى ، صورة أوضح وأوقع أثراً . في الألم وحده نشمر تماماً بكل المناقب العالمة الضرورية لاحتماله .

فلما رأى متلر صديقه على هذه الحال من الصبر والتسليم ، لم يتجسس أن أبلغه مهمته ، لكنه عرضها عليه في خطوات ، رايًا له كيف نشأت الفكرة عند هاتين السيدتين ، وكيف نضجت شيئًا فشيئًا واستحالت إلى مشروع . ولم يكذب إدورد بيدي إلا بضعة اعتراضات ضئيلة . والقليل الذي تفوه به ، بدا منه أنه يريد أن يترك المسألة كلها بين أيدي أصدقائه . فإب آلامه الحاضرة لاح أنها جعلته غير آبه ولا مكترث لشيء من الأشياء ولا الحى من الأحياء .

لكنه لم يكذب يصبح وحيداً ، حتى نهض فجأة وتجهول في الغرفة يذرعا طولاً وعرضاً . لم يعد يشعر بألمه ؛ وفي في الأشياء الخارجية . وخلال رواية متلر كان خيال إدورد العاشق قد حلق في أعلى الآفاق : أوتيل وحيدة أو في شبه وحدة ، على طريق معلوم ، وفي زل مألوف ، كثيراً ما نزل في غرفاته . أفكر ثم قدر ، أو بالأحرى ما أفكر وما قدر ، بل نزع به الشوق واستطار أنفاسه وسعّر ، وصار به إليها صوّر . لقد كان عليه أن يراها ويتحدث إليها وينظر . لأى غاية يظهر ؟ ولماذا هذا الموقف والنظر ؟ وماذا ينشأ عن هذا ويصدر ؟ ما كان هذا ما دار عليه الأمر واستعبر . فلم يقاوم ولم يتقهقر . لقد كان واجبه المقدّر !

وأفضى بالسر إلى خادم غرفته ، فلم يمض سفيرها . فسا كان الصبح يتنفس إلا وأسرع إدورد إلى امتطاء الجواد دون رفيق له ، وغدا إلى المنزل الذي

كان مقدراً أن تنزل هي فيه لتبيت ليلتها ، فوصل إليه قبلها بوقت طويل . فتلقته صاحبة النزول بكل لذة ورحاب ، وهي مدهوشة . فقد كانت تدين له بسرور عظيم كسرور ما بين الأحبة والأهل . فهو قد جعل ابنها ، وقد كان جندياً شجاعاً ، يظفر بوسام تقدير وجدارة ، بأن أشاد بحماسة أمام الجنرال نفسه ، بالعمل المشرف الذى قام به هذا الابن — وكان إدورد شاهده الوحيد — حتى استطاع أن يتغلب على معارضة بعض أهل السوء . فلم تعرف الأم كيف تعبر له عن شكرانها وتشهده له بجميل عرفانها . فهيأت ، بقدر ما وسعها ، غرفتها الأنيقة التى لم تكن فى الواقع فى الوقت نفسه إلا مستودع الملابس ومخزن التموين . ثم أعلن لها وصول سيدة ستنزل عندها ، فطلب إليها أن تهىء له — بدون كلفة — غرفة خلفية تطل على الممر . فبدت المسألة لصاحبة النزول محوطة بالأسرار ؛ وسرّها أن تنزل عند رغبة هذا السيد المحسن الذى أظهر الكثير من الحماسة والنشاط . أما هو ، فإذا كانت عواطفه خلال الساعات الطوال التى مرّت حتى أتى المساء ؟ لاحلاظ بعناية الغرفة التى سيقدر له أن يراها فيها ؛ فبدت له ، ببساطتها الريفية ، مُقاماً عُلُوياً . وكم تساءل عما إذا كان عليه أن يفاجئ أوتيلى أو أن تُهَيِّئاً للملاقاة ؟ وأخيراً تغلب الرأى الأخير ، وأنشأ يكتب . وها هي ذى الرسالة التى كان مقدراً أن تتلقاها منه :

من إدورد إلى أوتيلى

« أثناء ما تقرأين هذه الرسالة ، أى حبيبتي العزيزة ، سأكون بالقرب منك . لا تخافى ولا تجزعى ؛ فليس لدى ما يثير مخاوفك . فلن أدخل عليك قسراً وقهراً : ولن ترينى أبداً قبل أن تسمحى لى بالظهور أمامك .

« فكرى أولاً فى مركزك ، وفى مركزى ! كم أنا شاكر لك عدم اتخاذ أية خطوة حاسمة ! لكن هذه مهمة شاقة إلى حد كبير : فلا تقوى بها ! هنا ، حيث ينتهى طريقان ويتلاقيان ، فكرى مرة أخرى وتدبرى . أيمكن أن تكونى لى ؟ أتريدن أن تكونى لى ؟ أوه ! إذن ستسدين إلينا جميعاً خيراً كبيراً ، وإلى أنا خيراً لا يبلغ مداه التعبير .

« دعينى أراك مرة أخرى ، أراك بسرور وحبور ! دعينى أوجه إليك من فى هذا الرجا الرقيق ، دعى حضرتك العزیزة تجيب على ! على قلبى ! أى أوتيل ، حيث رقدت أحياناً ، وحيث تحمين أبداً ... »

وبينا كان يكتب ، استولت عليه فكرة أن هذه الفتاة المعبودة تقترب وعما قليل ستظهر . « ستدخل من هذا الباب ، وستقرأ هذا الكتاب ، وستكون أمام عينيّ كما كانت من قبل ، تلك التى طالما تمنيت أن أراها . أستكون كما كانت دائماً أم هل تغير وجهها وتبدلت عواطفها ؟ » وكان لا يزال يحمل القلم فى يده ، وأراد أن يستمر فى الكتابة كما عليه عليه فكره ... لكن العربة كانت تتدحرج فى الفناء ، فأضاف بيد مسرعة لهفى : « إني أسمع ... أنت وصلت ... وداعاً الآن ! »

وطوى الرسالة ، ووضع العنوان ؛ ولم يكن ثمت وقت لختمه بالشَّمْع . وهرع إلى المكتب المؤدى فيما بعد إلى الممر ، وفى اللحظة عينها تذكر أنه ترك على المنضدة ساعته وخاتمه . وكان من الواجب ألا تقع عينها من فورها على هذه الأشياء . فعاد أدراجه مسرعاً وأفلح فى أخذها . وهاهو ذا يسمع فى الدهليز صاحبة النزل وهى تتقدم نحو الغرفة لتفتحها للمسافرة . فهرع إلى باب غرفته ، لكنه كان مُغْلَقاً . وكان قد ترك المفتاح يسقط فى الداخل حينما اندفع للدخول ؛ وكان القفل مغلقاً باللولب ؛ أما هو فقد كان واقفاً أمام

الباب . دفعه بعنف : فلم ينفتح . أوه ! كم ودَّ أن يكون آتئذ روحاً فينسب من خلال الشُّفُرات ! ولما لم يستطع الهروب ، أخفى وجهه في صدع الباب . ودخلت أوتيلي : وعند ما رأت صاحبة النزل إدورد ، تراجعت ، أما هو فلم يستطع أن يَخْتَفِ عن نظرات أوتيلي : فاستدارت من حوله ، وتلاقى العاشقان على أغرب حالٍ وصارا كلاهما في حضرة الآخر . نظرت إليه بهدوء ورجد ، دون أن تتقدم أو تتقهقر ؛ ولما تحرك ليقترب منها ، تراجعت خطوات إلى الوراء حتى بلغت المنضدة . وهو أيضاً رُدَّ إلى الخلف قليلا .

صاح : « أوتيلي ، دعيني أقطع هذا الصمت الرهيب ! أوكسنا إلا ظلالا الواحد منا في حضرة الآخر ؟ لكن قبل كل شيء ، اسمي لي : بالصدفة تجديني هنا عند وصولك . بالقرب منك رسالة كان مقدراً لها أن تهيمك لهذا اللقاء ؛ فاقريها ، أستحلفك بالله ، اقرئي هذه الرسالة ، ثم قرري ما تستطيعين » .

ألقت بنظرها على الرسالة ، وبعد قليل من التفكير ، أخذتها وفتحتها وقرأتها . ثم نَحَّتْها جانباً برفق دون أن يتغير وجهها . ثم رفعت إلى السماء يديها المفتوحتين ، مستندة كل منهما إلى الأخرى ؛ وعادت بهما إلى صدرها ، بانحناءة من الجسم رشيقة ، موجهة إلى من توسل إليها بجملة نظرة أرغمته على العزوف عن كل ما يمكنه طلبه وتمنيه . مزقت هذه الحركة قلبه ، ولم يقو على تحمّل نظرة أوتيلي وحركتها . ولاح أنها على نبات الركوع على ركبتيها ، لو أصرَّ هو . نخرج يائساً ، وأرسل إليها صاحبة النزل .

كان يغدو ويروح على مسطح السَّلم . وكان الليل قد أرخى سدوله ، وفي الغرفة لم تكن ثمة نائمة . وأخيراً خرجت صاحبة النزل وخلعت المفتاح .

لقد استولى التأثر والاضطراب على هذه السيدة الطيبة الساذجة ، ولم تعرف ماذا تعمل ، وأخيراً حينما انصرفت قدمت المفتاح إلى البارون ، لكنه رفضه . فتركت النور وانصرفت .

وفي أعماق أحزانه نام على العتبة وغمرها بعبراته . ولعله لم يحدث مطلقاً من قبل أن كان عاشقان ، ما أقرب كلاً منهما من الآخر ، يقضيان ليلة قاسية كتلك الليلة .

- وانبليج الصباح ، وقدم الحوذى العربى ؛ وفتحت صاحبة النزل ودخلت الغرفة ، فوجدت الفتاة نائمة بملابسها كلها ؛ فتراجعت ، وبابتسامة خنون ، أشارت إلى إدورد . فتقدما سوياً نحو الفتاة الغافية : لكنه لم يستطع احتمال هذا المنظر ، وصاحبة النزل لم تجرؤ على إيقاف الطفلة الهادئة ، جلست قبالتها . وأخيراً فتحت أوتيل عينيها ونهضت . ورفضت الإفطار . هنالك مثل إدورد أمامها ورجاها بالحاح أن تتفوه له بكلمة واحدة تعتبر فيها عن إرادتها ، فهو لن يفعل إلا ما تشاء ، وأقسم بهذا لكنها التزمت الصمت . فسألها مرة أخرى بحب وإلحاح ما إذا كانت تريد أن تكون له . بأى لطف خففت عينيها ، وأنفخت رأسها معبرة عن رفض رقيق ! فسألها ما إذا كانت تريد الذهاب إلى المدرسة الداخلية . فرفضت بعدم اكتراث . وأخيراً حينما سألها عما إذا كان يمكنه أن يردها إلى شربلوت ، أجابت بلا تردد بالإيجاب ، بواسطة إشارتها برأسها . فهرع إلى النافذة يعطى الأمر إلى الحوذى ؛ لكنها فرت من الغرفة كالبرق الخاطف من خلفه وهبطت السلم وصعدت العربى . واستأنف الحوذى الطريق إلى القصر . وتابع إدورد الموكب راكباً على مسافة قليلة .

الفصل السابع عشر

كم تولت شرلوت الدهشة ، حينما رأت عربتها تعيد إليها أوتيللى ، وترى في الوقت نفسه إدورد عائداً على جواده في فناء القصر ! أسرعت حتى بلغت عتبة الباب . ونزت أوتيللى من العربة وتقدمت هي وإدورد ، وضغظت بحرارة على يد الزوج وزوجته ، وعانقت يد الواحد مع الآخر وهرعت إلى غرفتها . فقف إدورد بنفسه إلى جيد شرلوت وأسبل فيضاً من الدموع . إنه لا يستطيع أن يفسر ما حدث ؛ فتوسل إليها أن تصبر عليه ، وأن تغدو لمعونة أوتيللى . فطار شرلوت إلى صديقتهما الصغيرة ، وارتعدت حينما دخلت : رأت الغرفة خاوية من كل أثاث ، ولم يَعد فيها غير الجدران الأربعة ، ولاحت واسعة بقدر ما هي حزينة . لقد أخذ كل شيء ، فيما عدا الصندوق الصغير الذى تُرك وسط الأرضية ، لأنه لم يتقرر أين يجب أن يوضع . وكانت البائسة راقدة على الأرض ، ورأسها وذراعها مستندتان إلى الصندوق فأسرعت شرلوت إلى العناية بها ، وسألها عما جرى ، لكنها لم تظفر بأى جواب .

تركت عند أوتيللى وصيفتها التى أحضرت معها مقويات للقلب ، وهرعت إلى إدورد ؛ فوجدته في غرفة الاستقبال ، لكنه لم يكن في حاجة إلى أن يعلم منها شيئاً . فارتى على قدميها ، وبلل يديها بالدموع ، وفر إلى مخدعه ، ولما رغبت في متابعته ، التقت بمخادم الغرفة الذى أعطاها كل ما وسعه من إيضاحات . وحدّست هي الباقي ، ثم فكرت في الحال بكل عزم فيما يقتضيه الأمر تَوّاً . فائتتْ غرفة أوتيللى بأسرع ما يمكن ؛ واستعاد إدورد جناحه ، وكل أوراقه كما تركها .

ولاح أن ثلّاثهم قد عادوا إلى نفوسهم وثابوا إلى رشدهم ، حينما صار كلٌّ في حضرة الآخر . لكن أوتيلي أصرت على التزام الصمت ، ولم يكن في وسع البارون إلا أن يتوسل إلى زوجته أن تعتصم بالصبر الذي لاح أنه يعوزه هو الآخر أيضاً . وبعث برسائل إلى متلر وإلى الماچور . لكن لم يجدوا متلر في بيته . وجاء الماچور ، وتحدث إليه لإدورد بكل صراحة ؛ فاعترف له بكل ما حدث بتفاصيله الدقيقة ، وهكذا عرفت شرلوت ما جرى مما بدّل الموقف على هذا النحو الغريب وأشاع الاضطراب في القلوب .

تحدثت إلى زوجها بلهجة بالغة الحنان والعطف ؛ ولم تدر ماذا تقول له إلا أن تتوسل إليه ألا يضايق أحد الآن هذه الفتاة المسكينة . فقدر إدورد فضيلة امرأته وحبها وعقلها ، بيد أن هواه قد استولى عليه بطريقة مطلقة . فلوحّت له بالآمال ، ووعدته بالموافقة على الطلاق . لكنه لم يستطع الثقة بمحدثها وكلامها ؛ لقد كان على حال من المرض جعلته يهجر الأمل والثقة الواحد بعد الآخر فحملها على أن تعيد بيدها للماچور . واستولى عليه نوع من الهياج والجنون . ولكيما تهديء من نأثرته وتسكّن فوريته فعلت ما سألها ، ووعدت بيدها للماچور ، في الحالة التي توافق فيها ابنة أختها على الاقتران بإدورد ؛ لكنها أضافت هذا الشرط الصريح وهو أن يقوم الصديقان أولاً برحلة سوياً ، لقد كُلف الماچور من قبل أميرة بمهمة في الخارج : فوعد البارون بمصاحبته . وهيئت الإعدادات ، وشاع نوع من الهدوء قليل ، على الأقل لرؤية أن تمت شيئاً يُعْمَل .

وكان السهر على أوتيلي قائماً ، فشاهد أنها لا تكاد تتناول طعاماً . وأنها تصر على التزام الصمت . فوجّه إليها النصيح ؛ فصارت قلقة ؛ فتركت وشأنها ، إذ يحدث كثيراً أن يتملكنا الضعف فلا نحب أن نمدّب أحداً

حتى من أجل فائدته وصالحه . فسكرت أوتيلي في كل الوسائل ؛ وأخيراً
أنتها فكرة أن تدعو من المدرسة المعلم وقد كان له سلطان كبير على تلميذته
هذه ، وكان قد عبر ، بطريقة ودية خالصة ، عن دهشته لعدم وصول أوتيلي ،
لكنه لم يظفر بجواب .

ولكيلا تفاجأ أوتيلي ، تحدثوا عن هذا الاقتراح في حضورها . فلاح
أنها لا توافق عليه . وأفسرت وقدرت ؛ وأخيراً بدا أنها اتخذت قرارها .
هيرعت إلى غرفتها ، وقبل المساء بعثت بهذه الرسالة إلى أصدقائها مجتمعين .

من أوتيلي إلى أصدقائها

« لماذا يجب عليّ ، أي أعزائي ، أن أصرح بما هو مفهوم بنفسه ؟ لقد
خرجت عن طريق ، وليس عليّ أن أرتد إليه . إن جنسياً معاديا استولى عليّ
ويلوح أنه يواجهني بقوة الغريسة ، حتى لو صرتُ من جديد في وفاقٍ
مع نفسي .

« لقد طوبتُ كَشْحِي بصراحةٍ على العزوف عن إدورد ، والفرار
منه والزهد فيه ؛ وداعبني أمل في ألا ألتقي به أبداً . لكن ما حدث كان علي
خلاف هذا . لقد ظهر أُمَامِي ، على غير إرادة منه . ولعلّي قد تقيدت في تفسيري
الوعد الذي قطعتُه على نفسي بألا أدخل معه في حديث . لقد ألهمني ضميري
جأةً أن ألزم الصمت في حضرة صديق هذا ، وليس لديّ الآن ما أقوله .
تعهدتُ عَمَرَضاً تحت تأثير سلطان العاطفة تعهداً قاسياً لعله أن يكون عبثاً ثقيلًا
على من يقوم به بعد تفكير . فدعوني أستمرفيه طالما جعل قلبي منه قانوناً .
ولا تهيبوا بأية شفاعاة ولا وساطة ؛ ولا تتمجلوني بالكلام ، وبزيادة الغذاء
أكثر مما تقتضيه الضرورة القصوى ' . أعيونوني برحمتكم وصبركم على قضاء

زمان محنتى هاتيك . إلى شابة ، والشباب يبرأ خطوة خطوة . واحتملوا
حضورى بينكم ؛ وليكن فى حبكم ما يسحرنى ، وفى حديثكم ما يعلمنى ،
لكن دعونى سيدة عواطفى . »

أجل سفر الصديقين وقد كان مُعداً منذ زمان طويل ، لأن المهمة التى
كُلِّف بها الماچور قد عانت بعضاً من التأخير . وكم جاء هذا التأجيل
موافقاً لهوى إدورد ! ثم لما أنعشته رسالة أوتيلى وشجعتة كلماتها المواسية
المليئة بالأمل ، وحقَّ له أن يثابر بإصرار ، قرر فى التوأن لا يرتحل .

صاح : « أى جنون أن يلقى الإنسان مندفعاً بما هو ضرورى له كل
الضرورة ويضرب به عُرض الحائط ، مع أنه يجب الاحتفاظُ به ، حتى
لو كنا مهتدين بفقدانه ! ولماذا نعزف عنه ونزهد فيه ؟ لا لشيء إلا ليظهر
الإنسان قادراً على الاختيار والإرادة . وتحت تأثير هذا الغرور الأعمق ،
كثيراً ما تخلت عن أصدقائى وتركتهن ساعات طوالاً وأياماً عديدة ، فى وقت
أكثر بكوراً مما يجب ، لا لشيء إلا لكيلا أكون مضطراً وملزماً أمام
الأجل المحدود . أما هذه المرة ، فأنى أريد البقاء . فلماذا أرتحل ؟ أفلم تصر
بعيدة عنى الآن ؟ لا يخطر ببالى اليوم أن أطلب يدها ، وأضمها إلى قلبى ؛
بل لا أستطيع أن أخاطر بذهنى شيئاً من هذا ؛ إنها تجمعانى أقشعر وأرتعد ؛
إنها لم تبعد عنى ، لكنها ارتفعت فوق مستواى . »

بقى إذاً ، إما طائفاً وإما كارهاً ؛ لكن لم يكن لرضاء حدثٍ حينما كان فى
حضرة أوتيلى ؛ وهى أيضاً كانت تستشعر نفس الإحساس ؛ وهى أيضاً لم
يكن لها قبَل بتجنب هذا الانجذاب الرقيق العذب . لقد كان كلاهما يحدث
فى الآخر حينئذ ما كانا يحدثانه من قبل من جاذبية لا توصف ، أشبه ما تكون
بالسحر . كانا يمشان تحت سقفٍ واحد ؛ ومع هذا ، فحتى من دون أن

يفكر أحدهما في الآخر ، وحينما يكون كلاهما مشغولا بأشياء أخرى ، مجذوبا بمن يجتمع بهم ، فقد كانا يتقاربان بالتبادل . والاقتراب الكامل كان وحده القادر على تسكينهما ، وكان يسكنهما تسكيناً كاملاً فعلاً ، فكان ذلك كافياً . ولم يكونا يطلبان نظرة ولا كلمة ولا حركة ولا اتصالاً ، لا شيء أكثر من أن يوجد معاً . هنالك لم يكونا بعدد كائنين من بنى الإنسان ، بل كائناً واحداً يحيا في سلام غريزي كامل ، راضياً عن نفسه وعن الدنيا بأسرها . ولو أودع أحدهما في نهاية البيت ، لانجذب الآخر إليه ، من غير شعور ومن تلقاء نفسه ، بدون قصد . أجل ! لقد كانت الحياة بالنسبة إليهما لغزاً ، لا يجدان كلمته إلا إذا اجتمعا معاً .

وكانت أوتيل على حال من الهدوء والسكون السكامين بحيث أمكن الاطمئنان إليها تماماً من هذه الناحية . وكانت قليلاً ما تفارق الجماعة ، لكنها طلبت أن تأكل وحدها ، ونانت كانت وحدها التي تحبها عليها .

ما يحدث عادة للناس يتكرر أكثر مما يُظن ، لأن طبيعتهم أقرب الأسباب إليه . فالخلق والشخصية والميول والنزوع والسكان الذي يقام به والبيئة المحيطة والعادات تكون كلاً يسبح فيه كل أمرى وسط عنصر وجو فيه وحده يشعر بالرضا والطمأنينة . ومن هنا فإن الناس — والشكوى عامة من عدم ثباتهم على حال — ، يبدون لنا — وهذا مما يدهشنا كل الدهشة — ، دائماً هم الناس بعد كثير من السنين ، دون أن يكون في وسع الدوافع العديدة ، خارجية أو داخلية ، أن تغير منهم . على هذا النحو تابع كل شيء في حياة أصدقائنا هؤلاء اليومية ، نفس المجرى الذي كان عليه من قبل ، أو أقل قليلاً . وكانت أوتيل ، مع اعتصامها بالصمت ، تبدى دائماً باحتفائها الجميل دماً خلقها ؛ وكل فعل

هذا على أسلوبه في الحياة . وهكذا كانت الحياة المنزلية صورة للحالة القديمة ، وكان مقبولاً أن يتخيل المرء كل شيء كما كان قبلاً .

وذكرت أيام الخريف ، وكانت طويلة طول أيام هذا الربيع الأول ، الجماعة في المنزل بنفس الساعة . فزينة الأزهار والثمار ، الخاصة بهذا الفصل ، جعلها تنظر إلى الربيع الفائت كأنه الخريف الذي تلاه ؛ وضاع الزمان المتوسط بينهما في غمرة النسيان ؛ وشوهدت الأزهار تتفتح وكانت أمثالها قد بُذرت في تلك الأيام البعيدة ، ونضجت الثمار على الأشجار التي رُويت آنذاك مجللة بالأزهار .

وكان الماچور يسافر ثم يعود ؛ ومثلر يكثر من تروده . وغالباً ما كانت اجتماعات المساء دورية منتظمة . وفي العادة كان إدورد يقرأ بحياة أوفر ، وعاطفة أكبر ، وقريحة ، بل وسرور وبهجة أغزر مما كان قبلُ يفعل . ولاح أنه أراد بهذه التسلية والحساسية أن ينتزع أوتيلي من تخديرها ، ويقطع عليها صحتها . وكان على عادته القديمة يجلس بحيث يتيسر لها أن تقرأ في الكتاب ؛ بل لقد كان قليلاً مورّع البال حينما لا تنظر في الكتاب ، وحينما لا يكون متأكداً من أنها تتابع بعينها كل كلمة يفوه بها .

ونُسيت العواطف الحزينة والمشااعر الأليمة التي جرت في العهد المتوسط بين الماضي والحاضر ؛ وما من حقد صار في النفس بعدُ كما منّا ؛ واختفى كل نوع من الحدة والنفور . وكان الماچور يصاحب بكانه بيان شزلوت ؛ وانسجم ناي إدورد كما كان من قبل مع عزف أوتيلي وتمثيلها . واقترب يوم ميلاد إدورد وهم لم يكونوا قد احتفلوا به في العام الماضي . وكان لا بد أن يمضي هذه المرة في غير حليلة ولا أبهة ، يمضي في بهجة الصداقة وسرورها الساجي . واتفق أمرهم على هذا ، اتفاقاً نصفه سر ونصفه صريح . لكن كلما

اقترب ذلك الوقت ، نما في مزاج أوتيلي ذلك الطابع الجاد الذي كان الناس يشعرون به حتى الآن أكثر مما يشاهدونه بعيونهم . وفي الحديقة ، كانت تلوح كثيرا وهي تستعرض الأزهار — وهي قد أوصت البستاني بأن يُبقى على كل أزهار الخريف — وتتوقف خصوصا عند الأسطير ، وكان مزدهراً بغزارة في ذلك العام .

الفصل الثامن عشر

لكن أكثر شيء استرعى نظر الأصدقاء الذين كانوا يلاحظون أحوال أوتيلي صامتين هو أنهم رأوها تفتح الصندوق لأول مرة ؛ وأنها اختارت وفصلت ، من بين الأقمشة ، ما يكفي لفستان ، واحد ولكنه كامل . ولما أرادت أن تعيد الباقي إلى الصندوق ، بمساعدة نانت ، شق عليها هذا العمل : إذ كان مزدهراً إلى أبعد حد ، على الرغم من أن جزءاً من الأقمشة قد نَقَصه . ولم تنفك الوصيفة الشابة عن الإعجاب ، خصوصاً حين رأت أنه جُهِّز بكل شيء حتى أبسط تفاصيل الزينة . وبقيت أيضاً ، خارج الصندوق ، أحذية وجوارب وأربطة ساق مزينة بالشرائط ، وقفازات وأشياء أخرى . فالتفت من أوتيلي أن تنفجها بشيء منها . فرفضت أوتيلي ، لكنها فتحت في الحال درجاً في خزانة ذات جوارب (كومودينو) وتركت الفتاة تختار . فاختارت نانت بسرعة وبلا تمييز ، وفرت بغنيمتها في التو ، لكي تعلن لأهل المنزل عن ثروتها هذه وتعرضها لهم .

وأخيراً استطاعت أوتيلي أن تعيد كل شيء إلى مكانه ، ثم فتحت قسماً سرياً موجوداً في غطاء الصندوق ، فيه أخفت رسائل إدورد وبطاقاته ،

وأزهاراً جافة ، هي ذكريات لنزهاتها القديمة ، وخصلة من شعر عاشقها العزيز ، وأشياء أخرى . وأضافت إليها شيئاً آخر ... هو صورة أبيها ... وأغلقت السكّ ، ووضعت على صدرها من جديد المفتاحَ الثمين ، معلقاً بسلسلة ذهبية تحملها حول جيدها .

بيد أن آمالاً عديدة استيقظت في قلب أصدقائها . فقد كانت شرلوت واثقة من أن أوتيلي ستستأنف الكلام في يوم العيد ؛ لأنها أظهرت ، عند اقتراب ذلك اليوم ، نوعاً من النشاط ، وكان عليها سيماء الرضا الهادئ والابتسام ، مما يبدو مثله على وجه شخص يهيئ لأصدقائه مفاجأة سارة . ولم يكن أحد يعرف أن الفتاة تقضى الساعات الطوال في ضعف بالغ ، لم تكن تنهض منه إلا بمجهود هائل ، في اللحظات التي تبدى لهم فيها .

ومنذ بعض من الزمان ازدادت زيارات متلر وطالت مدتها على غير العادة . فإن هذا الرجل العنيد كان يعلم أنه لا توجد إلا لحظة واحدة لطرق الحديد . وقسّر على نحوه حسن صمت أوتيلي ورفضها . ولم يكن قد بذل أى إجراء بعد للطلاق . وكان يأمل في أن يهيئ بطريقة أخرى مستقبلاً سعيداً للفتاة الطيبة ؛ أرعى سمّعه ، وسكّم ، وفهم ، وسلك مسلكاً — على طريقته -- ينطوى على كثير من الحكمة . لكنه كان ينساق وراء الغضب حينما كان يجد الفرصة للتفكير في موضوعات يضاف عليها أهمية كبيرة . وكان يحيا كثيراً في نفسه ، وإذا وُجد مع غيره من الناس ، لم يكن ذلك إلا من أجل أن يبذل من أجلهم نشاطا . وإذا تكلم مرة وهو بين أصدقائه ، كما رأيناه من قبل مراراً ، فإنه يهدر في غير رحمة ؛ يجرح أو يشفي ، ويؤذى أو يفيد ، حسبما يتفق .

وفي عشية العيد ، كانت شرلوت والماجور جالسين في غرفة الاستقبال

انتظاراً لإدورد الذى خرج ممتطياً صهوة جواده . وكان متلر يتجول فى الغرفة ؛ وبقيت أوتيلى ملازمة لفرقتها ، كما تهىء زينة الغد ، وتلقى بعض التعليمات على وصيفتها التى كانت تفهمها جيداً ، وتعرف تماماً كيف تنفذ أوامرها الصامتة .

وتناول متلر واحداً من موضوعاته الأثيرة لديه . وقد كان يلذ له أن يقول إنه - سواء فى تربية الأطفال وفى حكم الشعوب وسياستها - لاشئ أفسد وأقسى من النواهي ، والقوانين والقرارات المصوغة فى قالب التحريم . قال : « الإنسان فعّال بطبعه ؛ ولو عرف المرء كيف يسوس أمر نفسه ، لتبع أولاً الاتجاه الذى يشاره عليه ؛ فيعمل ويؤدى واجبه . أما فيما يتصل بى ، فإنى أفضل ، فى محيطى ، أن أتحمل الأخطاء والذائل انتظاراً للفضيلة المضادة ، أولى من أن أتخلص من النقص ، دون أن أرى مكانه أى خير . وإن الإنسان ليعمل بارتياح وسرور كل ما هو خير وحكيم ، بشرط أن يستطيع بلوغه ؛ إنه يعمل ، لكىما يكون لديه ما يعمل به ، ودون أن يفكر فى الحماقات التى يُسلم نفسه لها إما بظالة وإما مَلالاً .

« وكَم يؤلنى أن أسمع المعلمين يلقنون الأطفال فى دروسهم الأوامر العشرة ! الأمر الرابع هو الحكم الإيجابى البديع الحكيم : « أَحْسِنْ إِلَى أَبِيكَ وَأُمِّكَ » . لو نقش الأطفال هذا القول جيداً فى عقولهم وروحهم ، لاستطاعوا الترن كلَّ يوم على ممارسته . لكن الأمر الخامس ، ماذا يجب أن يقال عنه : « لَنْ تَقْتُلَ أَبَداً ! » كما لو كان ثمت إنسان عنده أقل رغبة فى قتل أخيه ! إن المرء ليبغض آخر ، ويبغض ، وينفعل ، ويمكن أن يحدث ، كنتيجة لهذا كله ، أن يقتل إنساناً عَرَضاً . لكن ، أفليس من الوحشية فى التحذير أن يلقَّن الأطفالُ تحريم القتل والسفك ؟ لوقيل : « اسهر

على حياة جارك ، وابعد ما يؤذيه ، وأنقذه ، حتى لو كان في هذا خطر على حياتك ؛ وإذا أسأت إليه ، فاعرف أنك تسيء إلى نفسك » — لكنت أمثال هذه الأوامر أنسب لشعوب متمدينة عاقلة ، ومع هذا فهي لا تكاد تظهر بأى مكان بين أسئلة كتاب التعاليم الدينية (السكاتشيزم) .

« والأمر السادس ! إنى لأراه مريعا قبيحا . ماذا ؟ أنوقظ فى الأطفال حب الاستطلاع والمعرفة بأسرار خطيرة ! ونقدم لخيالهم موضوعات وأفكاراً غريبة ، ليس من شأنها إلا أن تعجل فى عنفٍ بالشر الذى يراد إبعاده وتجنبه ! كان الأولى حقاً أن يعاقب على هذه الأخطاء بطريقة تحكّمية بواسطة محكمة سرية ، أخرى من أن يسمح بالتحدث عنها أمام الكنيسة والأبروشية » .

فى هذه اللحظة دخلت أوتيل ، واستأنف متلر حديثه :
« لن ترتكب الزنا أبداً ! » أى سفاهة وآية وقاحة ! أفلم يكن المعنى مختلفاً تماماً لو قيل : « ستحترم رِباط الزواج ؛ وإذا رأيت زوجاً وزوجة يحب كلاهما الآخر ، فستسعد ، وستشارك فى سعادتهما كأنك فى يوم جميل ؟ وإذا ظهرت سحابة فى جو رباطهما ، فستعمل جهدك لتبديدها ؛ وستسمى لتهدئة خواطرهما وإيجاد الوفاق بينهما ، وتُشعرهما بمصاحبتها المتبادلة ، وبنزاهة نبيلة ستعمل على سعادة الآخرين ، بأن تفهمهم أية سعادة تصدر عن كل واجب يؤدّى ، خصوصاً عن ذلك الذى يربط بين الرجل والمرأة بروابط لا تنفصم عراها » .

كانت شرلوت على أحرّ من الجمر ، وزاد من قلقها ومخاوفها أنها كانت مقتنعة أن متلر لم يكن يفكر فى مدى كلامه ولا فى المكان الذى يتحدث فيه ، وقبل أن يكون فى وسعها مقاطعته ، رأت أوتيل يتبدل

وجهها وتنصرف .

« ستعفيننا على الأقل من الأمر السابع ، هكذا قالت شرلوت بابتسامة مقتضية .

فأجاب متلر : من الباقي كله ، بشرط أن أنفذ ذلك الأمر الذى يتوقف عليه باقى الأوامر » .

فى تلك اللحظة أقبلت نانتٌ مسرعة وهى تصرخ صرخات مرعبة :
« إنها تموت ! الأنسة تموت ! تعالوا ! هلموا ! » .

عادت أوتيلى إلى غرفتها وهى تترنح ؛ وكانت زينة الغد مبسوفة على كراسى عديدة ، وكانت الوصيفة وهى تتأملها بإعجاب تغدو وتروح مرسلة صيحات السرور .

« انظرى ، آنستى العزيزة ، ها هى ذى زينة خطيبي 'جديرة بك كل الجدارة ! »

سمعت أوتيلى هذه الكلمات فخرت على الأريكة . ورأت نانتٌ سيدتها يملوها الشحوب وتفقد الحركة : فهيرعت إلى شرلوت . فجاء الكل . وهرع الطبيب . فلم ير فى هذا إلا أثر خور وانحلال فى القوى . فأمر بإحضار مَرَقة ، فعاقتها أوتيلى بفزع . وكانت على بقات أن تقع فى انقباضات ، حينما قُرب الفنجان من فمها . فسأل بالحاح وإسراع كما اقتضى الظرف عن الغذاء الذى تناولته فى ذلك اليوم . فترددت الوصيفة ؛ فأعاد السؤال : فاعترفت بأن الأنسة لم تتناول شيئاً .

وبدا الاضطراب على نانتٍ أكثر مما يجب . فجرها الطبيب إلى غرفة مجاورة ، وتبعتهما شرلوت . فبحثت نانت على ركبتيها ؛ وصرحت بأن أوتيلى قد رفضت منذ زمان طويلاً كل طعام تقريباً . وتحت ضغط سيدتها ، كانت

هى التى تأكل الغذاء . ولم تقل هذا من قبل بسبب رجوات سيدتها وتهديداتها ، وأيضاً — هكذا أضافت بسداجة — لأنها وجدت الأطعمة شهية !

ودخل الماچور ومتلر ووجدوا شرلوت مشغولة مع الطبيب . وكانت الطفلة المعبودة جالسة فى ركن من الأريكة . كانت شاحبة ، لكن لاح عليها أنها لا تزال تحتفظ بكل وعيها . فسؤات أن ترقد ؛ فرفضت ، لكنها طلبت بالإشارة أن يُخَضَّرَ لها الصندوق . ووضعت تحت قدميها ، وصارت راقدة نصف رقدة فى وضع ملائم مريح . ولاح أنها تريد توديعهم ؛ وكانت حركاتها وإشاراتها تعبّر للحاضرين عن التعلق الحارّ ، والحب وعرفان الجميل ، وسؤال المغفرة والوداع المخلص الصادر من أعماق الفؤاد .

ولما نزل إدورد عن جواده ، عرف حال أوتيلى . فطار إلى غرفتها ، وارتقى تحت قدميها ، وأخذ يدها وغطاها بدموع صامته غزار . وظل هكذا زمناً ، وفى النهاية صاح :

« أفلى يقدّر لى بعد أن أسمع صوتك ؟ أولن تعودى إلى الحياة ، كما تقولين لى كلمة واحدة ؟ كفى ! كفى ! سأتبعك فى الموت . هناك سنتحدث بلغة أخرى » .

وضغطت على يده بقوة ؛ ووجهت إليه نظرة مليئة بالحب والحياة ، وزفرت زفرة عميقة ، وحرّكت حركة شفّتها مليئة بسحر سماوى ، ثم صاحت : « عدنى بأن تعيش ! » صاحت فى جهد رقيق لطيف ، ثم ارتدت إلى الخلف مرتمية فى الحال .

« أعدك بهذا ! » هكذا صاح إدورد بدوره ؛ لكن جوابه تبعها دون أن يبلغها . لقد فارقت أوتيلى الحياة .

وبعد ليلة أمضتها شرلوت في العبرات والزفريات ، كان عليها أن تعنى بدفن هذه البقايا العزيرة . وعاونها الماچور ومثلر . أما إدورد فقد تقطعت أنفاسه حُزناً وكهفناً ؛ ولما عاد شيئاً إلى رشده وأفاق قليلاً من يأسه ، ألح في عدم نقل أوتيللى خارج القصر ؛ لقد أراد أن يُعنى بها وتعامل كأنها شخص لا يزال على قيد الحياة ، لأنها لم تمت ، ولا يمكن أن تكون قد ماتت ، فترلوا عند إرادته ، بهذا المعنى على الأقل ، وهو أنهم تجنبوا عمل ما منعه . ولم يسأل أن يراها .

وجاء فزع آخر وقلق ثان شغل أصدقاءنا : فإن نانت ، وقد أنبها الطبيب أعنف تأنيب ، واضطرها إلى الاعتراف بواسطة التهديد ، وبعد الاعتراف أنحى عليها بأقسى اللائمة ، قد ولت فراراً . وبعد بحث طويل عُثر عليها : وقد بدا عليها أنها خرجت عن طورها . فأخذها أهلها لديهم ؛ ولم يفلح أى علاج فيها ؛ وكان لا بد من حبسها في غرفة ، لأنها كانت تهدد بالفرار مرة أخرى .

وأفلح القوم في أن يخرجوا إدورد شيئاً فشيئاً من يأسه القتال ؛ لكن هذا كان من أجل شقائه ، لأنه رأى بوضوح وأيقن أنه فقد نعيم حياته إلى غير رجعة ، وحاولوا أن يصوروا له أن أوتيللى وقد وضعت في الكابله لا تزال في عداد الأحياء ، وتنعم بثوى هادى وديع . وكان من المسير الظفر بموافقته ، على شرط أن يحمل إلى هناك في تابوت مفتوح ، وأن توضع في الحفرة تحت غطاء من الزجاج ، ويوضع إلى جوارها مصباح يوقد باستمرار : هنالك لاح أنه موافق ومستسلم لكل شيء .

وألبس هذا الجسم الجميل نفس الزينة التي هيأتها لنفسها ؛ ووضع على رأسها تاج من زهرة اللؤلؤ (المرجريت) كان يرف كالنجوم الحزينة . ولترين

التابوت والكنيسة والكابلة خربت كل الحقائق ، وكان الشتاء قد حصد كل الكنوز الباسمة في المياض والمزاهر . وفي الصباح الباكر نقلت من القصر في تابوت مفتوح ، وأضاءت الشمس المشرقة هذا الوجه الملائكي مرة أخرى . وتدافع الموكب حول حاملي النعش : إذ لم يشأ أحد أن يسبقه ولا أن يتبعه ، بل أراد الجميع أن يحيطوا به ، ورغب الكل في أن يتمموا بحضرتها للمرة الأخيرة . وكان الجميع من رجال ونساء وأطفال متأثرين إلى عمائق قلوبهم . والفتيات خصوصاً ، وهن اللاتي أحسنن أكثر من غيرهن بالخسارة التي أصيبن بها ، كنَّ فوق متناول كل تعزية وسلوى .

ولم تكن نانت حاضرة . فقد مُنعت ، أو بالأحرى أُخفيت عنها يوم الدفن وساعته ؛ فأبقوا عليها عند أهلها في غرفة تطل على الحديقة . لكنها حينما سمعت أصوات النواقيس ، أدركت تماماً ما يجري ؛ ولما كانت حارسها — وقد شفها أن ترى الموكب — قد غادرتها ، فقد تسربت من نافذة في الممر ، ولما وجدت كل الأبواب موصدة ، صعدت إلى الطابق الأعلى .

وتقدم الموكب بخطوات موزونة ، خلال القرية ، في طريق كنس جيداً ونثرت فيه الأوراق . ورأت نانت بكل وضوح تحت عينيها سيدتها أوجل وآناق من كل الفتيات اللاتي كنَّ يشيطن الجنازة . ولاحظت أنها تشير إلى خادماتها كأنها مخلوق سماوي محمول على أجنحة السحاب أو تهبج الأمواج ، فاضطربت الفتاة وترنحت وطاش عقلها فاندفعت وألقت بنفسها وهوت .

فتباعد الجمع من كل ناحية وهم يصرخون صرخات مريضة . واضطر التدافع والصخب الحاملين إلى وضع التابوت . وكانت الطفلة راقدة إلى جواره ؛ وكان يلوح أن أعضاءها قد تحطمت كلها . فأنهضت ، ومصادفة أو بهبة خاصة ، أسندت إلى جسم أوتيل ؛ ولاحظ أنها أرادت ، بما بقي فيها من حياة ،

أن تصل حتى سيدتها العزيزة . لكن ما كادت أعضاؤها المحلقة تمس الثياب ، وأناملها الواهنة تلمس يدي أوتيل المنضمّتين حتى نهضت الفتاة فجأة : فرفعت يديها إلى السماء ، ثم ركعت أمام التابوت ، وفي نشوة ورعة تأملت سيدتها .

وأخيراً نهضت ، وكأخما أصابها الوحي ، وصاحت بسرور مقدس :
 « أجل ، لقد غفرت لي ! إن ما لم يغفره لي الناس ، وما لم أستطع أنا أن أغفره لنفسى ، يغفره الله لي بواسطة نظرة سيدتى وحركتها وبفعما .
 وها هي ذى تعود إلى مشواها الوداع العذب ، لكنكم رأيتم كيف نهضت وكيف باركتنى يديها البسوطتين ، وكيف نظرت إلى نظرة صداقة وود !
 وسمّتم جميعاً ، وأنتم على هذا شهود ، أنها قالت لي : « لقد غفرت لك ! » .
 لم أعد بينكم بعد الآن مجرمة آثمة : لقد صفحت عني وغفر الله لي ذنبي ، وليس في وسع أحد بعد أن يلومنى » .

وتكالب الجميع عليها : ودّهشوا ، وأرّعوها أسماعهم ، وتلفتوا عن عيني وشمال ، ولم يعرف أحد ماذا يفعل .

« احملوها إلى مشوى الراحة والسكون ، هكذا قالت الفتاة ؛ لقد أدّت واجبها ، وكان لها نصيبها من الألم ؛ وليس لها بعد أن تقيم بيننا » .

فاستأنف الموكب سيره ، تتقدمه نانت . وبلغوا الكنيسة والكنائبة . وهناك وضعوا تابوت أوتيل ، عند رأسها تابوت الطفل ، وعند قدميها الصندوق الصغير وقد وضع في خزانة متينة من البلوط . ووضع حارس للسهر في الأيام الأولى بالقرب من الجسم الذى لاح أنه كان لا يزال مليئاً باللفظ ، وهو راقد تحت غطاء من البسّاور ؛ بيد أن نانت لم تشأ أن يسلبها أحد هذه المهمة ؛ بل شاءت أن تظل وحدها بلا رفيقة ساهرة بعناية على المصباح الذى

أضى، لأول مرة. وألحقت في الرجاء للظفر بهذا العطف وأصرت حتى أجيبت إلى طلبها، حتى لا تنتابها آلام معنوية أبشع، كان يخشى عليها منها.

لكنها لم تبق وحيدة طويلاً. لأنه عندما أقبل المساء ونشر النور المُرْفِرِف ضوءاً ساطعاً ناشراً كل تأثيره، فُتِح الباب ودخل المهندس في الكابله وقد بدت له جدرانها بزخرفتها الطاهرة تحت هذا الضوء الهادئ أكثر قدماً وأمعن في الأسرار مما كان في وسعه أن يتخيل.

وكانت نانت جالسة إلى جوار التابوت. فتعرفت الشاب في الحال: لكن، دون أن تتفوه بكلمة، لوحت بإصبعها إلى سيدتها الشاحبة. وكان هو واقفاً في الناحية الأخرى عليه حياءً الشباب وجماله، منطوياً على نفسه، ثابتاً لا يتحرك، مُفكراً، قد أنزل ذراعيه وضم يديه، تميراً عن الشفقة والحنان، ورأسه مائلة محنية ونظرته مثبتة على جسم الميتة.

وهو من قبل قد وقف هذه الوقفة نفسها في حضرة بليساريوس. فعاد إليها الآن دون أن يبي. وكم كانت هنا أيضاً طبيعية! في هذه المرة أيضاً هبط فضل لا تصاب له قيمة من ذروته السامية. وإذا كنا نندب في المحارب الشجاعة والحكمة والقوة والمكانة والحظ كأشياء ذهبت إلى غير عود؛ وإذا كانت فضائل لا غنى عنها للأمة والحاكم، في اللحظات الحاسمة، قد أسىء تقديرها، بل رُفِضت ومُنِيت: فهنا نظيرها من الفضائل التي أخرجتها الطبيعة من جوفها الخصب قد قُضِي عليها بيدها غير العابثة ولا المكترثة؛ فضائل عزيزة، نادرة جميلة، يستشعر العالم الفقير إليها في كل وقت، أثرها الهادئ بمتعة وسرور، ويحس بفقدانها بألم وحزن مقيم. في الشاب والفتاة حيناً صامتين: لكنها حيناً رأته وقد تبللت عيناء

بالدموع ، ولاح أنه غارق في هوة الألم ، تحدثت إليه بقوة وصدق ، وإحسان واقتناع إلى حد أنه وقد أدهشته فصاحتها استعداد ثباته ورباطة جأشه ، ولاح له أن صديقه الجميلة تحيا وتعمل في دائرة علوية . خفت عبراته ، وهدأت آلامه ، وجئنا على قدميه ، وودّع أوتيل ؛ ثم ودّع نانت ، وهو يضغط برفق على يديها ، وقبل نهاية الليل ، رحل راكبا جواده ، دون أن يرى أحداً من الناس .

وكان الجراح قد قضى الليلة في الكنيسة ، على غير علم من الفتاة ، وحيما زارها في الصباح ، وجدها مليئة بالشجاعة والرزانة والهدوء . وتوقع منها كثيرا من الأوهام والتخيلات ؛ وخيل إليه أنه سيسمعها تحدثه عن أحاديث ليلية مع أوتيل ورؤى أخرى مشابهة ؛ لكنها كانت طبيعية ، هادئة ، مألوفة لزمأنفسها تماما . وكانت تذكر الماضي تماما ، وكل الظروف بكل دقة ، ولم يكن في حديثها شيء ندد عن الواقع وانحرف عن جادة الصواب اللهم إلا حادث الجنازة ، الذي لذلها أن تكرر لنفسها كثيرا ، مُرددة كيف نهضت أوتيل وباركت عليها وغفرت لها وأعادت بهذا إليها الطمأنينة أبدا . واجتذبت حالة المتوفاة — وقد ظلت على حالها من الجمال ، ولاح أنها نائمة أولى من أن تكون ميتة — الكثير من الناس . ورغب سكان المنطقة وما جاورها أن يروها مرة أخرى ؛ وود كل أن يسمع من فم نانت الحادث الخارق الذي لا يمكن تصديقه : البعض للسخرية منها ، والكثيرون للشك فيه ، وقليلون للإيمان به .

كل حاجة يعوزها الإشباع الحقيقي تدعو إلى الإيمان . إن نانت ، التي اقتحمها كل الميوت ، قد شفيت بلهسة من الرُّفَات المقدس : فلماذا لا ينعم بهذه المنحة آخرون أيضا على هذه الأرض ! أتى كثير من الأمهات

الحنونات — سرّاً في أول الأمر — بأبنائهن المصابين ببعض الملل ، واعتقدن أنهن لاحظن شفاءً مفاجئاً . زادت الثقة ؛ وأخيراً جاء أكثر الناس عاهات ونقائص وأبعدهم في السن ، جاءوا جميعاً ينشدون عند أوتيل الصحة والقوة والعزاء . وازداد جمع الوافدين ، حتى اضطر أولو الأمر إلى إغلاق الكابله ، بل والكينيسة في غير ساعات الخدمة الربانية .

أما إدورد فإنه لم يعد يجزئ على الاقتراب من الميتة . فماش منطوباً على نفسه ؛ ولاح أنه استنفد كل دمع وعبرة ، ولم يعد قادراً على التألم . وكلّ يوم قلّت مشاركته في الحديث ، وقل تناوله الطعام . لكن لاح أنه لا يزال يستمد شيئاً من العزاء من الزجاجة التي لم تكن مع ذلك نبيّاً صادقا . ولذ له دائماً أن يتأمل الأرقام المتعاقبة ، وبدا أن عينه الرزينة الجادة تنبئ أنه لا يزال يأمل في أن ينضم إلى صديقه . وكما أن كل حادث يبدو أنه يشجع السعداء ، وتزيد في عونهم كل مصادفة ، كذلك فإن أقل الأحداث ينتج عند البائسين الخور واليأس والقنوط . وذات يوم قرّب إدورد من شفّتيه الزجاجة العزيزة ، بيد أنه أبعداها جازعا في الحال ؛ لقد كانت هي نفسها ، ولم تكن هي نفسها . وعبثا حاول أن يجد فيها علامة صغيرة . فسأل خادم غرفته حقيقة أمرها : فاضطر للاعتراف بأن الزجاجة الحقيقية قد كُسرت أخيراً ، واستمعيض عنها بأخرى مماثلة تعود هي الأخرى إلى أيام شباب سيده . لم يستطع إدورد أن يظهر الغضب ؛ لقد تقرر مصيره بهذا الحادث ، ولماذا تحدث الشارة أثراً في نفسه ؟ مع هذا تأثر بهذا أعمق تأثر . ومنذ تلك اللحظة ، عاف كل شراب ؛ ولاح أنه عقد نيته على الامتناع عن الطعام والكلام .

بيد أن نوعاً من القلق كان يستولى عليه من حين إلى حين ؛ فكان

يسأل بعضاً من الطعام ، ويستأنف الكلام .
 « آه ! هكذا قال يوماً للماجور الذى كان دائماً تقريباً إلى جواره ،
 كم أنا بائس ! كل مجهوداتى لم تُفَضَّ إلا إلى محاكاة ، وإلى عمل لا غناء
 فيه . وما كان هناء لها صار عندى عذاباً وشقاء . ومع هذا فإنى مضطر إلى
 تحمل هذا المذاب كيما أصل إلى ذلك الهناء . يجب أن أتابعه ، أتابعه من
 هذا الطريق . لكن طبيعتى ووعدى يمنعانى . ياله من عمل مخيف أن
 يحاول المرء محاكاة ما لا يمكن محاكاته ! إنى لأشعر جيداً ، أيها الصديق ،
 بأن المرء لا يستطيع أن يظفر بشيء من دون عبقرية وموهبة ، بل ولا أن
 يظفر بالاستشهاد » .

وفى هذا الموقف الملى بالقنوط ، ماذا يجدى أن نرى كل ما فعلته
 شرلوت والماجور والطبيب لإدورد حيناً من الزمان ؟ لقد وجد أخيراً ميتاً .
 وكان متلر هو الذى قدر له أن يكتشف هذا الاكتشاف الحزين . فدعا
 الطبيب ، وبثباته المجهود ، لاحظ بدقة كل الظروف التى وجد فيها التوفى .
 وهرعت شرلوت وقد خرجت عن صوابها : وخيل إليها أنه انتحر . واهتمت
 نفسها ومن حولها بإهمال لا يفتقر . لكن الطبيب ، بأدلة مادية ، ومتلر
 يبراهين معنوية ، أقنعاها بأنها مخطئة . فمن الواضح أن إدورد قد فاجأه
 الموت فى لحظة هادئة . وقد انتزع من صندوق صغير حافظة أوراق ونشر
 أمام عينيه ما اعتاد حتى ذلك الحين أن يخفيه بعناية ، ونعى ما بقى له من
 أوتملى : خُصلة من الشعر ، وأزهار اقتطفت فى أوقات هائلة ، وكل
 البطاقات التى كتبها إليها ، من الأولى التى ردتها إليه شرلوت بصدفة
 منيئة ، حتى الأخيرة : كل هذه الأشياء لم يكن فى وسعه أن يمرضها باختياره
 لاكتشاف عمرضى طارىء .

وهذا القلب الذى ظل حيناً طويلاً فريسةً لاضطراب لا حدَّ له ولا نهاية ، قد صار الآن غارقاً فى سُبات أبدي ؛ ولما كان قد رقد وهو يفكر فى الفتاة القدسة ، فيمكن أن يقال من غير شك إنه مات مغموراً بالسعادة . ولقد أعطته شرلوتُ المكان الذى كان ينتظره إلى جوار أوتيلى ، ومنعت من أن يدفن أحدهُ بالقرب منهما فى هذه الحفرة . وتحت هذا الشرط وهبت الكنيسة والمدرسة والراعى والمعلم أوقافاً طائلة .

وهكذا رقد العاشقان كلاهما بجوار الآخر ؛ والسلام يسود فى مشواهما الأخير ؛ والملائكة ، إخوانهما ، يلقون عليهما من أعلى قبة السماء نظرات ساجية وادعة . آه ! ما أسعد اللحظة التى سيمعثان فيها معا !